Shortlisted
The 2022 International Booker Prize

مييكو كاواكامي

الجنّة

Telegram:@mbooks90

ترجمة:
زوينة آل تويّه

رواية

دار الآداب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجنَّـة

ميكو كاواكامي / روائيَّة يابانيَّة

ترجمتها عن الإنكليزيَّة: زوينة آل تويّه

الطبعة الأولى عام 2024

ISBN 978-9953-89-751-6

Copyright © 2009 by Mieko Kawakami

Original Japanese title: Hevun

Original publisher: Kodansha Ltd

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيٍّ جزءٍ منه، أو تخزينِه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقلِه بأيّ شكلٍ من الأشكال، من دون إذنٍ خطّيٍّ مسبقٍ من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة

موقعنا www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكترونيّ:

info@daraladab.net

rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأوّل

ذات يومٍ في أواخر نيسان، بين الدُّروس، فتحتُ مِقْلَمَتي لأجد بين أقلام الرصاص وُرَيْقَةً مطويّةً على شكل مثلّث.

بسطتها لأقرأ ما فيها.

«يجدر بنا أن نكون صديقَيْن».

ذلك هو كلّ ما أنبأت به الوريقة. حروفٌ دقيقةٌ كعظام سمكةٍ صغيرة، كُتِبت بقلم رصاصٍ كبّاس.

بسرعةٍ طويتها وأعدتها إلى المقلمة. تنفّستُ نَفَساً طويلاً وتريّثت قبل أن أُجيل نظري، حوالي الغرفة، بما أمكنني من اللامبالاة. كانت ثُلّة الزملاء نفسها تُهَرِّج وتتصايح في الفسحة بين الدروس. سعيت إلى تسكين روعي فتشاغلت بتسوية كتبي ودفاتري مراراً، ثم بريت قلم رصاصٍ على مَهَل. وما كاد يمضي وقتٌ طويلٌ حتى رنَّ الجرس مؤذناً ببدء الحصّة الثالثة. صَرّت قوائم المقاعد على الأرض. دخل المعلّم إلى الغرفة وبدأ الدرس.

لا ريب في أنَّ الإشعار بالوريقة كان خدعة، بيد أنّني جهلت سبب إتيان هؤلاء الصبية دعابةً لطيفةً بعد كلّ هذه المدّة. تنهّدت في سِرّي واستكنت إلى الجهل المعتاد.

ما وُضِع في مقلمتي كان هو الإشعار الأوّل فحسب. ثم أُلصقت إشعاراتٌ أخرى بباطن طاولتي حيث أمكن يدي أن تمسّها بيسر كلّما وجدت إشعاراً اقشعرّ جسدي. نظرت حوالي الصفّ مُحترِزاً من أن يراني أحدهم، فلطالما شعرت بأنّهم يراقبونني. اعتراني قلقٌ غريب، وقد حِرْتُ في أمري وما عرفت كيف أتصرّف.

«ما كنت تصنع البارحة عندما أمطرت؟»

«لو استطعتَ أن تجوب البلدان، فإلى أيّ بلادٍ سترحل؟»

وريقاتٌ بحجم بطاقاتٍ بريديّةٍ كُتبت عليها أسئلةٌ سهلة، وكنت ألوذ بغرفة الحمّام

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقراءتها. كنت سأرميها لولا أنّني ما عرفت أين أرميها، فانتهيت إلى رصّها وراء غلاف مفكّرتي داكن الزرقة.

لم يتغيّر شيءٌ بعد مجيء الإشعارات.

في أكثر الأيّام كان نينوميا والآخرون يجبرونني على حمل حقائبهم، ويركلونني كأنّ ما يفعلونه أمرٌ تَفِه، ويضربون رأسي بآلات التسجيل، ويُكرهونني على العدو. إلاّ أنّ الإشعارات كانت لا تني تصل، وصارت الرسائل أطول. لم يظهر اسمي عليها ولم تُوقَّع، ولمّا أمعنت النظر في الخطّ، فكّرت في أنّ من كتبها لم يكن نينوميا ولا غيره من الصبية، وإنّما شخصٌ آخر. غير أنّني أدركت أنّ هذا ما كان إلاّ ظنًّا أحمق، فَصَرَفْتُهُ عن عقلي ظنوني الأخرى، وساء حالي.

ومع ذلك، أصبح البحث عن ورَيقةٍ جديدةٍ كلّ صباحٍ عادتي الصغيرة. وقد شرعتُ أُبكِر في المجيء حيث لا أحد في الصفّ، والمكان هادئ، وثمّة رائحة زيتٍ خفيفةٌ في الهواء. أسعدتني قراءة تلك الرسائل الصغيرة. على أنّني لم أغفل قطّ أنّ ذلك قد يكون فخًّا من الفِخاخ، لكنّ شيئاً ما في تلك المكاتيب أشعرني بالأمان، ولو لوقتٍ قصير، مع معاناتي كلّها.

في مطلع أيّار، قبل العطلة بقليلٍ، أتاني إشعارٌ يقول «أودُّ أن ألقاك. فلنتقابل بعد المدرسة. سأكون هناك من الخامسة إلى السابعة». وقد أُرفِق به تاريخٌ وخارطةٌ مُيسَّرةٌ مرسومةٌ باليد. سمعت خفق قلبي يضجّ في أذنيّ. قرأت المكتوب مراراً حتى كدت أرى الكلمات أمامي، وإن أغمضت عينيّ. أقمت طيلة النهار مفكّراً في ما يجب أن أفعل ولم يشغلني شيءٌ آخر في أثناء الفُسحة حتى أوجعني رأسي وقلّت شهوتي للطعام. لم أشكّ في وجود نينوميا والآخرين بانتظاري هناك عندما أصل، متأهّبَين لضربي ضرباً ما خبُرته في حياتي. وعندما يرونني هناك سيحيطون بي ليطيب لهم لعب ما استجدّ من ألاعيبهم للنيل منّي. وسيشتدّ الأمر ويسوء.

شقَّ عليّ نسيان الأمر.

ولمّا حلّ اليوم الموعود لم أستطع فعل شيءٍ لأهدّئ من روعي. وطوال اليوم في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصفّ لبثث أراقب نينوميا ورفاقه ما أمكنني، ولم أستبن تبدّلاً كبيراً في تصرّفاتهم، إلى أن لاحظني أحدهم، وقال «إلامَ تنظر يا هذا؟» ورماني بنعله، فأصاب النعل وجهي ثم وقع على الأرض. أمرني بالتقاطه ففعلت .

في نهاية اليوم، أخذ منّي الغضب كلّ مأخذٍ حتى شعرت بالغثيان. وما إن انتهت الحصّة الأخيرة حتى كنت أعدو طوال الطريق إلى البيت. وبينما كنت على هذه الحال سألت نفسي إن كنت سأذهب حقًّا، وعجبت لأمري، إلاّ أنّني مهما أمعنت في الأمر لم أتيقّن من شيء. لقد ساورني شعورٌ بأنّ ما أختار فعله ينقلب خطأً.

عندما رأتني ماما داخلاً البيت حيّتني وهي جالسةٌ على الأريكة ثم عادت إلى مشاهدة التلفاز. رددت التحيّة. في التلفاز كان صوتٌ يقرأ نشرة الأنباء. وكان ذلك هو الصوت الوحيد في البيت. كلّ الغرف كانت هادئةً كالمعتاد.

قالت ماما «ظللتُ أطهو طوال النهار».

تناولتُ علبة عصير ليمونٍ هنديٍّ من الثلاّجة وملأت كأساً بالعصير وشربته على منضدة المطبخ. رمقتني ماما وطلبت منّي أن أشربه على مائدة الطعام. بعد قليل، سمعت صوت تقليم أظافر يدٍ أو قدم.

«أتعنين طهو العشاء»؟

«إهه. ألا تشمُّ رائحته؟ إنّه أوّل طبق لحمٍ مشويٍّ أعددته مربوطاً بخيط»!

سألت نفسي عمّا إذا كان أبي سيعود إلى البيت، لكنّني عزمت على ألاّ أسألها.

«أتودّ أن تأكل باكراً»؟

«كلاّ. سأقصد المكتبة حتى حين. سآكل فيما بعد»

في بلدتي شارعٌ كبيرٌ تحفّه الأشجار وتقوم على جانبيه مجموعةٌ من المباني.

هذا هو الدرب الذي أسلكه إلى المدرسة. لكي أصل إلى مكان اللقاء عليّ الانعطاف يساراً في منتصف الشارع المحفوف بالأشجار، ومنه إلى شارعٍ جانبيٍّ يُفضي إلى أرضٍ رمليّةٍ لا تكاد تصلح لمتنزّه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خرجت من البيت في الساعة الرابعة وعندما وصلت لم يكن هناك أحد. اغتنمت الفرصة لأستريح. كان هناك ما يشبه مقعداً من إطاراتٍ نُصِبت على أطرافها، وحُوتٌ من الإسمنت بينه وبين الإطارات صندوق رملٍ لم يكن أكبر من حَشِيّة، امتلأ بأغلفة حلوى وأكياس بلاستيك.

ميّزتُ في تلك القمامة قطع برازٍ جافٍّ لكلابٍ أو قططٍ وقد التصق الرمل بها فبدت مثل لقيمات تمپورا. جرّبت عدّ اللقيمات، إلاّ أنّ قطعاً جديدةً جعلت تظهر. يبدو أنّ صندوق الرمل قد امتلأ بها. ثم صعقتني الفكرة. إنّ من دعاني إلى هذا المكان قد يُكْرِهني على أكلها. التهب حلقي. أفرغت رئتيّ محاولاً إبعاد طعم الفضلات، بيد أنّ الفكرة وحدها أشعرتني بالغثيان .

كان فم الحوت كبيراً يسع شخصَين بحجمي. وقد تآكل طلاء هيكله حتى صعُب تحديد اللون الذي كان عليه. علّم الناس ظهره ورأسه بعلاماتٍ ثابتة. وكانت قطعة الأرض تلك تقع في ظلال مساكن قديمة، وأرضيّتها سوداء تشبه عَفَناً.

تزجيةً للوقت المتبقّي عدت إلى الطريق المحفوف بالأشجار. جلست على مقعدٍ من معدن، وشهقت وزفرت. وفكّرتُ في أنّني أخطأت بالمجيء إلى هنا، لكنّني إذا لم أفعل ولم ينل نينوميا والآخرون مرادهم فسأُجازى شرّ الجزاء. وقلت لنفسي إنّ ما أفعله أو لا أفعله سيّان، فلن يتغيّر شيء.

زفرتُ مرّةً أخرى ورفعتُ ناظري فاعتراني دُوار. منذ عهدٍ قريب، لم تكن الأشجار إلاّ جذوعاً سوداء، والآن نَمَت أوراقها وكلّما هبّت الريح أمكن المرء سماع حفيفها. خلعت نظّارتي وعركت عينيّ، ثم عاينت الطريق مرّةً أخرى. على العادة، كان العالم مسطّحاً لا عمق له. تراءى المنظر لعينيّ في صورة بطاقةٍ بريديّة، ولمّا طرفتُ تلاشت الصورة وحلّ محلّها منظرٌ جديد.

بعد حين، وكنت ما زلت عاجزاً عن التفكير، عدت إلى مكان اللقاء. رأيت فتاةً تجلس على الإطارات مُوَلِّيةً ظهرها لي. فتاةً في زيّها المدرسيّ. تلك كانت مفاجأة. قلّبت طرفي في المكان باحثاً عن أحدٍ آخر، وما من إشارةٍ دلّت على ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحذرٍ دنوت منها. ولمّا وقفتُ قرب فم الحوت سمعتُ هي وقع خطاي فالتفتت نحوي. كانت تلك كوجيما. من صفّي. وقفت ونظرت إليّ متعجّبةً قليلاً، فنظرت إليها وتعجّبت أنا أيضاً.

«الرسالة»؟

كانت كوجيما قصيرة القامة سمراء البشرة، دائمة الإحجام عن الكلام في المدرسة. وكان قميصها متغضّناً ولباسها المدرسيّ قديماً. ما كانت تقف باستقامةٍ قطّ. شعرها كثيفٌ فاحم السواد، لا يسترسل لخشونته، أشعث تنتشر خُصَله في كلّ اتّجاه. تحت أنفها بقعةٌ سوداء، كأنّها وَسَخٌ أو لعلّها شعرة، طالما عرّضتها للسخرية. وكانت الفتيات في الصفّ يضايقنها لفقرها وقذارتها.

ضحكت كوجيما، وتبسّمت حائرة، وقالت «ما حسبتك ستأتي، أكان الأمر مريباً لك»؟

عجزت عن قول شيءٍ فهززت رأسي نافياً. وقفنا صامتَين وقتاً.

قالت كوجيما «اجلس». أومأتُ برأسي وحاولت أن أستوي جالساً على الإطارات.

«ليس عندي ما أقوله. ارتأيت أنّه يحسُن بنا، نحن الاثنَين، أن نتكلّم. وأصدقك القول إنّي شعرت بأنّ كلينا بحاجةٍ إلى ذلك. أحسب أنّني أشعر بذلك منذ مدّة».

تلعثمت كوجيما في الكلام، وقد أدركتُ أنّها كانت تلك أوّل مرّةٍ أسمع صوتها. أوّل مرّةٍ رأيت وجهها من كثَب. وأوّل مرّةٍ كلّمت فتاةً هكذا. ابتلّت راحتاي ونضح جسدي بالعرق. لم أعرف جهةً آمنةً أولّي وجهي شَطرها.

«أسعدني مجيئك».

لم يكن صوتها مرتفعاً ولا منخفضاً، لكنّه كان حازماً، كأنّ في قلبه ما يشدُّ بعضه بعضاً. أومأت لها برأسي مراراً. لاحظت كوجيما ذلك واطمأنّت.

«أتعرف اسم هذا المتنزّه»؟

هززت رأسي نافياً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«متنزّه الحوت. أترى؟ الحوت هناك. أحسب أنّني الوحيدة التي تدعوه بهذا الاسم». ضحكت. توهّمتُ أنّني أتلفّظ بالاسم. متنزّه الحوت.

«كما قلت، منذ مدّةٍ وأنا أريد أن نتحدّث، ولذلك كتبت إليك تلك الرسائل. ما حسبت أنّك ستأتي، وقد عجبتُ من مجيئك». وأنشأت تفرك أنفها وتتحدّث أسرع من ذي قبل.

أومأت برأسي موافقاً.

قالت وهي تنظر إليّ «أودّ أن نصبح صديقَين. أعني إن راقك ذلك».

لم أفقه ما قالت، لكنّني وافقت. وقد تنازعتني الظنون؛ فما معنى أن نصبح صديقَين؟ وما ينبغي لصديقٍ أن يفعل؟ لم أجرؤ على السؤال. سال العرق على ظهري. ابتسمت كوجيما. أبهجها جوابي حقًّا. تنفّست، وقالت لي إنّها سعيدة. ثم نهضت من مقعد الإطارات ونفضت تنّورتها من الخلف بيدَيها. وقد تغضّنت تنّورتها بغضونٍ كبيرةٍ قطعت تضاعيف الثوب، وانتفخت جيوب سترتها بما بدا أنّه مناديل ورقيّة.

«سَعَادَتِين». ظننت أنّها تنهّدت، لكن تبسّمها لم يتبدّد وهي تنظر إلى قدميها. وكنت أسأل نفسي سعادة ماذا؟ أردت سؤالها عمّا قالت، بيد أنّي لم أكن على يقينٍ من توقيت السؤال ولا من كيفيّته، فلم أنتهِ إلى قول شيء.

«هل يمكنني أن أكتب إليك رسالةً أخرى»؟

قلت وقد جَشَّ صوتي وسخن وجهي «أجل».

«وأعطيك إيّاها»؟

أومأت برأسي قائلاً «أجل».

«هل ستكتب إليّ أيضاً»؟

قلت «أجل». هذه المرّة تكلّمت بنبرةٍ مناسبة. يا له من فَرَج!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقفنا هناك إلى حينٍ لا نقول شيئاً. سمعت نعيب غربانٍ آتياً من مكانٍ بعيد.

«إلى لقاء».

ابتسمت كوجيما ونظرت إليّ، ثم لوّحت لي تلويحاً سريعاً، واستدارت نحو الطريق الجانبيّ المفضي إلى طريق الأشجار.

لم تنظر وراءها، ولا حتى مرّةً واحدة. بعينيّ تراءت لي في صورة شخصَين متداخلَين، أخذا يصغران شيئاً فشيئاً. لستُ أعرف مقدار الزمن الذي قد يقضيه المرء وهو ينظر إلى أحدٍ يمضي بعيداً، لكنّني أطلت النظر إليها حتى اختفت عن نظري. ولبثتُ أنظر إلى ذيل تنّورتها المربّع وهو يترجّح كشيءٍ ثقيلٍ يضرب ربلتَيها. وحتى بعد اختفائها بقيت حركة تنّورتها الثقيلة عالقةً في خاطري.

«ليس سريعاً أيُّها الأحول».

انتهى الدرس، لكن لم يسعني إلاّ أن أرتدّ وأتراجع، مهما كان شعوري بالمهانة. صديقٌ لنينوميا أمسك بعنقي وسحبني عائداً بي إلى الصفّ. طالما حدث هذا. جلس نينوميا إلى طاولةٍ في منتصف الغرفة. ذلك كان مذهبه. ولمّا رآني ضحك، ثم قال «أهلاً يا رفيق». أمرني بأن أضع أصبع طباشير في أنفي وأرسم به رسماً مضحكاً على السبّورة، رسماً يُضحكهم حتى يتغوّطون في سراويلهم. قهقه رفاقه. سحبني أحدهم إلى السبّورة وأحاط بي الباقون متفرّجين .

عرفت نينوميا منذ المدرسة الابتدائيّة.

حتى في ذلك الحين، كان محطّ الأنظار. في صفّنا كان أفضل رياضيّ، وأحرز أعلى العلامات، وقد حظي بوجهٍ وسيمٍ كأنّه منحوت، وجده كلّ من رآه في غاية الحسن. ولمّا فُرِض علينا جميعاً ارتداء سُتَرٍ غامقة الزرقة، ارتدى هو ما حلا له من ألوان، وأطلق شعره ليصل إلى كتفَيه. حتى أخوه الأكبر منه سنًّا، الذي يكبرنا بثلاثة أعوام، كان أشهر منه. كان الاثنان من المشاهير في المدرسة. أحاطت بنينوميا هالةٌ فريدة. وكثيراً ما ودّت طائفةٌ من الأطفال مصاحبته. عندما درسنا في المدرسة الإعداديّة اعتاد ربط شعره إلى الوراء وإضحاك الفتيات بنِكاته، ولم يقتصر ذلك عليهنّ، فكلّما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مزح نينوميا ضحك كلٌ من سمعه. نال دائماً المرتبة الأولى في الصفّ، وحظي بدروسٍ متقدّمةٍ بعد المدرسة، في حين جاهدنا نحن الباقين في إتمام واجباتنا الدراسيّة. لم يستطع أحدٌ منّا مجاراته. حتى المعلّمون لم يتمكّنوا من ذلك.

«أسرع».

وقفت مشلول الحركة صامتاً.

«أنت لا تتعلّم أبداً، أليس كذلك؟ كم سنةً ونحن نفعل هذا»؟

رفع نينوميا يدَيه باشمئزاز. استغرق رفاقه في الضحك، ولم يكتفوا قطّ. عندئذٍ رأيت موموز، الذي وقف عاقداً ذراعَيه، خلف الحاجز الذي شكّله الصبية بأجسادهم.

ظهر موموز في المدرسة الإعداديّة. ومثل نينوميا، أحرز علاماتٍ جيّدة، وقد علمت أنّهما حضرا الدروس المتقدّمة نفسها بعد المدرسة. لم أبادل موموز الكلام قطّ. كان يرافق نينوميا دائماً، ولا يُكثر الحديث، ولم أره مرّةً غاضباً مثل الفتية الباقين. ولأسبابٍ لم أفهمها، كان يتفرّج على حصص الرياضة من المدرّجات. لم يسع أيّ أحدٍ إلاّ أن يصفه بالوسيم، وإن لم يُضاهِ نينوميا في الوسامة، وكلاهما كان أطول منّي بقدر أربع بوصاتٍ في الأقلّ. لم يكن يبدو في مُحَيّا موموز ما يفصح عمّا يجول في فكره. وما كان تنمُّره عليّ يظهر صراحةً. كان يقف جانباً فحسب، عاقداً ذراعَيه ومحدّقاً.

قال نينوميا «عندنا أشغالٌ نقضيها، سيكون علينا الاحتفاظ بتحفتك الفنّيّة ليومٍ آخر. استعمل أصابع الطباشير الثلاثة كلّها إلى نهايتها ثم تستطيع الانصراف».

أمر نينوميا الآخرين بوضع أصبعَي طباشير في أنفي. لوّح بالأصبع الثالثة أمامي مثل سمكة سردين، وقال «هيّا أيّها الأحول، أين كلمات الرجاء والشُّكر»؟ وركل ركبتِي بمُشط قدمه.

لقد حرص نينوميا ورفاقه على عدم ترك أثرٍ عليّ إذا ركلوني أو لكموني أو دفعوني. وكلّما عدت إلى البيت ولم أر كدوماً على جسدي، عجبت من أفانين الحيل هذه وأين تعلّموها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانوا إذا ركلوا ركبتيّ وفخذيّ، لا يعاودون ركل الموضع نفسه. رفس أحدهم صدري كأنّه يختبر مرونته. دفعوني، ورطموني بالحائط. ترنّحت واصطدمت بطاولة. قلت لنفسي إنّ ذلك يحدث على الدوام. إنّ هذا ليس بذي أهمّيّة. إنّه يحدث. انتظرت حتى قُضِي الأمر.

جذبوا شعري ووضعوا إصبع الطباشير في أنفي وأرغموني على أكل الإصبع الأخرى. عضضتها بأسناني الأماميّة.

تفرّج نينوميا ورفاقه مستغرقين في الضحك.

إلى الآن، أُجبِرتُ على ابتلاع ماء بركةٍ ومرحاض، وازدراد سمكةٍ ذهبيّة، وبقايا خضرواتٍ من قفص الأرانب، لكن هذه كانت أوّل مرّةٍ آكل طباشير. لم يكن لها طعمٌ ولا رائحة. صاحوا بي لأسرع في المضغ. أغمضت عينيّ وكسرت إصبع الطباشير داخل فمي قاصراً فكري على المضغ، لا على ما أمضغ. سمعته يتهشّم. خدشت القطعُ المتكسّرة باطنَ وجنتيّ. كان عملي هو الاستمرار في تحريك فكّي والابتلاع، فابتلعت. كَسَت الطباشيرُ باطنَ فمي.

ابتلعتُ الأصابع الثلاثة كلّها. صاح أحدهم «ليموناده! ليموناده»! وجلب لي كوب بلاستيكٍ ملطّخاً بطلاءٍ ومليئاً بسائلٍ حليبيّ اللون قذر. مسحوق طباشيرٍ مذاب في ماء دفعوني إلى الحائط وضغطوا الكوب على وجهي، فتجرّعتُ كلّ ما فيه. وبينما كان السائل ينزلق شاقًّا طريقه في حلقي شعرت برغبةٍ في القيء، وسرعان ما قِئتُ كلّ شيء. دمعت عيناي وسال المخاط من منخريّ، وجعلتُ أتهوّع متّكئاً بيدي على الأرض. سألني صبيٌّ عمّا أفعل وارتدّ على عقبيه، ثم أخذ يصفّق ويَصخب. مرّغوا وجهي في القيء، وقالوا «نظّفه». ابتسم الجميع وضحكوا.

كان ذلك أوّل يومٍ أكاتب فيه كوجيما.

ما كاتبتُ أحداً من قبل، وقد جهلت ما أقول وكيف أقوله، إلاّ أنّني سعيتُ إلى كتابة ما خطر ببالي بقلمي الرصاص الذي بريته حديثاً، ثم عدت فمحوتُ معظمه، حتى كان لي في آخر الأمر ما استطعت إبقاءه. مهما سعيت، فلم أستطع كتابة أكثر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من صفحة. كتبنا أموراً غير مهمّة، وبمرور الوقت فهم أحدنا الآخر. ولكي لا يراني أحدٌ أتيت إلى المدرسة قبل الجميع وألصقت ورقتي داخل طاولة كوجيما. وفي صباح اليوم التالي، أخذتُ ورقتها وقرأتُها في الحمّام. لم نتبادل كلمةً عن المدرسة ولا عمّا نلقاه من تنمُّر، وما جعلنا ذلك قاعدةً بيننا.

كلّما فرغت من كتابة رسالةٍ خلعت نظّارتي وأدنيت الورقة من عيني اليسرى لأقرأ ما كتبت. وقد أكثرت من قراءتها حتى اعتراني صداعٌ في ناحيةٍ واحدةٍ من رأسي.

كانت إحدى عينيّ حولاء.

كلّ الذي جاهدت عيني اليمنى لرؤيته لم يكن إلاّ جزءاً يسيراً ممّا رأته عيني اليسرى. وكان كلّ ما تراه يبدو مشوّشاً متضاعفاً، لا قرار له. وقد جهدت في لمس الأشياء وإن كانت أمام ناظري، إذ ما ألبث حتى أضيّع موقعها. وسيّانِ إن لمستها بأطراف أصابعي أو بيدِي كلّها. ما أيقنت قطّ أنّ ما ألمس هو الشيء الصحيح ولا إن كنت ألمسه على الوجه الصحيح.

أهلاً كوجيما. اليوم قرأت رسائلك مرّاتٍ كثيرة. أصحيحٌ أنّك تستعملين قلم رصاصٍ كبّاساً؟ أمّا أنا فأستعمل قلماً عاديًا.

ردًّا على سؤالك الأخير، أحسب أنّ هوايتي هي القراءة لكنّني لا أعلم إنْ كنت أؤثر كتاباً أو صنفاً من الكتب.

نتحدّث قريباً.

أهلاً أهلاً. شكراً على رسالتك. اليوم أمطرت بغزارة. كان صوت وقع المطر صاخباً على مظلّتي حتى ظننت أنّها ستتمزّق. في طريق عودتي إلى البيت، وبمحاذاة بناية يوكوياما، عبرت شاحنةٌ ضخمةٌ فوق بركةٍ فرشّني الماء. كأنّ شيئاً خرج من رسومٍ هزليّةٍ يابانيّة. لو كان الأمر كذلك، فما الذي تظنّ أن تقول فقاعة الكلام؟ لعلّني أكتب الرسائل برداءةٍ لكنّي أهواها. إنّني توّاقةٌ إلى قراءة رسالتك القادمة.

مرحباً. إنّه منتصف الليل والريح تعصف عصفاً. أعتقد أنّ الكتابة شاقّة. لعلّها أشقّ من الكلام. قد أتحسّن إذا تمرّنت. إنّني أسعى جاهداً. جلست إلى طاولتي أكثر من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ساعةٍ وهذا هو كلّ ما كتبت. نتحدّث قريباً.

أهلاً مرّةً أخرى. شكراً على رسالتك. عادت امتحانات منتصف الفصل وأنا في حالٍ مُزرية. نجحت بشقّ الأنفس! لن أسألك عن علاماتك، لكنّني على يقينٍ من أنّك أبليت بلاءً أحسن منّي. أوه بلى، فكرة فقاعة الكلام مُسَلّيةٌ جدًا. إذا أقبلت شاحنةٌ أخرى مسرعةً ورشّتني بالماء مرّةً أخرى فذلك ما سأقول!

إنّها تجربتي الثانية لكتابة هذه الرسالة اليوم. لم تنجح المرّة الأولى فتركت الكتابة وبدأت في الحياكة. ليست بالشيء المتقن، إنّما خياطةٌ يسيرةٌ فحسب. أردت حياكة غطاء وسادة، ولم تكن عندي وسادة، فاستعملت ما تيسّر لي لتطريز أشكال زهورٍ صغيرة. وإنّني لأهوى خياطة أشياءٍ كهذه. وعندي الآن هوايتان؛ الكتابة والحياكة. كم أتوق إلى قراءة رسالتك التالية!

أهلاً. كيف حالكِ؟ قلتُ في رسالتي السابقة إنّه يشقّ عليّ التعبير عن رأيي كتابةً. أحسب أنّي أعرف السبب. إنّه قلمي الرصاص.

أحبّ أقلام الرصاص بدرجة 6 ب لأنّها لا تنكسر. وبينما كنت أكتب أدركت شيئاً. لغتك تذكّرني بقلم رصاص 6 ب. لست أدري إنْ كان لذلك معنًى، لكنّ كلماتك ناعمةٌ وخشنةٌ في الوقت نفسه. لا تكاد تنكسر. معذرةً إن كان قولي هذا لا يعني شيئاً. لقد فكّرت في أنّني سأجرّب ليس إلاّ.

الساعة 8:30 ليلاً. عليّ أن أنجز واجب الجغرافيا. إلى لقاء.

أهلاً أهلاً، مساء الخير. حسناً، أحسب أن يكون الصباح قد انبلج وأنتَ تقرأ هذه الرسالة.

ما حال الطقس عندكم؟ إنّها تُمطر هنا. في العادة لا تُمطر في أيّار بهذا القدر. أجل، إنّها تمطر.

لكنّ الأهمّ هو سؤالي لك أكثر من مرّةٍ عن الكتب التي تحبّها. أهو سرٌّ كبير؟ لم أقرأ كتاباً كاملاً للتسلية، وما سألتك إلاّ لفضول عندي. لقد قرأتُ . . . لنرى. مهلاً، أعتقد أنّني في المدرسة الابتدائيّة قرأت كتاباً في تاريخ الصين كان على رفّ كتب الإعارة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا أصدّق أنّني تذكّرت ذلك تواً. لو لم أكتب إليك هذه الرسالة، لما تذكّرت ذلك البتّة.

وعلى ذكر الكتب، أريد أن أسألك: ما الموضوعات التي تحبّ قراءتها؟ نسيت أن أسألك من قبل. أتحسب أنّ القراءة مسلّية؟ كفاني قراءةً في حصّة اللغة، لكن خبّرني إذا وجدت شيئاً جديراً بالاهتمام. بيتنا يُشبه تماماً ما قلتُه عن بيتكم. مضجرٌ جدًّا. إنّه لأمرٌ غريب، لكنّني عندما لا أفعل شيئاً يعتريني شعورٌ بمصارعة شيءٍ ما. إنّني عالقةٌ في. . . صراع. شعورٌ لا يفارقني أبداً، حتى وأنا في الفراش، أو أتمشّى في الأنحاء. بقيت سنةٌ ونصف سنةٍ على انقضاء الدراسة الإعداديّة، وإذا سار كلّ شيءٍ بسلاسةٍ فسندرس ثلاث سنواتٍ أخرى في المدرسة الثانويّة. وسنظلّ نفعل الشيء نفسه سنوات. ألا تعتقد أنّ ذلك غريب؟ إنّي أعتقده كذلك.

كيف سيبدو المستقبل في اعتقادك؟ كثيراً ما أفكّر في هذا الأمر. ماذا لو انتهى العالم في العام 1999 مثلما يردّد الجميع؟ وإذا لم ينته فلن يتغيّر شيء، صحيح؟

مهلاً، عندي رأي. لكَ أن تُخبرني إن لم يَرُقْك. لا أودّ البوح به لكنّني سأقوله. ما رأيك أن نلتقي مرّةً أخرى في يوم الأربعاء الثاني من الشهر القادم؟ لقد كان يوم أربعاء عندما التقينا ذلك اليوم في متنزه الحوت. لعلّنا نحسبه يوماً لنا. إذا لم يرقك الرأي فاكتمه في نفسك. أمزح فقط. يمكنك إخباري. راسلني.

مرحباً. اليوم كأنّه صيف. لا أصدّق أنّ أيّار قد انقضى.

شكراً على رزمة الأوراق. إنّها رائعة. سأستعملها بعد نفاد الأوراق التي أستعملها الآن.

شكراً لموافقتكِ على اللقاء عند دَرَج النجاة من الحريق. إنّني عاجزٌ عن التعبير، غير أنّني أحسب أنّنا سنرتاح أكثر هناك في الأعلى. هدوءٌ ونسيمٌ عليل. لن يُزعجنا أحد. ما عليكِ إلاّ أن تركبي المصعد فيحملك إلى الأعلى. افتحي الباب الذي إلى يمينك وسترين السلالم. ستفهمين ما أقصد. سأكون بانتظارك هناك يوم الأربعاء، بعد أسبوعين من الآن. إنّني أتطلّع إلى ذلك. أراكِ قريباً.

فكّرت في كوجيما تفكيراً مختلفاً تماماً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يكن ذلك لأنّه أمرٌ جديدٌ عليّ، بل لأنّه شقّت عليّ كثيراً رؤية الفتيات في صفّنا وسماعهنّ وهنّ يتنمّرن عليها، وذلك كضيقي بمعرفة أنّ كوجيما كانت تراني عندما يتنمّر الفتية عليّ. ما وددت سماعهنّ، لكنّنا كنّا جميعاً في الغرفة نفسها، وما قدرت على صمّ أذنيّ عن سماعهنّ. وما وددت رؤيتهنّ، لكنّني لم أستطع إغماض عينيّ.

لم أكن في رأيهم إلاّ «الأحول». لطالما نادوني وأمروني بقضاء حاجاتٍ عرضيّةٍ لهم، أو طرحوني أرضاً، أو أكرهوني على العدو في المضمار في أثناء الفسحة وبقوا هم بالداخل يتفرّجون عليّ. وكعادة نينوميا ورفاقه، فقد سخروا منّي وهم يرقبونني من النوافذ. أطلقوا على كوجيما لقب «النفَاية»، وقالوا إنّ رائحتها كرائحة السمك بل أسوأ. سمعتهم يأمرونها بالذهاب إلى المخزن. رأيتهم يركلونها مثلما ركلوني. ذات مرّةٍ رأيتهم يصيحون بها «حان وقت الاستحمام»! ثم غمسوا وجهها في حوض الأسماك.

في مكاتيبها بدت كوجيما مفعمةً بالنشاط والحيويّة، فتاةً مختلفةً كلّ الاختلاف عن الفتاة التي أراها في الصفّ. كلّما شهدتُ ما يحدث لها اعتراني ألمٌ حادٌّ في صدري، ولكن مهما اشتدّ الألم لم أستطع فعل شيء. وقد شئتُ ألاّ تعرف هي برؤيتي ما يحدث لها. كان عليّ أن أشيح بوجهي متظاهراً بعدم رؤية شيء.

في ذلك العام، كالعام الذي سبقه، حضّر صفّنا لمسابقة الإنشاد والاجتماع الذي تلاها.

أُلغِي عددٌ من الحصص استعداداً لليلة الموعودة، فسنحت فرصةٌ لنينوميا ورفاقه لتشديد تنمّرهم عليّ. بعد المدرسة وفي القاعات وفي فناء المدرسة، امتلأت الأجواء بالإثارة، في حين بقيت على حالي، أئتمر لنينوميا ويركل رفاقه صدري. وفي الغداء، كانوا يأمرونني بابتياع طعامٍ لهم. اعتدت دائماً تناول غدائي وحيداً، وكذلك كوجيما.

«يا رفيق، عينك بحاجةٍ إلى عناية». كان يوم سبت، بعد انتهاء الدرس. عدنا إلى الصفّ، وبدأ نينوميا ينقر رأسي بمسطرة. «لا تقلق، سأصلحها لك».

في أيّ يوم سبتٍ معتاد، إن لم يكن التلاميذ في الأندية فإنّهم يذهبون إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيوتهم، لكن في ذلك اليوم، سُمِح لنا بالبقاء في المدرسة والتمرُّن على المسابقة أو إعداد زيٍّ لها. أمرني نينوميا بدخول الخزانة التي احتفظنا فيها بعُدَّة التنظيف.

«وجودك يُغثِي النفس».

جلس إلى طاولة، وضع رباطاً مطّاطيًا أسود بين شفتيه، ورفع شعره في هيئة ذيل حصان.

«ألا تغثى نفوسكنَّ من وجوده»؟

لشدَّة الحرج تضرَّجت وجوه الفتيات غير المشهورات اللاتي خاطبهنَّ، فتبسَّمن وأومأن برؤوسهنَّ.

«أفهمت القصد يا أحول؟ لا أحد يريدك حواليه».

ربطوا يديَّ بحبلٍ من حبال القفز، وحشوا فمي بخرقة، ودفعوا بي داخل الخزانة.

قال نينوميا «إيَّاك أن تهرب، وإلاَّ بقيت هناك طوال الأسبوع».

دفعني أحدهم لأستقرَّ داخل الخزانة ثم صُفِق الباب صفقاً.

لم تكن تلك أوَّل مرَّةٍ لي داخل خزانة، وما استغربت الهواء المغبرّ الخانق ولا الظلام الدامس. كلَّما وقع شيءٌ من هذا طفق عقلي يعدُّ ويحصي فلا يشغله شيءٌ آخر. وكلَّما بلغت المئة عدت إلى الواحد لأبدأ من جديد. ما سألت نفسي قطُّ عن المئات التي أحصيتها ولا عمَّا مضى من الوقت. جهدت من أجل صرف فكري وشعوري عن كلِّ شيءٍ وما تركت عقلي يهيم، فشغلته بالأعداد وبترديدها. بيد أنَّني، طوال الوقت، كنت أسمع أصوات زملائي، وهم يتحدَّثون ويتدَّربون على الأغاني فاختلطت أصواتهم بالصوت الذي في رأسي وهو يعدُّ عدداً تلو عدد.

لم أعرف كم من الوقت بقيت هناك، لكنَّني بعد حينٍ فطنت إلى الصمت المخيِّم على الغرفة. ألحَّت بي حاجةٌ إلى الحمَّام، واقشعرَّ جسدي لحبسها. كظمت نَفَسي وأصخت السمع. لا شيء. كأنَّ ساعةً مرَّت منذ حبسي في الخزانة، أو ربَّما ساعتان أو أكثر. ما عرفت الوقت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

احتجت إلى التبوّل إلى حدّ مؤلم. فكّرت فيما قد يقع من أحداثٍ شنيعةٍ إذا رآني نينوميا خارجاً وكدت أتبوّل من فوري، لكنّني يجب أن أخرج. نقرت باب الخزانة بطرف قدمي. ثم ركلته بقوّةٍ فانفتح وصرّ صريراً. ضيّقت عينيّ لمرأى الضوء. كان الصفّ مهجوراً. مشيت على أطراف أصابعي في الرواق ونظرت من النوافذ إلى الساحة. بعض الصبية الذين عبثوا في الصفّ خرجوا إلى الساحة وجعلوا يتقاذفون كرةً ويتصايحون. أردت أن أعرف إذا كان نينوميا بينهم، لكنّني لم أستطع.

طرحت عن معصميّ حبل القفز ومشيت في الرواق الخالي إلى الحمّام. جلست داخل حجَيرةٍ من حجيرات الحمّام وزفرت محاولاً فكّ عقدة بطني. ما الذي سيحلّ إذا عرفوا بخروجي؟ ما الذي سيفعلونه بي؟ ألحّ عليّ التفكير في الأمر. ونفد صبري. شعرت كأنّ قلبي سيخرج من صدري. ما اعتدت وطأة هذه الأسئلة قطّ. عساهم يرأفون لحالي إن قلت لهم إنّ حاجةً ألحّت بي لأقصد الحمّام. لعلّ نينوميا قد نسي أمري وذهب إلى البيت. ذلك هو كلّ ما استطعت التفكير فيه.

صرفت فكري إلى شيءٍ آخر، وأخذت أتخيّل ما سيحدث في المرّة القادمة عندما ألاقي كوجيما. أمِلتُ آمالاً عظاماً. ما بقي إلاّ عشرة أيّامٍ على يوم اللقاء. أخرجتُ مكتوبها وقرأته مرّةً أخرى. لم أقرأه كلّه، فذاك محال، بل اكتفيت بسطورٍ راقتني أكثر من غيرها. حملتها معي أينما ذهبت، مثلما فعلت منذ البداية، وقد دسستها في مفكّرتي. وتركت بقيّتها على رفّ كتبي في غرفتي، داخل حافظة القاموس. داومت على قراءتها كلّما خلوت إلى نفسي في غرفتي .

لم أكن قد رأيت كوجيما في الصفّ لمّا أدخلوني إلى الخزانة. تمنّيت أن تكون قد وصلت إلى البيت بخير. تبدّى لناظريّ شعرها الخشن فوجدتُني أتذكّر ما قالته لها الفتيات في أثناء التمرين على الإنشاد إنّ رائحة أنفاسها كريهةٌ وأغلقن فمها بشريطٍ لاصق. شعرت بوطأةٍ أثقلت صدري. تذكّرت كم استغرقت فتاةٌ طويلة القامة في الضحك لمّا نزعن الشريط اللاصق. بل إنّني تذكّرت أيضاً قول الفتاة «في الأقلّ أصبحت شفتاك نظيفتين الآن». تنهّدت ووضعت المكاتيب جانباً. سألت نفسي عمّا إذا شعرت كوجيما بهذا الشعور نفسه وهي تراهم يتنمّرون عليّ. وقد شقّ عليّ السؤال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصعُب.

سمعت أصواتاً تقترب. مَن جاءوا دخلوا الحمّام. كظمت أنفاسي وسكنت مكاني. استبدَّ بي الذعر، لكنّني بهدوءٍ فتحت قفل الحجيرة حتى لا يلاحظوا أنّه مقفول، ثم ضغطت الباب بيدي كي لا ينفتح.

كانا صبيَّين.

في البداية لم أعرفهما، ثم ما لبثت أن ميّزتُ أحدهما من مذهبه في الكلام وكان نينوميا. خفق قلبي خفقاناً شديداً حتى ظننت أنّ نينوميا قد سمعه. وسعيت إلى تهدئته واصطكّت أسناني. دارت أشياءُ كثيرةٌ في رأسي. لم أستطع التنفُّس بهدوء.

في الجانب الآخر من الباب كان نينوميا برفقة شخصٍ آخر .

تكلّم الآخر بصوتٍ ضعيفٍ جدًّا لم يكد يُسمَع. عرفت أنّه تلميذٌ آخر، لكنّني لم أتبيَّن من كان.

ضحك نينوميا، وقال «أجِدُّ ما تقول؟ يا لك من خائب! افعل شيئاً مثيراً في حياتك».

بدا أنّهما أتيا إلى هنا للحديث، ولم يستعمل أيٌّ منهما الحمّام. سمعت نينوميا يقول «كأنّك ستهتمّ». لمست غرابةً في قوله لم أُدرك كنهها. لم أدرك إنْ كان يتصرّف بلطفٍ أم بلؤم.

أجابه الولد الآخر، لكنّني لم أستبن الكلمات ولم أستبطن ما كانوا يناقشون. صرَّ الصنبور. أحدهما غسل يديه. ضحك نينوميا مرّةً أخرى.

ثم لا شيء. صمت.

أصخت السمع محاولاً معرفة ما يحدث.

قهقه نينوميا. داخل الحجيرة، انقطعت صلتي بالواقع. أغمضت عينيّ وقلت لنفسي إنّ هذا لا يحدث، إنّني لست هنا، لا أحد هنا. وبعد حين، تلاشى صوتاهما فأدركت أنّهما قد خرجا. دقيقةً بقيتُ هناك. ولمّا أيقنت أنّهما لن يعودا عدوت إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصفّ، ولمّا لم أر نينوميا هناك حملت حقيبتي وولّيت هارباً.

أقبل الأسبوع الأوّل من حزيران وأدبر، وما لبث أن هلّ الأربعاء الثاني من الشهر. قابلت كوجيما، مثلما وعدتها، في الطابق العلويّ لسلالم النجاة من الحريق. لمّا رأتني حيّتني ملوّحة، فرددت التحيّة بمثلها .

أقلقني ما قد يعتريني من توتّر، غير أنّني لسببٍ ما لم أتوتّر. شعرت بأنّنا عدنا إلى المكان الذي إليه ننتمي، مثلما التقينا في المرّة الفائتة. ما عرفت إن كان ذلك بسبب الرسائل، وإذا كان كذلك فالرسائل كانت أقوى أثراً ممّا تخيّلت.

سألتني «هل تأتي إلى هنا كثيراً»؟

«أجل، ليس كثيراً جدًّا».

أشعرنا النسيم بالخفّة. تبسّمت كوجيما. بدت على وجنتَيها مسحةٌ من ترابٍ خفيف، وتغضّن زيُّها المدرسيّ بغضونٍ كثيرة. في الظاهر بدا أنّها هي كوجيما التي أراها في الصفّ. بدا شعرها الخشن كحيوانٍ فوق رأسها. وقد انخفض حاجباها وتحتهما عينان صافيتان ترنوان إليّ. ابتسمت. أرحنا رأسينا على الدرابزين وأخذنا نطالع المدينة. هبّ نسيمٌ قويٌّ فضحكت كوجيما أكثر. دندن صوتُ الريح وضَحِكُ كوجيما في أذنيّ.

جلسنا على درجاتٍ مختلفةٍ في السُّلّم الخرسانيّ وتجاذبنا أطراف الحديث. كان شعوراً طبيعيًّا جدًّا. كأنّنا نستطيع التحدُّث ساعات. رحنا وجئنا في سرد قصصٍ صغيرةٍ وافق بعضها بعضاً. انفرجت أساريري. وبدت كوجيما مرتاحةً جدًّا هي أيضاً.

جلبت في حقيبتي مفكّرتي الخاصّة بدرس اللغة نزولاً عند رغبة كوجيما.

«لا شيء متفرّدٌ بها».

مدّت يدها، وقالت «هيّا، أرني».

قلت «لا شيء يستحقّ الرؤية. أعني أنّك رأيت في رسائلي أسلوبي في الكتابة». بيد أنّ كوجيما أرادت أن ترى أسلوب كتابتي للدروس .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولمّا أخرجتْ المفكّرة انتزعتها كوجيما منّي. وبيدها الأخرى، أخرجت مفكّرتها من حقيبتها وألقتها في حجري.

«فلنتبادل».

خطّ يد كوجيما مثل خطّها في رسائلها، حروفٌ دقيقةٌ بقلم رصاصٍ كبّاس. وقد أكثرت الكتابة في أمورٍ شتّى. أمسكت بمفكّرتي بكلتا يديها وفتحتها كصحيفةٍ أمامها، وأدنت وجهها لترى أفضل. تشاغلت بالمفكّرة حيناً كأنّها تقرأ حقًّا، وبعدئذٍ شخصت ببصرها رافعةً حاجبَيها بهزْل، وقالت «آه، نعم . أحسب أنّني فهمت الآن». أومأت برأسها بضع مرّاتٍ وشرعت في الضحك. ولمّا سألتها عمّا فهمت، قالت إنّه سِرّ، ثم وقفت وتثاءبت فاتحةً فمها. كدتُ أرى باطن فمها كلّه. رأيت حمرته القانية فأشحت بوجهي.

بعيداً في السماء، دوّى صوت الرعد فطال صمتنا. صاعقة، قالت كوجيما مُردّدةً المقاطع الثلاثة بوضوح. أراحت ذقنها على الدرابزين ثم أدارت عنقها ببطءٍ شديدٍ لتواجهني. صاعقةٌ مجنونة، قلتُ.

قالت «مهلاً، أتذكر ما حصل منذ مدّةٍ للستائر وكتب المكتبة . . وخيط ممحاة السبُّورة؟ كيف قُصّت كلُّها»؟

أجبت عفواً «أجل، أذكر».

في نهاية نيسان، عثر التلاميذ على آثار قصّ وقطعٍ في لوازم الصفّ وفي ما وضعوه من أشياء على طاولاتهم. وغدا ذلك موضوعاً مثيراً حتى حين. كأنّه حدث منذ زمنٍ طويل، لكنّه لم يكد يمضي عليه شهران. في أوّل الأمر، وجدوا الستائر مقصوصة الأطراف، ثم رأى أحدهم ثقوباً في طرف سلّة الثياب التي وضعت فيها الفتيات ثيابهنّ الرياضيّة، وبعد ذلك، رأوا القصّ في أغلفة الكتب، وممحاة السبُّورة قد نُزِع منها خيطها، وقُصّ نحو بوصةٍ واحدةٍ من شعيرات المكنسة.

كلّما وجد أحدهم دليلاً جُنّ جنون التلاميذ. لم يُقَصّ أيٌّ من هذه الأشياء قصًّا كاملاً، بل كان القصّ متعجّلاً بطرف المقصّ، لم يزد على بوصةٍ واحدة. وقد تشابه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القصّ فيها. ولمّا استمرّ الوضع على هذه الحال، استمات التلاميذ في العثور على الجاني، فما وجدوا برهاناً وما عرفوا من فعل تلك الفعلة. لم يكد يمرُّ وقتٌ طويلٌ حتى انصرف الجميع عن الأمر، وفي أسابيع قليلةٍ نسوه تماماً. أتذكر كم تملّكني الذعر من أن يكذب أحدهم ويلقي اللوم عليّ. إلاّ أنّه بقدر ما لازمني الأمر حينذاك، لم يخطر ببالي قطُّ حتى ذكرته كوجيما.

«كان أنا من فعل ذلك».

لم أصدّق، وقلت «أجِدٌّ ما تقولين؟ ما ارتاب أحدٌ في أمرك».

«أعرف». هزّت كوجيما رأسها. حدّقت إلى طرف حذائها. «ألن تسألني عن سبب إقدامي على فعل ذلك»؟

«لِمَ فعلتِ ذلك»؟

قالت ساخرة «لا أحد يجبرك على السؤال. لا جوابَ شافٍ عندي على كلّ حال. لا أعلم، غير أنّي في بعض الأحيان فقط أقصُّ الأشياء. ليس أيّ شيءٍ فحسب. أشياء بعينها. عندما أقصُّها أشعر بأنّها أخيراً عادت طبيعيّة»

«طبيعيّة»؟

«أجَل»؟

«أتريدين بذلك أنّها تهدّئ من روعك»؟

«بل بالعكس».

«بالعكس؟ أتعنين أنّها تقلقكِ؟ وذلك طبيعيّ»؟

«كلاّ، ليس الأمر كذلك».

ركلت كوجيما الدرج بعقب حذائها.

«في الحقيقة لا أعلم كيف أقول ذلك، فالأمر أشبه بوجود خطأٍ ما طوال الوقت، ولا يمكنني فعل شيءٍ لإيقافه. إنّه هناك دائماً. وسيّانٍ كنت في البيت أو في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المدرسة. وقد يصلح الحال ويستقيم في بعض الأحيان. يستقيم تماماً. كحالي لمّا أتحدّث إليك أو أكتب الرسائل. هذه أمورٌ حسنةٌ لي، فأشعر بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام. وذلك يُسعدني. أتعرف ذلك الشعور عندما ترى كلّ شيءٍ خاطئاً وكلّ شيءٍ صائباً؟ أحسب أنّ جانباً منّي يريد تصديق أنّ كليهما ليس طبيعيًا . . ويودّ الشعور بأنّ كلَيهما استثناءٌ للقاعدة. أقصد أنّني لا أكاد أشعر بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام، ولأنّ جُلّ حياتي ينحو منحًى خاطئاً لا يعني أنّني أريدها هكذا. ثمّة جانبٌ منّي لا يشعر بأنّ هناك خطأً ما ولا يشعر بأنّ كلّ شيءٍ صائب. طبيعيٌّ فحسب. ذلك الجانب منّي هو ما أحبّ، الجانبيّ الطبيعيّ». وأطبقت شفتيها.

«الطبيعيّ».

«نعم. إنّني كمن يكابد للحفاظ على بقاء الأمور طبيعيّة. أعني أنّ هذا هو الطبيعيّ لي. وإذا لم أتمسّك به فإنّ كلّ شيءٍ سيتداعى، حقًّا».

«وهل قصُّ الأشياء يُشعرك بأنّك طبيعيّة»؟

«نعم، فعندما أقصُّ الأشياء في عقلي لا أنفكّ أقول لنفسي حسناً، هذا طبيعيّ. وفي تلك الأثناء يختفي كلّ صوابٍ وكلّ خطأ. إنّ الأمر كذلك. كأن الطبيعيّ يخرج من المقصّ».

«لكنّك كففتِ عن ذلك». لم تطُل الإثارة التي أحاطت بمن ترك آثار القصّ إلاّ أيّاماً قلائل. ثم توقّف القصّ كأنّه لم يحدث قطُّ .

قالت كوجيما «أجل، لم يكن رأياً سديداً أن أفعل ذلك في المدرسة». ثم تنهّدت، وقالت «الأمر يخصّني، ولا أعرف كيف أفسّره، لكنّ فعله في أملاك الآخرين ليس بالصواب».

أومأت برأسي موافقاً.

«في البيت، عادةً ما أقصُّ الورق ونحو ذلك، ولا أكتفي البتّة. لكنّه فعلٌ آمن. ومع ذلك، قصُّ الورق لا يشفِي غليلي، إذ سرعان ما ألقي بالورق ما إنْ أنتهي من قَصّه. إلاّ أنّ أكثر ما يُريحني في القصّ هو الأشياء المفيدة التي لا يمكن رميها . . يتعلّق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمر بأشياء مجرّدة، أو مهمّة. لستُ أدري».

فكّرت لحظةً في ما قالته.

«ماذا تعنين بمجرّدةٍ ومهمّة»؟

«نعم . . في الحقيقة لست على يقين». فركت كوجيما ما حول حاجبَيها. سمعتُ صوت فرك أصابعها جلدها.

«ماذا عن الأظافر؟ بوسعكِ دوماً قصّ أظافرك».

قالت «الأظافر لا نفع فيها، فهي تُقَصُّ بمقلام أظافر. وأنا أحبّ المقصّ. أعني، رأيتَ ما فعلتُه في المدرسة، أليس كذلك؟ لم أمزّق الأشياء تمزيقاً تامًّا. لم أقصّ إلاّ أطرافها. وكنت حذرة. كلّ الأشياء أقصُّها بالطول نفسه. لن يكون إلاّ هدراً إذا أسرفت في قصّها فيستحيل استعمالها. لا أبتغي التضييع والتخريب».

«ماذا تعنين»؟

«أتذكُر الستائر؟ إنّني إذا قصصتها قصًّا كبيراً فلن تعود ستائر. أمّا الأظافر فمهما قصصتها فإنّ شيئاً لن يتغيّر. ستنمو مرّةً أخرى. وأحسب أنّها تبدو كشيءٍ يفي بالغرض، لكنّها ليست كالأشياء الأخرى. فالأظافر إذا لم تقلّمها بطولٍ كافٍ فإنّ ذلك خطيرٌ جدًّا، وقد تعلق بالأشياء. أطال جدّاي أظافرهما حتى اخشوشنت وتشقّقت. وإن حدث ذلك للأظافر تلوّثت واعترى المرء الكُزاز، ثم انتشرت البكتيريا وبلغت الرأس. مثلما حدث لجدّي. جعلا يزبدان ويدوران حتى سقطا ميّتَين بالسُلْدَاء»[1]

«السُلْدَاء»؟

«ألم تسمع به من قبل؟ ظننتُ أنّ الجميع يعرفه. إنّه مريع. أعتقد أنّه مرضٌ مثل الطاعون وداء الكلب مجتمعَين».

«أهكذا مات جدّاكِ حقًّا»؟

حدجتني بطَرْفها، وقالت «ولِمَ سأخترع ذلك؟ هكذا ماتا. وكما ترى، لن ينفع أمر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأظافر، على أنّه كان رأياً صائباً. أبتغي شيئاً آخر، شيئاً أفضل».

استرسلنا في الحديث في أمورٍ شتّى. مثل البقع على الخنافس. ارتفاع مقاعد الدرّاجات. كرات الثلج الزجاجيّة. لِمَ لا يطبع الناس المال عندما يفلسون؟ حتى عن نهاية العالم تحدّثنا. كأنّنا سنتكلّم إلى الأبد، ولم نزل كذلك حتى حان وقت الذهاب. بصمتٍ أخذنا نرنو إلى السماء، ولونها يمتدّ إلى جهة الغرب واليوم يدنو من نهايته. حلّقت غربانٌ صاخبة، واحدةً تلو الأخرى، كأنّها تتعقّب شيئاً ما. شقّ علينا الوداع. أردت سؤالها عمّا إذا كنّا سنلتقي مرّةً أخرى، ولم أجد الكلمات. قالت كوجيما إلى لقاء، متظاهرةً بالذهاب، لكنّها ظلّت تطلّ برأسها من حينٍ لآخر، وكنتُ أضحك كلّما فعلت ذلك. وفي المرّة الأخيرة، لوّحتْ بيدها واختفت.

أوّل مرّةٍ التقيت ماما الجديدة كانت في الشتاء لمّا بلغتُ السادسة من عمري. قبل ذلك، عشنا مع جدّتي لأبي، وذات يومٍ بعد وفاة جدّتي ظهرت هذه المرأة في البيت. لم يعرّفني أبي بها وبأنّها أمّي الجديدة ولم يقل إنّها ستنتقل للعيش معنا. عدّ وجودها معنا شأناً طبيعيًا. ومنذ ذلك الحين، تولّت شؤون الطهو وكانت تأكل معنا

كان قد مضى على وجودها معنا أكثر من عام لمّا نظرت إليّ، كأنّ خطباً ما وقع، وصاحت قائلة «يمكنك أن تناديني ماما». جلسنا متقابلَين، نأكل صنفاً من الأسماك الحلوة. وعلى التلفاز تقافز سرب كناغر نحو الشمس الجانحة للغروب، وأخذنا نطالعها باهتمام. لم أعرف بم أجيب، فقلت نعم، وأكلت سمكتي بصمت.

منذ ذلك الحين لم تتغيّر ماما قطّ. تسريحة شعرها ظلّت هي نفسها، ولم يزد وزنها ولم ينقص. تشابهت عليّ تنانيرها، وكثيراً ما ثنت جوربَيها في هيئة رباطَين متماثلَين حول كاحلَيها.

قالت «ما الخطب»؟

انحنت أمام المكنسة الكهربائيّة تلفّ سلكها.

«لا شيء». أخبرتها بأنّ الامتحانات النهائيّة ستبدأ جنباً إلى جنب درس السباحة.

لم تبدُ مبالية «وكيف يمضي الأمر»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أيّهما؟ السباحة؟ أم الامتحانات النهائيّة»؟

«فلنبدأ بالامتحانات النهائيّة».

«لا بأس. كالمعتاد».

«أهي صعبة»؟

«بعضها صعب».

قالت «حسناً. إيّاك أن تحصل على عشرين درجة. أحسن لك أن تحرز صفراً!» ضحكت ولم تنظر إليّ.

قلت «يصعب على المرء أن يحرز صفراً، لكنّني أحسب أنّه ممكنٌ إحراز صفرٍ لعدم كتابة الاسم».

«حسناً، لا علم لي، ابذل ما في وسعك فحسب». وقفت واتّكأت على المكنسة الكهربائيّة، وقالت «ما إن تنتهي الامتحانات حتى تبدأ العطلة الصيفيّة».

«أعرف».

نظرت إليّ كأنّها تذكّرت شيئاً.

«أتعلم أنّ ثمّة شريطاً لاصقاً أحمر في طرف سلك المكنسة يشير إلى نهايته؟ لكنّك قبل أن تبلغ الشريط الأحمر هناك شريطٌ أصفر أيضاً، أليس كذلك؟ ماذا يعني ذلك؟ ألا تعتقد أنّ الشريط الأحمر كافٍ»؟

«أعتقد ذلك».

لم تبدُ على يقينٍ ممّا قالت فذهبت إلى المطبخ.

في نهاية حزيران، هطل المطر دُفْقَةً واحدة. وكلّما فتحت النافذة طلباً لهواءٍ نقيّ ملأت الرطوبةُ الحجرة. كلّ مكانٍ بدا خانقاً مثلما كان الحال في المدرسة. في أثناء درس الفنون، قال نينوميا فلنصنع سكّة حديد، وأمر رفاقه بتثبيتي ومنعي من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحركة وبسط أصابعي واختصّ هو بإطلاق دبابيس على كفّي. تركت الدبابيس آثاراً صغيرةً لسعها أشدّ من لسع النحل. تعلّقت سُحُبٌ سوداء في السماء أيّاماً، وعمّت الأرجاء رائحةُ المطر.

ولم أزل وكوجيما نتبادل المكاتيب.

والحقّ أنّه ما كان لي مبعث سرور إلاّ ذاك. ساعاتٍ كتبت ردودي مستعملاً الأوراق التي أعطتنيها.

امتلأت حافظة قاموسي بالورقات. في الليالي التي أضطرب فيها وأعجز عن النوم لسببٍ غير مفهوم، أو ينهكني التفكير في مستقبلي ومدرستي، ألتفت إلى رفّ كتبي، ودون أن أنهض، أحدّق إلى الحافظة التي ضمّت جميع الرسائل. ضمّت الكلمات التي كتبتها كوجيما إليّ. رأت عيناي الأشياء ضِعفَين، فبدت هيئة كعب الحافظة كمستطيلَين صغيرَين يرسلان إليّ ضوءاً دافئاً في الظلمة. كدت أمدُّ يدي إليه وأمسّه. ثم طفقت أفكّر؛ ليت الرسائل التي أكتبها إلى كوجيما تبعث السكينة في نفسها وتخفّف ألمها.

مرحباً، كيف حالك؟ إنّه تموز. كأنّنا من تؤنا أنهينا منتصف الفصل، لكن ها نحن ننجز الامتحانات النهائيّة. لا أكاد أصدّق.

حاولت يوماً عدّ الرسائل التي تبادلناها في الأشهر الماضية. كم عددها في اعتقادك؟ عُدّها واكتشف! سيكون غريباً إذا لم تحصل على العدد نفسه الذي حصلت عليه. على أيّة حال، أحسب أنّك ستُذهَش.

أتعرف ما الطريف في الرسائل؟ إنّك لن تقرأ أبداً مرّةً أخرى الرسائل التي كتبتها إلاّ إذا توسّلت إلى الشخص الذي أرسلتها إليه أن يسمح لك بذلك. أليس ذلك غريباً؟ على كلّ حال، إنّني أولي رسائلك كلّ العناية إن رغبت يوماً أن تعرف كيف كنت في الرابعة عشرة من عمرك. مهلاً، فكّرت تؤا في شيءٍ جميل. في يوم الأربعاء الثاني من تموز 1999، مهما كان ما نفعله وأينما كنّا، فلنلتقِ. يمكننا أن نحضر معنا رسائلنا كلّها. أليس ذلك رأياً جميلاً؟ أين سنلتقي؟ أتطلّع إلى رسالتك التالية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرحباً. ذات يومٍ في المكتبة، نظرت في نبوءات نوسترداموس. كان الأمر مثلما قلتِ تماماً. كانت هنالك صورٌ ظهرت فيها الشمس مربّعة الشكل، وبكت ماري دماً لا دموعاً. لا علم لي بعلاقة ذلك بنهاية العالم، لكنّني أعلم يقيناً أنّه نذير شؤم. إنّي لأعجب ممّا سيحدث. يبدو أنّ الناس يضطربون على هذا النحو في نهاية كلّ قرن. لكن لا تقلقي من ذلك في كلتا الحالتَين. إذا انتهى العالم فلن نتمكّن من اللقاء وإحضار رسائلنا للمّ الشمل، لكنّ الخطأ ليس خطأنا. إلى لقاء.

أهلاً مرّةً أخرى. أعجب وأسأل: أيّ شخصٍ ستكون عندما تبلغ الثانية والعشرين من عمرك؟ في الآونة الأخيرة، فكّرت كثيراً في أمور كهذه. ألن يدهشنا أن نستمرّ في كتابة الرسائل حتى ذلك الحين؟

حسناً، هل لي أن أسألك شيئاً؟ هي دعوةٌ في الحقيقة.

عندما ينتهي الفصل أودّ أن أريك شيئاً، مكاناً. إذا لم نذهب في العطلة فسيفوتنا ذلك.

إنّه «الجنّة»، المكان الذي أودّ أن أريك إيّاه.

فكّر في الأمر. أعتقد أنّك ستحبّه. قُل نعم من فضلك.

أهلاً كوجيما.

حسناً، يبدو أنّك عازمةٌ على كتمان الأمر حتى نذهب. كم أتوق إلى ذلك! أين يقع هذا المكان؟ هل أنتِ مستعدّةٌ للامتحانات النهائيّة؟ لم يكن امتحان الرياضيّات صعباً كما تخيّلت، وهذا أمرٌ حسن، لكنّني أجهل ما سأفعل في امتحان العلوم. إذا لم أجتز الامتحان فسيضعونني في فصول تقوية، لذا. . . الوداع الآن.

صباح الخير. الامتحان النهائيّ الوحيد المتبقّي لي هو اللغة الإنكليزيّة. لكنّني لا أعلم كيف أبليت في الامتحانات الأخرى.

سنذهب إلى «الجنّة» في أوّل يومٍ من أيّام العطلة الصيفيّة. سيكون ذلك أوّل شيءٍ نقوم به في هذا الصيف، الأوّل من نوعه. سأنتظرك عند بوّابة التذاكر في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الساعة 9:00 في أوّل يومٍ في العطلة. أراك حينئذٍ!

ما إن دبّرتُ للقاء كوجيما في الصيف حتى كان من المحال أن يهدأ لي بال.

أردت أن أعرف ما هذه «الجنّة» وإلى أين تنوي كوجيما أن تأخذني، على أنّ أكثر ما أثار حماستي هو لقاؤنا وذهابنا معاً إلى مكانٍ ما. لم أعرف ما كان عليّ أن أجلب معي، ولا ما أرتدي، ولا كم من المال سأحتاج. كان ما أرتديه هو أكثر ما أزعجني. الحقّ أنّني لم أكن أعير الثياب كبير اهتمام، فقد لبست ما ابتاعته لي ماما فحسب دون قلق. وبعد جهدٍ جهيدٍ خلصت إلى أنّني لن ألبس ثياباً عليها رسم. وذلك لم يترك لي خيارات، فقضيت ساعاتٍ متواليةً أعدُّ لملبسي. ثم قرّ قراري على ارتداء قميصٍ قصير الأكمام داكن الزرقة بياقةٍ ضيّقة، وبنطال جينزٍ ارتديته منذ العام الفائت، وحذاءٍ رياضيٍّ من علامة كونفيرس يغطّي الكاحل كنت ألبسه خارج المدرسة. إلاّ أنّ نفسي لم تقنع بأنّ ذلك خيارٌ سليم. وما كان هناك أحدٌ لأسأله. وحتى مع حلّ مسألة اللباس كان هناك موضوع المال. ما بقي لي من مصروف رأس السنة وما ادّخرته من مصروفي الشهريّ بلغ نحو ١٠٠٠٠ ين. منحني إحصاء الأوراق النقديّة ثقةً موقّتة. وضعت المال في محفظتي ووضعت المحفظة في جيبي لأخبُر كيف يكون الشعور بها. شعرت بأنّني أكبر حجماً، وبأنّني أستطيع المشي منتصب القامة. أجل. أيقنت أنّ هذا كافٍ للتصدّي لأيّ شيءٍ يعوق طريقنا. ثم عاودني القلق بشأن الثياب.

في آخر يومٍ في المدرسة قرأت مكتوب كوجيما الأخير في الحمّام ووضعته في مفكّرتي مثلما فعلت بالمكاتيب الأخرى. ولمّا خرجت إلى الرواق حرصت على السير لصق الحائط طوال طريق العودة إلى الصفّ. جلس نينوميا إلى طاولةٍ في منتصف الصفّ محاطاً بالآخرين. استغرقوا في الضحك من شيءٍ ما. سمعت أحدهم يقول شيئاً عن المدرسة الصيفيّة. تجنّبت أنظارهم وضحكهم وعدت إلى مقعدي بهدوءٍ قدر ما أمكنني، ولبثتُ أجذب الهواء إلى صدري وأتنفّس تنفّساً قصيراً، ثم وضعت راحتَيّ في المساحة الباردة داخل طاولتي.

رنّ الجرس. انتهينا من المدرسة، واصطخب الصفّ كأنّ سدًّا قد تحطّم. خرج التلاميذ من الصفّ كدأبهم حينما يتحرّرون ويمكنهم الخروج. رأيت فتاةً تركل ظهر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقعد كوجيما في طريقها إلى الخروج. جفلت كوجيما وقفزت في مقعدها. سكنت في مكانها لحظة، ثم ما لبثت أن استجمعت قواها ما إنْ خرجت الفتيات وحملت حقيبتها وببطءٍ غادرت الغرفة بيدَين ممتلئتَين وكتفَين مثقلتَين .

نظرت إليها وهي تخرج، ثم بدأت أحزم حقيبتي. مرَّ بي رفيق لينوميا وضرب قفاي. غاصت أسناني في لساني. عميقاً. عضَّت نواجذي الجانب السميك آخرَ اللسان عضًّا شديداً بان له صوت. آلمني اللسع في لساني حتى ظننت أنّي سمعته ينبض. شدَّ الألمُ عضلات عنقي. لم أستطع إغلاق فمي، وطعِمتُ الدم في لعابي. استمرَّ إحساسي بالخَدَر. احتشد الألم في جمجمتي. وما استطعت إلاّ ابتلاع كلّ ما ملأ فمي.

جلست بلا حراكٍ في الصفِّ الخالي، وبلغ مسمعي صوت شخصٍ يصفِّر في القاعة متوجِّهاً نحوي. تحفَّزت للاختباء تحت طاولتي لكنَّ الوقت لم يسعفني.

كان ذاك موموز. توتَّرت. لم أستطع النظر، ولمَّا نظرت لم يُبدِ إشارةً إلى أنّه رآني. لكأنّه كان وحده هناك يصفِّر لنفسه. وضع يديه في جيبَيه ومشى نحو طاولته وهو يخطو خطواً رشيقاً يُخسَد عليه.

جلس وأولاني ظهره، وشرع ينقر الأرض بقدميه محافظاً على إيقاع صفيره. ثم مال وأخرج مفكِّرةً من حقيبته وطفق يكتب. لم أستطع رؤية ما يكتب من مكاني. رفع ناظرَيه من حينٍ لآخر وهزَّ رأسه، ثم أومأ برأسه واستأنف الكتابة.

وأنا أنظر إلى حركة ظهره ومرفقَيه ألفيتُني أصغي إلى صفيره. ما لم أعرفه، لم يكن اللحن، بل مذهبه في الصفير. كان صفيراً متقناً، كلّ نغمةٍ خرجت واضحةً وصحيحة. لم يمنعني من النهوض والخروج شيء، إلاّ أنّني لسببٍ ما لم أخرج.

فتاةٌ نادت باسم موموز. وقفت بالباب. لها غُرَّةٌ قُصَّت خُصَلُها في خطٍّ مستقيمٍ فوق حاجبيها، وكانت عيناها السوداوان، عيناها شديدتا السواد على نحوٍ لا يُصدَّق، ترنوان إلى موموز. كانت صغيرة السنّ بوجهٍ صغير. وقد بدت أصغر سنًّا من أن تكون في المدرسة معنا. ارتدت الزِّيَّ المدرسيّ، لكنَّها لم تبدُ قطّ فتاةً في مرحلتنا الدراسيَّة. وقد بلغت من الجمال مبلغاً أعجزني عن الإشاحة بوجهي، ولم تشبه أيّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتاةٍ رأيتها في حياتي كلّها. وقد استغربت أمراً، فوجهها شديد الشبه بوجه مومو. كأنّه فطن لوجودها لكنّه تابع الصفير والكتابة في مفكّرته. وما بدا أنّ الفتاة لاحظت وجودي، لكأنّني لم أكن موجوداً. أقبلت على مومو ووضعت يدها على طاولته. نظرت إلى المفكّرة، أمالت رأسها في وقت وافق صفيره وواصلت النظر إليه وهو يكتب. شعرُها الطويل المسترسل مسّ ذراعه. جثت ونظرت إليه. ولمّا انتهى وقفا دون أن يتفوّها بكلمة. وضعت الفتاة يدها على مرفقه وخرجا من الغرفة. تابع مومو الصفير دون أن يفوّت إيقاعاً.

أسندت ظهري إلى المقعد لم أدرِ فيم أفكّر. وما صدّقت أنّ مومو كان هناك حقًّا، دع عنك تلك الفتاة التي لم أرها من قبل وظهرت من العدم ثم خرجت برفقته. كنت مسلوبَ اللُّبّ فأضعتُ اللحن المتقن الذي صفّره مومو. وكذلك وجه الفتاة هرب منّي.

في آخر الأمر، لمّا هممت بحمل حقيبتي لأخرج دخل نينوميا إلى الصفّ. استويت جالساً، لكنّ نينوميا بدا مشوّشاً، وعندما رأى الغرفة خاليةً خرج. بعد لحظةٍ أو اثنتَين، عاد إلى مدخل الباب وسألني عمّا إذا كنت قد رأيت مومو. هززت رأسي كأنّني لا أعرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

وفي الصباح، خرجتُ من البيت في فسحةٍ من الوقت لأصل قبل الموعد بخمس عشرة دقيقة. أبلغتُ ماما أنّني سأقصد المكتبة الكبيرة الواقعة في بلدةٍ أخرى.

بقلقٍ انتظرتُ قرب آلة حجز التذاكر حتى ظهرت كوجيما في التاسعة صباحاً. في الميعاد. كان شعرها على حاله المعهود، وكذلك حذاؤها الرياضيّ، لكنّها ارتدت قميص هاواي وتنُّورةً حليبيّة اللون انسدلت على ربلتيها .

إضافةً إلى رأسها الأشعر وتنُّورتها المنتفخة، كان قميصها الهاواي فضفاضاً وممتلئاً برسوم ورق أشجارٍ شائكٍ وفواكه حمراء كحبّات مانجو. وقد ربطت كوجيما طرفَي قميصها في عقدةٍ محكمةٍ على سُرّتها. تلك كانت أوّل مرّةٍ أرى فيها شخصاً يرتدي قميص هاواي في الواقع، لكنّني من فوري عرفت ما كان ذلك. عندما رأتني كوجيما هرولت نحوي ملوّحةً بيدها، وبالأخرى حملت حقيبةً ليّنةً رُسِم عليها وجه قطّةٍ كأنّه صورةٌ فوتوغرافيّة.

«مستعدّ»؟ قالت مقبلةً نحوي بتبسّمٍ وخَفَر. وشعرتُ بشعورها ذاك، لكنّني أبديت صرامة، وقلت لها إنّي مستعدّ. وقد دنت منّي حتى رأيت الخرزات الزجاجيّة على المشبك الذي ثبّتت به شعرها إلى الخلف.

قالت وهي تحكُّ حاجبها «استيقظت باكراً جدًّا».

«في أيّ ساعة»؟

«الرابعة».

قلت «أووه! ألست ناعسة»؟

قالت «نعم، مع أنّني اعتدت الاستيقاظ في السابعة. مهلاً، ما بال صوتك»؟ نظرت إليّ بريبة. «يبدو مختلفاً».

«عضضت لساني».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طرفت عينَيها، وقالت «متى»؟

«بالأمس».

«لا بدّ أنّك عضضته بشدّةٍ».

قلت «نعم، قد فعلت ذلك».

«هل آلمك»؟ وطرفت عينَيها أكثر.

أجبتها بأنّه آلمني.

«هل بكيت»؟

قلت «كلاّ».

قالت إنّ الألم إذا كان شديداً فلا بدّ أنّني بكيت. أخبرتها بأنّني أرى الألم والبكاء شيئَين مختلفَين.

«أتظنّ ذلك»؟ قالت وقد أمالت رأسها، ثم تراجعت إلى الوراء كأنّها مدهوشةٌ ونظرت إليّ من رأسي إلى أخمص قدميّ. «لم أرك من قبل ترتدي شيئاً غير ثوبك المدرسيّ. انظر إلى نفسك».

قلت «أنا طبيعيٌ جدًا. لا تنظري إليّ هكذا. أعني، انظري أنتِ إلى نفسك».

أحنت عنقها لتنظر إلى نفسها «هذه؟ إنّها ثيابي الاستوائيّة»؟

«جميل».

«إنّها مثل أفضل بعض أيّامي».

سألتها «أفضل بعض أيّامك؟ وما يعني ذلك»؟

سألتني بدورها «ما قصدك؟ ألا تستعمل هذا التعبير»؟

«لا أعتقد ذلك . ».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«حسناً، كيف لي أن أشرح ذلك؟ إنّها الثياب التي ترتديها في أيّامٍ خاصّةٍ فقط».

ضحكت، وقلت «أوه، تقصدين أنّك في أبهى حُلّة»؟

«أبهى حُلّة؟ هل ذلك يعني الشيء نفسه»؟

«أعتقد ذلك».

«أوه». نظرتُ مرّةً أخرى إلى قميصها الهاواي. ونظرتُ إليه أنا أيضاً.

قلت «يبدو الطقس صيفاً حقًّا».

نظرت إليّ نظرةً لطيفة، وقالت «إنّه كذلك. كان الظلام ما زال مخيّماً عندما استيقظت، بيد أنّني عرفت فوراً أنّه الصيف. الصيف يبدأ اليوم».

ونحن ننتظر على مقعدٍ على الرصيف، اندفع إلى المحطّة الوجهُ الأخضر الداكن للقطار. أرسل صوتاً يشبه صوت حيوانٍ كبيرٍ ينفث هواءً من منخرَيْه. انفتحت الأبواب باتّساق، وما إن ركبنا حتى انطلق القطار ببطءٍ إلى الأمام.

كانت العربة لنا وحدنا إضافةً إلى زوجَين عجوزَين، ورجال أعمال، وامرأةٍ طويلِ شعرها. تمايل القطار قليلاً من جانبٍ إلى آخر. جلست وكوجيما هادئين نشاهد العالم يمرّ خلف النوافذ، لكنّ قلبي كان يخفق خفقاناً شديداً كلّما فكّرت في أنّنا خرجنا من البلدة على هذا النحو.

بعد حينٍ نظرت إليها، وبقدر ما أمكنني القول، فقد تأثّرت هي أيضاً. أشرق وجهها إشراقاً ما بدا عليها في المدرسة قطّ، بل إنّه أشرق أكثر ممّا أشرق حين التقينا في درج النجاة من الحريق. ولمّا نظرت إليها خفّ توتّري وغمرني إحساس بالراحة. سيكون هذا مُسَلّياً.

وأنا جالس إلى جوارها، أقرب إلى وجهها من المعتاد، حِرتُ أين أنظر فاضطربت قليلاً. أمّا كوجيما فلم يُثِر ذلك قلقها. نظرت إلى عينيّ على نحو ما تفعل كلّما التقينا، وتحدّثت عن أمورٍ شتّى شارحةً بيدَيها. وكلّما أخذتها الحماسة علا صوتها وارتفع. وقد أعجبني ذلك، ولمّا أدركتْ أنّ صوتها قد علا تنبّهت وتكلّمت همساً. ثم ما لبث أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ارتفع صوتها مرّةً أخرى، وعندما رأيتها قد تفطّنت إلى ذلك، ضحك كلانا.

«سعادَتِين».

«وما معنى ذلك»؟

«إنّه مثل هرمون الدوپامين الذي يحدث عندما تكون سعيداً جدًّا».

«أوه نعم»؟

وضّحت قائلة «وعندما تتألّم ألماً شديداً، فذلك يُسمّى أَلَمِين».

سألتها «وماذا عن حالي عندما أكون وحيداً»؟

ضحكت وقالت «وحيدَمِين».

عندما هدأ حديثنا، التفتت كوجيما ونظرت من النافذة، واضعةً يدَيْها على الحقيبة في حجرها. عكفت على مداعبة صورة القطّة بسبّابتها كأنّها تستطيع استشعار فروها.

انطلق القطار بين صفٍّ من البيوت خارجاً إلى مساحاتٍ شاسعةٍ من الأراضي الزراعيّة، فانتقلنا فوراً بسرعةٍ كبيرةٍ إلى صيفٍ كامل.

روت لي كوجيما قصصاً شتّى عن القطّة التي احتفظوا بها، وعن شدّةِ سواد فروها ونعومته، وعن الكلب الهجين وذكائه ولطفه.

قالت إنّها عندما كانت طفلةً كان عندهم في بيتهم قطيعٌ من حيواناتٍ مختلفة. وبسببها طُرِد أبوها من البيت.

«أحببت الكلب والقطّة، لكنّ أبي أحبّ الحيوانات الصغيرة كالأسماك الذهبيّة والسلاحف واللّتش والشّبّوط وما شابه. كان عندنا كثيرٌ منها».

سألتها «أين تضعونها»؟

«حسناً، تكلّف أحواض السمك كثيراً. وقد كنّا مفلسين حينها، لكنّ والدي وجد حوضاً ضخماً مصنوعاً من الستايروفوم في مكانٍ ما، من النوع الذي له غطاء. لم

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكن ممكناً النظر فيه إلاّ من الأعلى، غير أنّنا جعلنا منه أفضل حوض أسماك. من حينٍ لآخر نقصد المتجر ونختار شيئاً جديداً، مثل جسرٍ للسمكة الذهبيّة، أو شجرٍ ملتف. ولطالما دفعتْ السلحفاة إلى السباحة في أنحاء الحوض دفعاً. أليس عند أهلك حيوانات»؟

قلت «نعم. لا أحسب أنّهم فكّروا في الحيوانات حقًّا».

شَخَصَت كوجيما ببصرها سائلة «أتعني أنّهم لا يحبّونها»؟ وقفز حاجباها كأنّهما عضوان مستقلاّن.

قلت «ليس الأمر كذلك، في الأقلّ ليس من جهتي. ما ترعرعت بين حيوانات من قبل قطّ. ولست على يقينٍ من رأيي فيها».

قالت كوجيما «نعم. أفهم ذلك».

قلت «لكنّني أشعر بأنّني قد أألفها. لا ريب أنّ العيش برفقة الحيوانات يختلف عن العيش برفقة البشر. أعني أنّها لا تستطيع الكلام»

«وكيف يختلف ذلك»؟

«لا علم لي. أحسب أنّ الحال قد يكون هادئاً في الواقع».

«أتريد القول إنّ الناس صاخبون حتى في هدوئهم»؟

«شيءٌ من ذلك. الناس دائماً يفكّرون في أمرٍ ما. الحيوانات مختلفة، فهي أهدأ بوجهٍ عامّ».

«لكنّها تنبح وتفعل أشياء».

«ذلك نباحٌ فحسب».

«وإذاً فأنت لا تتحدّث عن أصواتٍ حقيقيّة»؟

«لا أظنّ ذلك».

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت كوجيما «حسناً. أعتقد أنّني فهمت. مثل أن تكون نائماً، وتحلم، وحتى عندما تستيقظ تفكّر في ما حدث في أحلامك. صخبٌ على هذه الشاكلة. وإنّني لأعجب إنْ كان بوسع المرء الكفّ عن التفكير».

قلت «لا شكّ أنّه يستطيع، في الأقلّ بضع ثوان».

قالت كوجيما وهي تغالب تثاؤبها «إذا كان كذلك، لن يستطيع، صحيح»؟

أدفأت الشمس أعناقنا. وكان شعوراً لطيفاً نظرتُ إلى وجه كوجيما لحظة. بدت ناعسة. وبينما شقَّ القطار طريقه بين حقول الأرز، أخذ يتقدّم ببطءٍ بالإيقاع نفسه طوال الطريق.

وجدتُني أقول «أحياناً أتفكّر في حالنا وما سيكون عليه لو لم تكن هناك كلمات».

قالت كوجيما وهي تنظر إلى عينيّ «أجل، فنحن الوحيدون الذين في حاجةٍ إليها. الكلاب لا تحتاج إليها، ولا الأشياء كذلك، مثل الزيّ النظاميّ أو الطاولات أو الزهريّات».

قلت «أنت محقّة. انظري إلى الأشياء الأخرى في العالم. لقد فقناها عدداً».

قالت كوجيما «إذا فكّرت في الأمر مليًّا، فستجده ضرباً من الغباء. البشر هم الوحيدون الذين يتكلّمون طوال الوقت ويسبّبون المشكلات وكلّ شيء».

حشرجت كوجيما. وأومأتُ برأسي.

ردّد القطار هديره بين المحطّات متساوية المسافات. وفي كلّ مرّةٍ وقفنا فيها ذكر جامع التذاكر اسم المحطّة. وكلّما أُغلق مكبّر الصوت، انبعثت فرقعةٌ أضحكت كوجيما. تراكضت حقول الأرز الخضراء وانبثقت من بينها بيوتٌ صغيرة. ومن شماريخ النبات الناتئة أشعَّ ضوءٌ حادٌّ ساير القطار وواكبه.

قلت «مهلاً يا كوجيما. هذا الفردوس الذي نتّجه إليه .».

«ليس الفردوس. إنّه الجنّة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«الجنّة»؟

«أجل، الجنّة بالألف واللام».

كرّرت قائلاً «الجنّة».

ابتسمت كوجيما، وقالت «ذلك صحيح. لكنّني لن أستفيض في القول. سترى عندما نصل إلى هناك. انتظر».

أومأت برأسي، فبادلتني كوجيما الإيماء راضية. بصمتٍ استغرقنا في النظر من النوافذ إلى المشهد العابر والقطار يهزهزنا.

أخيراً قالت كوجيما «في ما يتعلّق بما قلتَه سالفاً أحسب أنّني عرفت مقصدك. عندما تُخدَش طاولةٌ أو زهريّة، لا تُبدي ألمها».

سألتها «ألأنّ الطاولات والزهريّات لا تستعمل الكلمات؟ أهذا ما تعنينه»؟

قالت كوجيما «لا أعلم، ربّما. أكثر من ذلك أنّ الطاولات والزهريّات لا تُصاب بالأذى». وأضافت برفق «حتى إذا انكسرت».

أومأت برأسي قائلاً «أجل».

قالت برفقٍ أشدّ «لكنّ الناس مختلفون. في بعض الأحيان لا يمكنك أن ترى الندوب. لكنّني أظنّ أنّ هناك ألماً كثيراً». بعد ذلك ران عليها الصمت.

لم تكفّ عن مداعبة وجه القطّة الذي على حقيبتها. طفقتُ أراقبها بصمت. وقف القطار في المحطّة التالية. فُتِحت الأبواب. ترجّل بعض الناس، وركب آخرون وحلّوا محلّهم. انطلق القطار مرّةً أخرى. بعد حين، سألتني كوجيما عن شيءٍ آخر، كأنّها تريد التيقُّن.

«مهلاً . . إذا استمررنا في هذا، في عدم قول شيءٍ مهما فعل الآخرون بنا، ألا تعتقد أنّنا سنصبح أشياء نحن أيضاً»؟

لم أعرف بِمَ أجيب فطأطأت رأسي. شعَّ الضوء خلال النوافذ كلّها كاشفاً من كلّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زاويةِ انْساخ حذاء كوجيما. ما كان هناك من بياضٍ فيه.

قلت «أعني أنّنا لن نستحيل إلى زهورٍ أو طاولات، كلاً، قطعاً . . لكنّنا سنتصرّف كأنّنا أشياء. لذا في الأصل . ».

قالت «في الأصل»؟

بدأت أقول «كأنّنا . . »، لكن كوجيما قاطعتني.

«إنّنا نبدو كثيراً كأشياء». عضّت شفتها السفليّة وضحكت. «أنا وأنت نعلم أنّ ذلك ليس صحيحاً، لكنّنا هكذا نبدو لهم»

عبثت كوجيما بشعرها، ومرّةً أخرى نظرت إلى القطّة التي على حقيبتها. وانضويتُ أنا أيضاً في النظر إليها.

قلت «الجميع على هذه الشاكلة. هنا مربط الفرس».

قالت كوجيما «هنا مربط الفرس».

قلت «ليس بيدنا فعل شيءٍ إزاء ذلك». فضحكت كوجيما ضَحِكاً هادئاً. وطفقت أضحك أنا أيضاً.

انعطف القطار فمالت البيوت في الخارج إلى الوراء وابتعدت.

قالت كوجيما وهي تتنفّس تنفُّساً عميقاً «المشكلة هي أنّهم لن يتركونا في حالنا، حتى لو بدونا لهم أشياء، مثلما يتركون الأشياء الحقيقيّة. لا يمكننا أبداً أن نكون مثل ساعةٍ على الحائط». نظرت خارج النافذة «هنا مربط الفرس، صحيح»؟

ابتسمت لي.

«مهلاً، كدنا نصل».

دخلنا من الباب الدوّار واسترشدنا لافتةً خشبيّةً وتبعنا المسار المشار إليه فيها. مشينا في الممرّ، ثم انعطفنا يساراً وتوجّهنا إلى الأمام حتى بلغنا مبنًى أبيض كبيراً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان متحف فنون.

في الداخل، كانت الجدران والأرضيّات بيضاء، والأسقف مرتفعةً جدًا، وكان هناك أناسٌ كُثُرٌ والصباح في أوّله. وقد تريّث جميعهم وتمهّل متحدّثين بهمسٍ هَسهَسَ كنسيجٍ وهو يغوص في الجدران البيضاء. عُلّقت اللوحات حتى مدّ البصر باعثةً هالةً ضوئيّةً دافئة. وبينما نحن وقوفٌ أمام اللوحة الأولى نظرت كوجيما إليّ، وقد غشي الانفعالُ وجهها. حدّقت إلى اللوحة، ولم تقل شيئاً، ثم قفزت إلى اللوحة التالية.

مشيت وراءها ناظراً أوّلاً إلى كلّ لوحةٍ ثم إلى كوجيما وهي تنظر إليها.

شرعت تنظر إلى اللوحة من بعيدٍ لتستوعبها كلّها ثم تدنو منها شيئاً فشيئاً وقد أطبقت شفتَيها. وما تلبث حيناً رانيةً إليها حتى تنظر إليّ. وكلّما نظرت إلى اللوحات ظهرت خطوطٌ على جبينها، ولم يبدُ أنّها استطابت الأمر واستلذّته، بل تأذّت وتوجّعت. وبعد فراغها من قراءة الشرح كاملاً على اللافتة التي إلى جانب اللوحة، كانت تقفز إلى الوراء كأنّ شيئاً خطر ببالها، وتزفر بعمق، ثم تنتقل إلى اللوحة التالية كأنّما تُدفَع إلى الأمام دفعاً.

اللوحات هنا غامضةٌ محيِّرة.

على أقمشة القنّب الحمراء والخضراء فتياتٌ يراقصن حيوانات، ماعزٌ تحمل كمنجةً في فمها، ورجلٌ وامرأةٌ يتعانقان تحت حُزَم أزهارٍ متوهّجةٍ ضخمة.

تلك الصور الكثيرة التي ما ربط بينها رابطٌ شابهت نظرةً إلى حلم. على أنّه لم يكن حلماً جميلاً. الفرح الذي رأيته هناك متوحّشٌ والحزن باردٌ خانق. تناثرت الزرقة على قماش القنّب مصارعة الصفرة المقبلة كإعصار. وقد اجتمع الناس مشدوهين وهم يتفرّجون على ميدانٍ ضاجٍّ بالحياة. وأعلى مدينةٍ ثلجيّة، أغمض رجلٌ في رداءٍ أبيض عينَيه وصلّى. كلّ لوحةٍ كانت لحظة دمارٍ وافقت ولادة شيءٍ رائع. وكلّ إطارٍ حوى عوالم متضاربة. حَشدٌ جُذِب إلى شمسٍ تدور كطاحونة. أسماكٌ جُرِفت إلى الشاطئ. فَرَسٌ حذِرٌ له عينان بشريّتان أكثر من أيّ إنسانٍ حيّ. فتاة شاحبة.

«أنت تنظر إلى اللوحة»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقفتُ حائراً أمام لوحةٍ عندما سمعت صوت كوجيما. حين تنبّهتُ لما كانت تسألني قلت نعم.

«هل رأيت ما أعجبك»؟

قلت «لست أدري بعد». استرخى وجه كوجيما أكثر من قبل. بدا مُطَمئِناً.

سألتها «إذاً المتحف هو الجنّة»؟

قالت «لا. الجنّة لوحة». حشرجت قليلاً ونظرت إليّ. «اللوحة التي أحبّها أكثر من غيرها».

«وتُسمّى الجنّة»؟

هزّت رأسها، وقالت «كلاّ. الفنّان حاذق، إلاّ أنّ العناوين مضجرةٌ جدًّا وتكاد تبكيني. هنا، انظر إلى هذه».

أشارت إلى اللافتة التي إلى جوار اللوحة. كانت محقّة. بدت سيّئةً جدًّا مقارنةً بالعمل نفسه.

«مزعج، صحيح»؟

«نعم، قليلاً».

«لذلك منحتها عنواناً أفضل».

«أفعلت ذلك»؟

ضحكت بفخر «أجل. الجنّة لوحةٌ تصوّر حبيبَين يأكلان كعكاً في غرفةٍ بها سجّادٌ أحمر وطاولة. إنّها جميلةٌ جدًّا. وما يبهج حقًّا هو أنّه باستطاعتهما مدّ عنقيهما كيفما أرادا . أينما ذهبا، أيًّا ما كان ما يفعلانه، لا شيء يفرّق بينهما. أليس ذلك أفضل شيء».

«بلى».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضحكت كوجيما بسعادةٍ وقالت «إنّه الأفضل».

«إذا نظرت إلى الغرفة لحظةً فإنّها تبدو مثل أيّ غرفةٍ أخرى. لكنّها ليست كذلك. إنّها في الواقع الجنّة».

«الجنّة كمكان»؟

قالت كوجيما بحذر «لا، بل الجنّة التي وصفتها لك».

«هل تطلقين عليها هذا الاسم لأنّهما ميّتان»؟

تحدّثت كوجيما إليّ بصوتٍ منخفضٍ آتٍ من آخر حلقها «لا. شيءٌ مؤلمٌ جدًّا وقع لهما، محزنٌ جدًّا. لكن أتعرف ماذا؟ لقد تخطّيا ذلك، وعاشا في توافقٍ تامّ. بعد كلّ شيء، بعد الألم كلّه أتيا إلى هنا. تبدو مثل غرفةٍ عاديّة، لكنّها في الحقيقة هي الجنّة».

تنهّدت وعركت عينَيها.

قالت «الجنّة . . عندي صورةٌ لها في كتاب».

«حقًّا»؟

«من الطرافة أنّك كلّما نظرت إلى الصور، ليس فقط صورة الجنّة، إنّما أيّ صورة، بدت الأشياء الحقيقيّة أكثر زيفاً. هنا، انظر»؟

أشارت كوجيما.

«إنّهم يحلبون فرساً . . وللفرس عِقد».

قلت «انظري إلى هذه الألوان». كانت دافئة، لكنّها لم تكن مريحةً بالضرورة. وجهٌ ضخمٌ وألوانٌ كثيرة. نظرنا إلى اللوحة معاً.

همست قائلة «انظر إلى هاتين العينَين. أترى الخطّ الأبيض الذي يصل بين الحصان والرجل الأخضر»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عينان. في اللحظة التي تفوّهت فيها بالكلمة كدت أن أصاب بنوبةٍ قلبيّة.

تابعت كوجيما التحديق إلى اللوحة.

خلفنا كان صبيٌ لم يكد يستطيع المشي بعد، أفلت يد أمّه وركض حتى اصطدم بساق كوجيما. وقع وانخرط في بكاءٍ شديد. أربك الصوتُ كوجيما واستبدّ بها التوتُّر. أمسكت الأمّ بيد الصبي وحملته وهي تنحني معتذرةً لكوجيما. لم تعرف كوجيما كيف تردّ فانحنت بدورها للمرأة. نظرت إلى المرأة وهي تقود ابنها إلى خارج دار العرض. وما إن تواريا حتى تنهّدت كوجيما ونظرت إليّ بالعينَين المرتبكتَين نفسَيهما.

وددت أن أقول شيئاً يزيح غمامة الحزن عنها، لكنّني ما كدت أجد الفرصة لذلك حتى كانت كوجيما قد عادت إلى اللوحات، فلحقتُ بها دون قول شيء.

بعد حين، سألتها أخيراً.

«أين الجنّة؟ بعيداً في الداخل»؟

ولمّا التفتت ناظرةً إليّ شعرت كأنّني أستطيع رؤية وجهي أمام عينيّ.

تكلّمت برفقٍ بالغٍ قائلة «أجل، إنّها بعيداً في الخلف، لكنّني متعبة. فلنسترح».

خرجنا. جلست كوجيما على أحد المقاعد ولم تتحرّك ولم تتكلّم.

عندما قلت إنّي سأجلب شراباً، قالت إنّها ليست عطشى، فمشيتُ إلى آلة البيع وأحضرتُ شراباً لي. تعلّقت الشمس عالياً في السماء. وأنا جالسٌ هناك شعرت بالعرق يتشكّل في إبطيّ وحول رقبتي. ولمع الجلد تحت أنف كوجيما من العرق. من مجلسنا رأينا مرجاً فسيحاً يرتفع عنّا قليلاً، جلست فيه العائلات والأزواج لتناول الغداء على مفارش النزهة. آخرون تنافسوا على ركل كرةٍ هنا وهناك، وعمد بعضهم إلى خلع قمصانهم والاستلقاء على الأرض طلباً للتشمّس. وقد نمت في الحقل أشجارٌ كبيرة، اتّكأ الناس عليها واستغرقوا في القراءة. قلت لنفسي إنّه أوج الصيف. ومن الأفق لاحت السماء بزرقةٍ سخيّة. جلست كوجيما بسكونٍ تامٍّ، ممسكةً بحقيبة القطّة في حجرها. رشفت شرابي وفطنت إلى أنّني لم أكن عَطِشاً أنا أيضاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«ما الخطب»؟ سألتها غير عارفٍ بما يجدر بي قوله. مرّاتٍ هزّت كوجيما رأسها ببطء، ثم هزّت رأسها مرّةً أخرى كأنّ هزّةً أخرى فاتتها. أومأت برأسي ونظرت إلى الناس الجالسين على العشب. فكّرت في أنّ المشهد بدا مثل لوحة. أناسٌ شتّى مشوا قرب مقعدنا. مسحتُ جبيني بظهر رسغي.

بعد حين، سألتُ كوجيما إذا ارتأت أن نعود أدراجنا. لم تُجِب، عدا أنّها هزّت رأسها مرّةً أخرى.

«حُزنَمِين»؟ سألتها مجرِّباً التحدُّث بلغتها، لكنّها لم تقل شيئاً. وليتني لم أسأل. وما كان بوسعي سوى الجلوس هناك فحسب.

وفي آخر الأمر، أدركتُ أنّها كانت تبكي.

لم تبكِ بصوتٍ عالٍ. أشاحت بوجهها عنّي وغطّت عينَيها بيديها. انهمرت الدموع من كفّيها على وجنتَيها. ضغطتُ قنّينة شرابي الذي فتر، ونكّستُ رأسي. فكّرت في ما يمكنني قوله لها وأنا أراها باكيةً قربي، وما خرجت إلاّ خالي الوفاض، عاجزاً عن التصرُّف وفق مشاعري.

أخيراً قالت بصوتٍ منخفض «إنّه ليس أمراً واحداً». فركت وجنتَيها بكفّيها، وبصوتٍ خافتٍ لا يكاد يُسمَع اعتذرت.

«قطعنا هذا الطريق كلّه»، قالت مبتسمةً باضطرابٍ وهي تحاول إخفاء بكائها، وما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

احمرّت عيناها، وتدلّى المخاط من أنفها داخلاً خارجاً وهي تتنفّس. بدا المشبك الذي يمسك خُصَل شعرها المطّاطة كأنّه سينفك في أيّ لحظة. وقد لاحظتُ بقعةً على شكل حبّة فولٍ على وجنة كوجيما اليمنى حيث ذهب لون بشرتها. ما دنوتُ منها هكذا من قبل. وعجبتُ من ضعفها ووهنها. لم تُبدِ أيّ مقاومة، مثل مخلوقٍ صغيرٍ مهيض الجناح ينتظر من ينتشله. أعلم أنّني كنت مهيض الجناح أيضاً، غير أنّ كوجيما الجالسة قربي على ذلك المقعد بدت أصغر من أيّ طفلٍ رأيته. أضعف ممّا بدت عليه في المدرسة. حزنتُ حزناً شديداً. لا حول لي ولا قوّة على فعل ما هو أكثر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الجلوس والتحديق، فقد كنت بائساً كلّ البؤس.

لم أقدر على اكتناه سبب بكائها، فجلسنا هناك صامتين فحسب. داعبت كوجيما القطّة التي على حقيبتها مثلما فعلت ونحن في القطار. لعلّ نوبةً عصبيّةً اعترتها. رفعت بصرها، كأنّ الأسوأ قد ولّى وانقضى، ورنت إلى السماء.

قالت «لمَا يكون الخارج جميلاً هكذا شيءٌ ما يشلُّ حركتي»

تشبّعت سماء تموز بالصيف. وقد سكنت الأشياء فوق رأسَينا.

ضحكت، وقالت «أشعر كأنّني في حبس».

قلت «كأنّ غطاءً وُضِع فوقك».

أدخلت كوجيما يدها في حقيبتها وسحبت رزمة مناديل ورقيّة. سألت عمّا إذا كان بوسعها أن تتمخّط. قلت نعم. أدهشني تمخّطها بصوتٍ عالٍ.

قالت وهي تمسح أنفها «لحسن الحظّ أنّ عندي هذه المناديل. أتدري، يريحني خروج هذا من أنفي».

«سرَّني ذلك».

«ما من عادتي حمل مناديل ورقيّة».

«نعم».

«يسعدني أن جلبتها اليوم».

«نعم».

سألتني «أتريد التَّمَخُّط أنت أيضاً»؟

قلت «لستُ بحاجةٍ إلى ذلك الآن». نظرتُ إلى جيوبي. «لا أحمل أيّ شيءٍ أبداً. فقط محفظتي».

«وماذا عن قلمك الرصاص الأثير؟ ألا تحمل حتى هذا»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«لا يمكنني كتابة شيءٍ وأنا لا أحمل إلاّ قلم رصاص»

«لكن لهذا يحمل الجميع مفكّرةً صغيرة، صحيح»؟

«جيوبي لا تسع مفكّرة».

قالت كوجيما «بلى. لا أحمل أشياء كثيرةً أنا أيضاً». فتحت حقيبتها حتى أنظر بداخلها. «فقط محفظتي، ومناديلي الورقيّة، ومقصّي».

«أتحملين مقصّك معك»؟

لا بدّ أنّ العجب بدا عليّ، فقد أومأت كوجيما برأسها بحرج.

قالت «لكن مهلاً. ليس الأمر كذلك. ما عدت أقصُّ الأشياء».

«لا ضير، يمكنك قصُّ ما شئتِ. إنّني متعجّبٌ ليس إلاّ. وما حسبتُ أنّك تجلبين مقصًّا إلى متحف».

قالت محرجةً قليلاً «ما جلبته لأنّنا آتيان إلى هنا»

قلت «لا. معذرةً».

«دائماً ما أحمله معي، خارج المدرسة . . ليس لأنّني سأستعمله. خيرٌ أن يكون في حوزتي وكفى. لا لأنّني بفضله أأمن على نفسي أو نحو ذلك. أحبّ أن يكون عندي فحسب». أغلقت حقيبتها ومرّاتٍ قلبتها رأساً على عقب، ثم وضعتها في حجرها مرّةً أخرى.

قالت «أعلم أنّه أمرٌ غريب».

غطّت فمها بيدَيها وتبسّمت بعصبيّة. بلغتنا من المرج أصوات فتياتٍ وفتيةٍ يمرحون. درّاجاتٌ عبرت أمامنا تئزُّ أزيزاً. أعشى نورٌ ساطعٌ عينيّ، فأغمضتهما، وعندما نظرت رأيت شخصاً على حافّة المرج البعيدة يفرش مفرشاً فضّيًا.

فكّرت حيناً، لكنّني قلتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«كوجيما، أخرجي مقصّك».

«لماذا»؟

«هناك سبب».

«لكن لماذا»؟ تشكّلت غضونٌ صغيرةٌ بين حاجبَيها.

ضحكت، وقلت «لأنَّ».

حارت في أمرها «لماذا تضحك؟ كفّ عن ذلك».

قهقهت، وقلت «معذرةً. أنا لا أضحك منك».

سألت بحدّة، بالنظرة الحائرة نفسها «إذاً فلماذا تضحك»؟

«أنا لا أضحك».

«بلى أنت تضحك».

«نعم، لأنّك لا تصغين إليّ».

«أنت من لا يصغي إليّ . . لأيّ شيءٍ تريده»؟

صمتنا وقتاً ونحن ننظر إلى أطراف حذاءَينا. كانت قدماي أكبر من قدميها على نحوٍ ظاهر، فجعلتُ أفكّر في غرابة الأقدام. في شكلها الغريب ذاك. وبينما كنت أنظر إلى حذائها وَكزَت حذائي، فوكزتُ حذاءها. فعلنا ذلك بضع مرّات، ثم ضغطت حذاءها على حذائي، وقالت «حذاؤك كبيرٌ جدًا». ضحكت، وقلتُ ذلك لأنّني ولد. قالت إنّني محقّ، ثم لذنا بالصمت مرّةً أخرى.

قطعتُ الصمت، وقلت «إنّ شئتِ، لكِ أن تقصّي شعري. أتذكرين ما قلتِه من قبل؟ عندما تشعرين بالطبيعيّ يفلت منك. إذا كان هذا ما يحدث، يمكنك قصّ شعري».

حدّقت كوجيما إليّ فاتحةً فكّيها.

«شعرك؟ لماذا»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«بلا سبب. فقط فكّرت في أنّك قد ترغبين في ذلك»

«ماذا تقصد بشعرك على أيّة حال؟ يعني، أين»؟

«في أيّ مكان. أعني، ما دمتِ لن تقصّي كثيراً منه. والحقّ، لا بأس إن فعلت ذلك ما دام سيبدو شعري هو نفسه».

عندما سمعت كوجيما هذا داعبت أصابعُ يمناها ظهر يدها اليسرى. أوشكت على الكلام لولا أنّ شيئاً منعها.

قلت «كلّما شعرتِ بتداعي الأشياء وسقوطها، أو وجدتِ أنّها أجمل من أن تُصدّق، كلّما سلكت الأشياء مسلكها هذا، لكِ أن تقصّي شعري، بدلاً من قصّ رسائل البريد المهملة أو أيّ شيءٍ آخر عندما لا يكون في البيت أحد. خبّريني فحسب، ويمكنك قصّ شعري كلّما عنّ لك ذلك».

رمقتني كوجيما. نضح وجهها بالعرق، فبان عليها الانتفاخ. أوشك النهار على الانتصاف وزادت الحرارة. خَلَتْ السماء من الغيوم، وما ظهر ظلّ في مرمى البصر. ومن حينٍ لآخر، هبّ نسيمٌ في المرج ماسًّا أجسادنا برفق. ثم نظرت كوجيما إليّ وأومأت برأسها كأنّها تتخلّى عن شيءٍ ذي بال.

وبعد ذلك طأطأت، وبحذرٍ فتحت الحقيبة التي كانت في حجرها. وبحذرٍ أشدّ، أدخلت يُمناها في حقيبتها وأخرجت مقصّها. شعرها الذي أشبه عُشًّا أخفى وجهها فاستحالت رؤية ملامحها. وهي تحمل المقصّ في يدها حوّلت نظرها إليه. كان مقبضه بلاستيكيًّا أصفر اللون، غير مدبّب الطرفين، يصلح لحرف يدويّة. وقد تبقّعت شَفرتاه بطلاءٍ مختلفةِ ألوانه، لفرط ما استُعمِلتا.

بعد حينٍ من الوقت، قالت وهي تنظر إلى الشفرتين «إنّه عندي منذ السنة الأولى».

«من المدرسة الإعداديّة»؟

«كلاّ، من المدرسة الابتدائيّة».

«أووه، منذ ثماني سنوات»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألتني كوجيما برفق «هل أنت متيقّنٌ من أنّ الأمر مناسبٌ لك؟ أيروقك أن أقصّ شعرك»؟

«أجل، متيقّنٌ بنسبة مئةٍ بالمئة».

أمسكت المقصّ بيدها اليمنى، لكنّها قبضت الشفرتين الفضّيّتين بكفّها اليسرى ونظرت إلى يديها كأنّ في ذهنها شيئاً آخر.

قلت مستظرفاً «تشوب –تشوب!» ثم استويت جالساً ووضعت يديّ على ركبتيّ مولّياً كوجيما ظهري.

في البداية لم تحرّك ساكناً، وبعد ذلك شعرت بيديها في شعري.

وضعت إصبعها خلف أذني وأمسكت بخُصَلٍ صغيرةٍ وهزّتها بضع مرّاتٍ ليتّسق مقدارها. حامت اليد الممسكة بالمقصّ خلف رأسي. أحسست بشعري يتساقط بين الشفرتَين. شقّ المقصّ طريقه عبر أجمّة الشعر وبعث صوتاً يشبه صوت شيءٍ يُجرَش. سرت قشعريرةٌ في أوصالي، وتنهّدت كوجيما.

التفتُّ لأراها منكّسة الرأس وهي تحمل قبضةً من شعري بيدٍ والمقصّ باليد الأخرى وقد افترقت شفرتاه قليلاً. قصّت قريباً من فروة الرأس كومةً من الشعر بلغت كثافتها نحو بوصةٍ واحدةٍ وطولها أربع بوصات. جلس كلانا على هذا النحو، بلا حراك.

دون أن تنظر إليّ، داعبت كوجيما وجهي بكومة الشعر.

قلت وأنا أضحك «إنّه يدغدغ!"

تضرّج وجهها وحدجتني ببصرها، وبدت مستاءةً أو لعلّها كانت سعيدة، أو ربّما محرجة، أو على وشك البكاء. والحقّ، أنّني لم أعرف أيّ وجهٍ كان ذاك، لكنّها ضحكت.

«حسناً . . » لكنّها نظرت إليّ فحسب، ما زال وجهها محمرًّا، ثم أشاحت بوجهها، ثم عادت لتنظر إليّ. وما زالت تحمل خُصل الشعر قرب فمي، فتظاهرتُ بأكلها. لمّا رأت كوجيما هذا، ضحكت ضحكاً عالياً، وضحكت أنا أيضاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت «بقي منه الكثير، يمكنك الاستمرار». مرّرت يدي خلال شعري ولمست البقعة حيث أعملت مقصّها. واضحٌ أنّني لم أستطع تحديد الاختلاف عن ما كان عليه الأمر من قبل، لكنّها كانت تمسك بقبضةٍ من شعري.

نظرت كوجيما إلى خُصَل الشعر القليلة، ثم غلّفتها بمنديلٍ من مناديلها الورقيّة. ولمّا همّت بوضعها في حقيبتها سألتها عمّا تفعل بالأشياء الأخرى التي تقصُّها. قالت بأنّها ترميها.

قلت «حسناً، فلترمِها إذاً. ينبغي أن تفعلي الشيء نفسه»

حارت كوجيما، وقالت «لكنّها ليست الشيء نفسه».

قلت «بلى إنّها كذلك. ليست بالشيء المتفرّد».

لم تبدُ كوجيما على يقينٍ ممّا تفعل، فأخذت تنظر إلى قبضة الشعر.

قلت لها «لا بأس، عندما أقول افتحي يدَيك افعلي ذلك»

«لا أستطيع».

قلت «بل تستطيعين. لا خطأ في ذلك. يمكنك قصّ المزيد كلّما شئت. هناك ما يكفي».

شدّت كوجيما قبضتها، ولم تزل ساكنة.

«لا أستطيع فعل ذلك».

«بل تستطيعين».

بان عليها الاضطراب، ولمّا نطقتُ باسمها بسطت أصابعها عفواً من غير تكلُّف. عاد اللون إلى يديها وشهقت وقبل أن تفطن لما حدث انفتح المنديل وتفرّقت الخُصَل وسقطت على الأرض وتناثرت حتى اختفت.

لم نَعُد إلى داخل المتحف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في طريق العودة لعبنا لعبة الكلمات. أحسّت كوجيما بتحسّن، وقدزتْ على إضحاكها بضع مرّات. كنّا نتضوّر جوعاً لأنّنا لم نأكل شيئاً طوال اليوم وسمعنا قرقرة بطنَينا. كأنّ معدتَينا توافقتا. قلت مزحةً في ذلك فضحكنا. بيد أنّنا كلّما اقتربنا من محطّتنا قلّ كلامنا. لم ننظر من النوافذ. جلسنا صامتَين، ولم نتحرّك إلاّ كلّما حرّكنا القطار.

خارج المحطّة، عادت الأمور إلى طبيعتها بأسوأ ما أمكنها. تمدّد الغروب في الأفق، وكبر حجم الظلال من حولنا. شعرت بأنّ الصيف الذي أحاط بنا في المرج لم يكن الصيف نفسه الذي وجدناه هنا. لم يدانيه في شيء، ولو قليلاً. بزّد العرق بَشَرتَينا تحت قميصَينا . بان التوتُّر على جسدَينا. وما كنّا بحاجةٍ إلى قول ذلك، فقد عرفه كلانا.

ودّعتني كوجيما ولوّحت لي. ودّعتها. نظرت وراءها وهي تبتعد حتى اختفت عند الناصية.

واقفاً هناك وحدي، نظرتُ حواليّ. هنالك كنت، في مطلع الصيف، أقف في منتصفه تماماً، في المكان نفسه حيث قابلت كوجيما في ذلك الصباح. كنت أعلم أنّه المكان نفسه، لكنّني لم أشعر بأنّه هو نفسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث

في الأسبوع الأوّل من الصيف، أنجزت كلّ العمل الذي كان عليّ إنجازه في العطلة، فلم يبق شيء. وأكثر النهار كنت أقضيه في القراءة بغرفتي. ولم أذهب إلى أيّ مكانٍ قطّ.

وعندما كان يحين وقت الطعام، تناديني ماما لنأكل معاً، كالمعتاد. ولم يكن أبي يأتي إلى البيت إلاّ لِمَاماً. وإذا أتى فإنّه لا يطيل إقامته.

من دون المدرسة استطعت تدبُّر أمري، فكنتُ لا أرى أحداً ولا أحد يراني. لكأنّني كنت قطعة أثاثٍ في غرفة، لا يستعملها أحد. وإنّني لعاجزٌ عن التعبير عمّا شعرت به من أمانٍ لأنّ أحداً لا يراني. وقد عرفت أنّ السلام لا يدوم، ومع ذلك كم انسلى عنّي الهمّ وارتاح بالي إذ أدركت أنّني إذا لم أخرج من غرفتي فلا أحد في العالم سيجرؤ على وضع إصبعه عليّ. على أنّني لمّا قلّبت الأمر لم أجد سبيلاً أدخل منه إلى العالم، لكنّ هذا ما يجب أن يكون عليه الحال.

علّلتُ نفسي بقصّةٍ عجيبة، وفيها ينساني نينوميا ورفاقه نسياناً تامًّا.

عندما ينقضي الصيف سأقصد المدرسة لأجد ذكرياتهم عنّي قد امّحت. لن يُثير وصولي أيّ مشاعر أو عواطف، لا شيء. حدثٌ ما سيقع لهم في العطلة. سيصبحون أناساً مختلفين تماماً، لا يكترثون لأمري البتّة. أعلم أنّ إكثاري من التفاؤل مؤذٍ، لكنّني في عزلتي، لم أقدر على ردّ نفسي ومكثت أيّاماً طوالاً أتنعّم بأوهامٍ حمقاء، وصلت في بعض الأحيان إلى التضرُّع بالدعاء. وكلّما طال مقامي في البيت شعرت بأنّ كلّ ما حدث في المدرسة إنّما كان فصلاً من قصّةٍ تعثّرتُ بها عندما كنت صغيراً. كأن لا شيء من ذلك كان له علاقةٌ بما صرت إليه.

اعتدت، وماما، تناول الطعام والتلفاز مفتوح.

أتى كلّ يومٍ بأحداثٍ ووقائع بدت بلا نهاية، وأوجزتها نشرة الأخبار. قرارات محاكم، أخبار مشاهير، نِسَب تأييد رئيسٍ ما، اتّفاقيّات. أناس قُتِلوا . أعاصير هبّت على الأرض، وأمورٌ شتّى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذات يومٍ رُويت قصّة تلميذٍ في مدرسةٍ إعداديّةٍ تعرّض لتنمّرٍ فقتل نفسه.

أنار ضوءٌ ورقة، وقرأ صوتٌ جدٌ قِسماً من مذكّرات التلميذ كأنّه كان رسالة انتحار وبعد ذلك، اعترف مدير المدرسة الإعداديّة وجماعاتٌ أخرى بذنبهم العظيم وانحنوا أمام آلة التصوير التي انتقلت إلى تصوير مقابلةٍ مع زملاء التلميذ وقد أُغتِمّت وجوههم. زعم أهله ومعلّموه وزملاؤه أنّهم لم يلاحظوا فيه ما يُريب. ما تُراهم فعلوا به؟ وأيّ شيءٍ دفعه إلى قتل نفسه؟ قال التقرير إنّهم سرقوا حاجاته وابتزّوه للاستيلاء على نقوده، والأدهى والأمرّ أنّهم أوسعوه ضرباً.

قد أُطفِئ التلفاز وتختفي الأخبار، أمّا الحياة التي أعرفها فلن تتغيّر. لم أجد سبيلاً إلى التخلّص من حياتي. كدت أصرخ من ثقل همومي، لكنّني قمعتُ عواطفي وأكرهتُ نفسي على الاعتراف بأنّ حالي ليست بأسوأ من حال الصبيّ الذي قتل نفسه. وما زادني ذلك إلاّ بؤساً. أيُّ شيءٍ أقسى على المرء من الإقدام على الانتحار لكي ترتاح نفسه؟ أمّا زعمي أنّني على حالٍ طيّبةٍ فلن يحلّ شيئاً. لن يفعل شيئاً إذا كنتُ أدّعي فحسب.

في أوقاتٍ كهذه، بذلت جهدي لإقناع نفسي بأنّ للمدرسة نهايةً مثلما للصيف نهاية، وأنّ أعوامها إلى انقضاءٍ عاماً بعد عام، وعلى المنوال نفسه سينتهي التنمّر الذي يُبدّد حياتي. لكنّني لا أجد نفسي إلاّ كاذباً إذا قلت لكم إنّني شعرت بتحسّنٍ من التفكير على هذا النحو.

عينِي هي سبب مشاكلي كلّها.

قد أنتهي من المدرسة وأبدّل بيئتي، إلاّ أنّه يحسُن بي ألاّ أتوقّع تغييراً حسناً ما دامت عيني حولاء. والأكثر والأدهى هو أنّ حالي ستسوء أو لعلّها ساءت منذ زمنٍ وما أدركت مدى سوئها بعد. لربّما أكون قد قتلت نفسي مثلما فعل ذلك الصبيّ الذي عرفت عنه في التلفاز، أو قتلني شخصٌ ما. لربّما متُّ فعلاً. اكتسحتني هذه الهواجس حتى إنّي ما عرفت فيم كنت أفكّر. وخدّرني مزيجٌ من الخوف والغثيان.

وقفت أمام المرآة وتفحّصت وجهي. انحرفت عيني اليمنى لتنظر إلى شيءٍ أسرّته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لنفسها. إنّه لأمرٌ مزعج. مِلتُ على صورتي في المرآة. مهما أمعنت في الاقتراب فما كانت عيناي لتلتقيا. بدت عيني الحولاء كسمكةٍ رخوةٍ من عالمٍ خفيٍّ في عمق المحيط، لكنّها كانت هناك في مكانها، أخوَلَ من ذي قبل.

لمّا مشت كوجيما إلى جانبي، يومَ زرنا المتحف، أتُراها خجلت من أن يراها أحدٌ معي؟ ربّما لذلك لم نتحادث في المدرسة. وتفكّرتُ سائلاً نفسي ما شعورها نحو عينيّ، وما ظنّها بي؟ لا أعلم كم مرّةٍ سألت نفسي ذلك.

ولكن، ماذا عنّي أنا؟

ما شعوري نحو كوجيما؟ ولِمَ لا أبادلها الحديث في المدرسة ولا أنظر إلى عينَيها؟ أعرف، يقيناً أنّني، خفت من نينوميا، لكن ما الذي أخافني؟ هل خفتُ الأذى؟ إذا كان الأمر كذلك، إذا كان ذلك ما يستحوذ عليّ، فما بالي لا أتصدّى لنينوميا؟ وما معنى أن يُؤذَى المرء؟ كلّما تنمّروا عليّ وضربوني، لِمَ لا أستطيع فعل شيءٍ إلاّ طاعتهم؟ وما الطاعة؟ لماذا أخاف؟ لماذا؟ وما معنى أن يخاف المرء؟ مهما أطلت التفكير في الأمر فما كنت لأصل إلى إجابة.

حاولت صرف هذه المشاعر، ولمّا ضجرت من قراءة الكتب ومن التفكير في أمورٍ أخرى، اتّكأتُ على الحائط وغرقت نفسي في حيرتها. خلعت نظّارتي وعركت عينيّ. عركتهما عَزكاً شديداً. كأنّ كتبي على الرفّ وكذلك قوائم طاولتي، اجتمعت لتغدر بي لمّا أخذت تتضاعف في عيني، وبدا كأنّ أنفي كفّ عن التنفُّس. فتحت سحّاب بنطالي واستَلَلتُ قضيبي. بقبضةٍ قويّةٍ طفقتُ أحرّكه ذهاباً وإياباً حتى أنزلتُ مائي في منديلٍ ورقيٍّ مكوّر. شعرتُ حيناً من الوقت، في الأقلّ، بأنّني تغلّبتُ على توتُّري. طويت المنديل الممتلئ بالمنيّ في منديلٍ آخر ووضعته على حافّة السرير لأرمي به في المرحاض فيما بعد. ما كنت أمارس هذا إلاّ كلّما أثقلتني أمواج القلق المتكرّرة هذه بلا سبب. وليس يرضيني أن تختلط أمورٌ تمنحني شعور الأمان والسعادة بهذا الفعل. لا أعرف السبب، لكنّني عندما فعلت هذا لم أفكّر قطّ في كوجيما. وما كنت لأستطيع إن حاولت.

أحياناً كنت أسمع صوت المكنسة الكهربائيّة عندما تشغّلها ماما أو صوت الأطباق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين تغسلها، غير أنّ ماما لم تكن لتدخل غرفتي فجأة. بلغتني الأصوات عبر شقٍّ في العالم الخارجي الممتد. أصغيت إليها وعيناي مغمضتان، كمن يحصي غيوماً بملاحظة حضورها فحسب. بعد إنزال مائي التفّ بعضي حول بعضي وشرع جسدي يغوص في الفراش عميقاً. استسلمتُ للهاوية وغار جسدي مخترقاً السجّاد والأرضيّة وأسقف عشرات الطوابق تحتي، دون نهاية. ولمّا سئمت هذا الشعور، استويت جالساً وأدخلت قضيبي في لباسي التحتي وفتحت النافذة لأنظر إلى الخارج. رأيت مختلف الأشياء من نافذتي، لكن لا شيء رآني. بتثاقل، يخطو الصيف، مثلي، خطوته الأولى. وسألت نفسي ما عسى كوجيما تصنع في يومٍ كهذا؟

ما كادت أواخر آب تحلّ ونودّع مهرجان أوبون حتى لاحت نهاية الصيف في الأفق.

أخذت ماما تتصرّف كأنّها تودّ قول شيءٍ لي لكنّها لم تتفوّه بكلمة. في بعض الأحيان كنّا نجلس معاً ونشاهد التلفاز. وذات يوم، طلبت إليّ الخروج لتفقُّد البريد فرأيت أطفالاً، بعضهم ارتدى ثياب سباحةٍ وبعضهم الآخر كان عارياً، وقد أخذوا يرشّون الماء حوالينهم وهم في حوض سباحةٍ صغير. تصايحوا وضربوا بالخرطوم في الأنحاء.

وددتُ أن أرى كوجيما مرّةً أخرى.

وقد بقيت عشرة أيّامٍ على بدء المدرسة.

شوّش هذا الخاطر فكري. فكّرت في مهاتفتها في البيت، ربّما كان رقم هاتف منزلها في دليل الصفّ الذي وُزّع علينا في السنة الدراسيّة الأولى، لكن كان بوسعها فعل الشيء نفسه، أليس كذلك؟ قدّرتُ أنّها لو أرادت التحدُّث لهاتفتني. لم أتجاسر على مهاتفتها. لكن ماذا لو كانت قد فكّرت في هذه اللحظة في ما أفكّر فيه وانتظرت مهاتفتي لها؟ ثم ماذا؟ وما زلتُ أدور وأحوم حول الأمر حتى انتهيتُ إلى التفكير في آخر لقاءٍ مستعيداً ما استطعتُ من التفاصيل؛ لمّا بكت مثلاً، أو عندما أمسكت بخُصَل شعري وقصّتها. كم كانت التربة من حولنا جافّةً، أو كيف بدا الشعور بالسير على الأسفلت. وحفنة الشعر الصغيرة تلك. أدركت كم كان ذلك اليوم حميماً. توجّع قلبي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمّا تذكّرت تلك اللحظات التي تقاسمناها أدركت أنّني لم أخطئ برغبتي في الكلام، لكنّني لم أجرؤ على مهاتفتها في بيتها.

فكّرتُ في مختلف التدابير، فقرّ قراري على البحث عن عنوانها في دليل الهاتف والذهاب إلى بيتها. من هناك سأجد مكاناً أنتظرها فيه حتى تخرج من البيت فأتبعها، وعندما نكون في الشارع سأزعم أنّ لقاءها قد حدث مصادفةً وأناديها. دبّرتُ الأمر على أكمل وجه.

كان منزل كوجيما في الحيّ الواقع وراء الطريق المحفوف بالأشجار. تلك الأرض المألوفة أجبرتني على التفكير في المدرسة. بعد عشرة أيّامٍ من الآن، سيكون رأسي في مكانٍ مختلف، يكاد يكون أسوأ الأماكن. كأنّني سأقطع هذا الشارع ذهاباً وإياباً إلى الأبد. مرّاتٍ صفعت وجنتيّ وتنفّست بعمقٍ مدّعياً المرونة. واستأنفت السير.

تبعت المسار الذي بحثت عنه في خارطةٍ وبلغت وجهتي بلا مشقّة. وما كان عسيراً العثور على بيتها. بخلاف البيوت المجاورة، بُني بيتها من طوبٍ فاخرٍ بلون شايٍ محمّص. وقد نُحِتت اللافتة التي على البوّابة من بلاطٍ سميكٍ لحجرٍ جميل. ما رأيتُ لافتةً مثلها من قبل قطّ. كلّما أمعنت النظر فيها بدت شيئاً لا يخصّ بيتاً. كأنّها شاهدة قبرٍ صغيرة. وخلف البوّابة وقف صفّان من الأشجار متعرّجة الجذوع التي ما عرفتُ لها اسماً. وفي آخر صفّي الأشجار قام بناءٌ متينٌ من ثلاثة طوابق، وكانت على كلّ نافذةٍ ستارةٌ من الدانتيل الأبيض. وما كان البناء جديداً تماماً، غير أنّه لم يكن قديماً أيضاً. يمكن القول إنّه كلّف من المال كثيراً. لم يكن هو البيت الذي توقّعته.

اختبأتُ حيث أمكنني رؤية المدخل وأخذتُ أراقب . انزلقت نظّارتي لغزارة العرق. ظللت أعيدها إلى مكانها فوق أنفي، لكنّها كانت تنزلق كلّ مرّة.

كأنّني وقفت هناك إلى الأبد، ولم يكد يمضي أكثر من عشر دقائق. وأنا واقفٌ هناك، أدركت مدى حماقة تدبيري. تعرّقتُ من شدّة الحرارة، بيد أنّ جلدي تفصّد عرقاً أقذر، لا علاقة له بالطقس، واختلط بالعرق الطبيعيّ. كأنّ شخصاً في مكانٍ ما خلفي كان يراقبني وأنا أسترق النظر. ملأ التوتّر معدتي كأنّه غازٌ وصعد إلى حنجرتي مهدّداً بخنقي. ثم هبط إلى ذراعيّ وشعرت بلسعٍ في يديّ. وما لبثت حتى عجزت عن تحمّل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المزيد فابتعدت عن المكان.

قبل كلّ شيء، لم أكن أعرف ما كانت تفعل كوجيما طوال اليوم، ولم أدرِ بوقت خروجها من البيت. ثم ما بالي قد جئتُ هكذا دون استعداد؟ تهيّأت لي الفرصة لتقليب الأمر وأنا أمشي. وقبل أن أنعطف، ظللت أنظر ورائي حتى أمِنتُ من أنّ أحداً لم يتعقّبني. وكان من حسن حظّي أنّني لم أصادفها، وإلاّ فكيف كنتُ سأفسّر لها سبب وجودي في حيّهم الذي ما زرته من قبل قطّ ولن أزوره أبداً؟ اللعنة. كلّما فكّرت في الأمر اختلطت أفكاري وتكدّرت. ولمّا مررت بالمدرسة وبلغت الطريق المحفوف بالأشجار وجدتُ راحةً ما بعدها راحة، فرغبت في الجلوس إذ شعرت ببرودة فخذيّ في سروالي. لكنّني وقفت هناك فحسب.

هاتفتني كوجيما بعد ذلك بيومين.

رنّ الهاتف أوّل مرّةٍ في الصباح. ردّت ماما لكن لا بدّ أنّ كوجيما أغلقت الهاتف بعد لحظات.

قالت ماما كأنّها تخاطب نفسها «لا أحد يُجيب». أغلقت الهاتف هي أيضاً وذهبت إلى المطبخ. أبلغتني أنّ الغداء في الثلاّجة وأنّ عندها أعمالاً تقضيها، ثم خرجتْ من البيت. نظرت في الثلاّجة ووجدت طبق معكرونةٍ باردةٍ مغلّفاً ببلاستيك. نفسي لم تشتهِ الأكل، فاضطجعت على الأريكة. وفي ذلك الحين، رنّ الهاتف مرّةً أخرى. كانت كوجيما.

عرفتها من كيفيّة قولها أهلاً، لكنّني لم أجِد الكلام. حيّتني ورددتُ التحيّة. أمضينا مدّةً من الوقت ننصت إلى الضجيج المنبعث من السمّاعة بإيقاعٍ متردّد. قالت كوجيما «الهواتف غريبة»، وقلتُ «أجل، لكنّها أيضاً شيءٌ مُسَلٍّ». ثم قالت شيئاً آخر، وقلت شيئاً أنا أيضاً. كأنّ صوتي لم يكن صوتي. علّقت كوجيما على ذلك، فقلت شيئاً آخر أضحكها، ودبّرنا للقاءٍ قبل بدء المدرسة مرّةً أخرى.

سألتني «ما رأيك في الغد»؟ قلت حسناً. عزمنا على اللقاء عند درج النجاة من الحريق. وقبل إغلاق الهاتف سألتها عمّا إذا كانت قد هاتفتني في ذلك الصباح. قالت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا بدّ أنّه كان شخصاً آخر.

شهراً لم أرَ كوجيما فبدت لي مختلفةً قليلاً. شعرها جامحٌ كعادته، وبدا ثوبها البنّي كمئزرٍ بكُمّين فضفاضين. دَكُنَ لون ذراعيها النحيلتين كلون وجهها. وقفت هناك على بسطة الدرج بحذائها الرياضيّ القديم، وبانت ساقاها النحيلتان كَعَصَوَين.

سألتني «كيف حالك»؟

«بخير . وأنتِ»؟

قالت «بخير».

وقفتُ إلى جوارها ونظرت إلى البلدة. مع أنّني كنت قد صعدتُ بالمصعد الكهربائيّ، تصبّب جسدي عرقاً من المشي في الزُّواق فحسب. مسحتُ العرق من جبيني بمنديل. دنوتُ إلى جوارها أكثر، عفواً بلا تكلُّف، كأنّ ذلك لم يكن بالشأن العظيم، لكنّني ما تحرّكت إلاّ عفواً. تعرّق جبين كوجيما أيضاً، وكدت أمسحه بمنديلي. وأخذ منّي التوتُّر كلّ مأخذ. وقد شعرت بالذنب، بل باقتراف جرم، لمّا سمحتُ لفضولي بالتغلُّب عليّ وقطعت الطريق كلّه إلى بيتها .

بعيداً عن الأنظار، صرصرت أجواق زيز الحصاد، مضاعفةً حصار الحرارة من حولنا.

تحدّثنا عمّا فعلناه في الصيف. أخبرتها بأنّني لم أذهب إلى أيّ مكان، ومكثت في البيت أقرأ فحسب. سألتني عمّا قرأت. عددتُ لها ما تذكّرت من عناوين. سألتني «هل كانت جيّدة»؟ قلت «ليس كلّها». قالت وضحكت «إنّك تعاملها كواجب مدرسيّ». ضحكت أنا أيضاً. ثم أخبرتني أنّها قد قضت من وقتها أسبوعاً كاملاً على الشاطئ.

سألتها «هل يعيش جدّاك هناك أو نحو ذلك»؟

هزّت كوجيما رأسها، وقالت إنّها زارت أباها. «حسبتُ أنّني أخبرتك عنه».

«قليلاً فقط».

قالت «إنّه يعيش بمفرده دوماً. طلّق أبي أمّي عندما كنت في الصفّ الرابع، ثم انتقلتُ أنا إلى هنا مع ماما. أردت الإقامة مع أبي، غير أنّه لم يكن يملك ما يكفي من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المال. ثمة أسبابٌ أخرى أيضاً، لكنّ المال كان سبب طلاقهما الأساس في ظني. خيرٌ لنا ألاّ نتحدّث في هذا. لم أرك منذ وقتٍ طويل».

قلت «لا بأس. يمكنك قول ما تشائين».

عندما قلت ذلك مطّت كوجيما شفتيها. طوت يديها على الدرابزين واتّخذتهما وسادةً لذقنها.

«كان لأبي ورشةٌ لكنّها أغلقت عندما بدأتُ أدرس في المدرسة الابتدائيّة. كنّا مديونين وفقراء جدًا. شعرت بذلك في كلّ يومٍ في حياتي. لم نملك مالاً كافياً قطّ».

حكّت كوجيما جانب أنفها بسبّابتها.

قالت «مهما جَدّ أبي في عمله فلم يكن الأمر لينجح. كان يعمل ويعمل دون جدوى . . إنّني أقول قولاً جِدًا إنّ الحديث في هذا الأمر الآن يوحش النفس».

قلت «كلاّ، ليس كذلك». أرحتُ ذقني على الدرابزين مثلما فعلت هي وتركتها تتابع الحديث.

نظرت إليّ كأنّ شيئاً شغل فكرها لكنّها بعد ذلك استرسلت في الحديث بهدوءٍ أكبر.

«أبي ألطف الآباء. لا يُكثر الكلام لكنّه في غاية اللطافة. وما كان خطأه عندما أُغلِقَت الورشة. إلاّ أنّه لام نفسه على كلّ شيء، كأنّه كان هو المسؤول. على أنّ الأمر لم يكن كذلك، فقد عمل طوال الوقت، ليلَ نهار، ولم يشتكِ، ولا مرّةً واحدة. كان يديم التّبسّم ما دمنا معاً. مرّاتٍ كثيرةً في أثناء اليوم كان ينظر إليّ ويقول «هل أنتِ بخير»؟ لعلّه أراد ممازحتي أو نحو ذلك، لكنّني اكتفيت بمبادلته الابتسام. ثم كنت أذهب إلى المدرسة وأنا مغتبطة. حتى في مدرستي القديمة، لمّا سخر الأطفال من فقري، لم أهتمّ قطّ. أخذتُ أبيّض منديلي كلّ يومٍ، وأكوي ثوبي المدرسيّ مرّتَين في الأسبوع حتى لا يبقى فيه أدنى غَضَن، وأنظّف حذائي الرياضيّ كلّ يوم أحد. لم يكن عندنا مال قطّ، لكنّني لم أسمح للفقر بالتمكّن منّي. حتى إنّني عقصتُ شعري، فلك أن تبدو حسن المظهر كأيّ شخصٍ آخر. حتى لو كنت فقيراً فلا أهمّيّة لذلك. مهلاً، هل أهلك أغنياء»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«نعيش في شقّة. أحسب أنّنا عاديّون تماماً».

«هل أمّك تعمل»؟

«كلاّ، إنّها تمكث في البيت».

«ذلك أمرٌ حسن»، قالت كوجيما، وما قالته إلاّ لقول شيءٍ فحسب.

حكّت رأسها، وقالت «لكن أتدري؟ أرى أنّ ذلك يعني أنّك غنيّ».

«حقًّا»؟

قالت «نعم. ماما لا تعمل أيضاً، ما عادت تعمل. في ذلك الحين، لمّا سئمت ما آلت إليه الأمور جادلت أبي ونازعته. ولأنّه لم يُكثر الكلام، انكفأ على نفسه كلّما اشتدّت الأمور. ما كان جدالاً في حقيقة الأمر، بل كان أشبه بصراخ. كثيراً ما شتمته ماما ولم يردّ عليها، أو لعلّه عجز عن الردّ. وحتى ذلك لم يرق ماما. حسناً، لست أدري، كان الجدال يتعسّر ويسوء لأنّ أبي لا يُجيب بشيء، فتخرج ماما عن طورها وتصيح وتصرخ طوال الوقت. وفي آخر الأمر، أخذت تقذف الأشياء، أيّ شيءٍ يكون حوالَيها، قائلةً إنّ كلّ شيءٍ كان خطأه هو، فتلكمه وتركله. رؤية ذلك تُذهِب العقل. كانت تقذفه بأيّ شيءٍ في يدها. وكانت تبكي بكاءً شديداً. أتذكّر لمّا فكّرتُ في أنّ سبب ذلك كلّه هو أنّه ما كان عنده مال. على أنّني أعلم أنّ المال لم يكن وحده السبب. ليس مثلما فهمتُ. هكذا استمرّ الحال حتى كفّت ماما عن الذهاب إلى عملها. كنّا جميعاً معدمين وأواصرنا تتفكّك. ولم تُدرك ما الذي سنفعله فيما بعد.

«أتذكّر ذات مرّةٍ عندما جلستُ وماما على حاجزِ إسمنتيّ في سَاحةِ مواقف السيّارات قرب المكان الذي سكنّا فيه. كأنّ ماما لم تكن هناك.

«كان يوماً جميلاً وهبّ النسيم عليلاً. في ذلك الصباح، معاً أدخلنا الثياب المغسولة، وقلت لها إنّني سأذهب لألعب لعبة البوغو. أتذكُرين عِصِيّ البوغو؟ لكنّني لمّا عدت وجدتهما يتجادلان مرّةً أخرى. وقد ساء الوضع تلك المرّة. قَذَفَتْهُ بكوب شايٍ أصابه في الجبهة. وبدأ ينزف. ذلك كان كوبي وعليه صورة يقطينٍ أخضر أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحو ذلك. وما كان غريباً هو أنّ الكوب بعد أن أصاب أبي ووقع، لم ينكسر، بل تدحرج على الأرض متجهاً نحوي. ثم، أقسم لك بأنه انقلب إلى وضعه المستقيم من تلقاء نفسه. أستطيع رؤية ذلك بوضوح. لن أنسى ذلك أبداً، أبداً».

قلت «عجباً»!

«وقف أبي هناك فحسب، بلا حراك. لم يقل شيئاً. بكت ماما حتى أنهكت، ثم خرجت. وما إنْ ذهبت حتى ساورني شعورٌ مخيف، فقلت لأبي أن يلزم مكانه وركضتُ خلفها. كانت ترتدي مئزرها الأحمر، وبدت في ذهولٍ وحَيرَة، وقد جلست على تلك الحواجز. أتعرف تلك الحواجز الإسمنتيّة التي توضع في ساحة المواقف؟ عدوت نحو ماما وجلست إلى جانبها، لكنّها كانت في دنيا أخرى. ناديتها؛ ماما، ماما، ماما. وما من جواب. جذبتُ ذراعها فما تحرّكت. ذُعِرتُ وفكّرت في أنّه أولى بي أن أذهب وأحضر أبي، لكنّني قرّرت ألاّ أفعل. ضربتُ ركبتها بأقسى ما استطعت وأنا أبكي بجنون. لنذهب يا ماما. لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً أيضاً. كأنّها لم تسمعني. خفتُ أشدّ الخوف وفكّرت في ما أنا صانعةٌ إن ذهب عقلها وما عادت تقول شيئاً مرّةً أخرى. حدث هذا حين كان الجميع في الصفّ يلعبون لعبة الجرأة على النظر إلى الشمس. هل لعبتَها؟ أتعلم أنّك إذا أطلت التحديق إلى الشمس عَمِيتَ؟ أحدهم قرّر أنّك إذا حدّقت إلى الشمس ثلاثين ثانيةً دون أن ترمش عيناك فلك أن تتمنّى أمنية. لذا فعلتُ ذلك هناك تماماً وأنا جالسةٌ قرب ماما أبكي وأقول يا ربّ أعِد إليّ ماما. نظرت عالياً إلى الشمس وشَخَصتُ ببصري. وكان يوماً مشمساً جدًّا. ما من غيمةٍ واحدة. وكانت الشمس تسطع سطوعاً شديداً، وقد اشتدّت حرارتها حتى ابيضّت، كمثل يومنا هذا. ما زلت أذكر كم آلمني النظر. بيد أنّني قلت لنفسي قد أحتمل ذهاب بصري، ولكن ليس ذهاب ماما. وما عرفت كم طالت الثلاثين ثانية، لكنّني واصلت النظر. ارتعشت جفوني وانهمرت الدموع من عينيّ. قاومت ما استطعت لأبقيهما مفتوحتَين. وما زلت على هذه الحال وقتاً حتى سمعت ماما تقول «ما كان ينبغي أن يكون الأمر هكذا». والحقّ أنّني لم أتبيّن ما قالت، لكنّ صدري انشرح لمّا سمعتها تتكلّم. ثم قالتها مرّةً أخرى «ما كان ينبغي أن يكون الأمر هكذا». لم أعرف بم أجيب، فبقيت ساكتة. لكأنّها قالت «لا شيء بحوزتنا . . لا شيء». بيد أنّ كلامها لم يكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إليّ. كأنّ الكلمات قد خرجت عفواً من مكان ما في أعماقها».

أدركت كوجيما أنّها قد أطالت حديثها فأخذت تحدّق إلى الأفق. جلسنا هناك وقتاً وأرحنا ذقنينا على الدرابزين ونحن ننظر إلى البلدة من علٍ.

بعد حين، سألتها «هل حسُن الحال في البيت عندما أبلى أبوك بلاءً حسناً في عمله»؟

زفرت كوجيما ونظرت إليّ.

«ليس تماماً. لم يُجدِ نفعاً ما بذله من جهدٍ في العمل. كلّما تذكّرت الأمر وجدت أنّ أموراً سيّئةً كثيرةً كانت تحصل، لكنّني أحببت العيش معه. لم أكترث لفقرنا. إنّني أعني ذلك. شعرت بذلك حتى عندما كنّا نمرُّ بأسوأ الأحوال. من لا يدركون معنى الفقر تجدهم يقولون «لا بأس بفقرك ما دمت تحظى بالحبّ»، لكنّهم لا يفقهون ما يقولون. في الحقيقة، نفد صبر أمّي فاستحال عيشهما معاً. عشنا ثلاث سنواتٍ مريعةٍ على هذه الحال قبل أن تتدخّل خالتي. وفي آخر الأمر، قرّرا إنهاء الوضع فتطلّقا».

مسّت كوجيما شفتيها بيدها وهي تتكلّم.

«ما زلت لا أعرف سبب تدخُّل خالتي. حتى بعدما قرّر والداي الطلاق لم يقل أبي لأمّي شيئاً. لم يلزم الأمر تدخُّل شخصٍ آخر لتسويته. وفي أثناء الطلاق، بدأت ماما تواعد حبيبها الجديد. لم تُخبرني هي بذلك قطّ، لكنّني أعلم ذلك علم اليقين. أنا واثقةٌ بذلك».

أومأتُ برأسي.

«ذات مرّة، قبل أن تسوء الأمور بزمنٍ طويل، كنت وماما نتناول العشاء، فقط نحن الاثنتَين. وبدأت تتكلّم عن أبي. ثم تكلّمنا عن سبب زواجهما. عفواً أثرنا الموضوع. حسناً، أظنّ أنّني أنا من أثارته، لكنّني لا أعرف السبب حقًّا. لذا سألتها فحسب لماذا؟ ولمّا سألتها وضعت ماما عُودَيْ طعامها جانباً، ونظرت إليّ، وقالت «لقد رَثَيتُ لحاله». ذلك ما قالته لي. رَثَت لحاله. عظُم عليّ ذلك وهالني. ثم عدنا إلى الأكل كأنّ كلّ شيءٍ على جاري العادة، بيد أنّني ما كففتُ عن التفكير في ما قالته لي. ولمّا قمنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ننظّف المائدة، سألتها «ما الذي جعلك ترثين لحاله»؟ أجابتني من فورها «رثيتُ لكلّ شأنٍ يخصّه».

سكتت كوجيما مرّةً أخرى.

«حملني ذلك على التفكير في معنى الرثاء لحال شخص ما. وحسبت أنّني عرفت معنى ذلك، لكن ربّما لم أعرف، أتعرف أنت»؟

قلت «أنا أيضاً لا أعرف».

«تغيّرت ماما تماماً بعد زواجها الثاني. فجأة أصبحنا ثريّتَين، وما كان ذلك بجهود ماما، فقد تزوّجت رجلاً ذا مالٍ وظنّت أنّ ذلك هو أفضل الأشياء. وطفقت تتصرّف كأنّ كلّ ما حدث حتى ذلك الحين إنّما يخصّ حياةً أخرى. وإذا أتيتُ على ذكر أبي ساء مزاجها. لست أدري . . لكأنّها نسيت كلّ ما حدث، وبالغت في تناسيه عمداً، لتصل إلى مبتغاها. أبي ما زال على قيد الحياة، وأنا كذلك، لكنّها تتصرّف كأنّ ذلك كلّه كان في الماضي . . أحسب أنّ حال ماما ضعيفٌ في البيت، وهي عالقةٌ معي إلى الأبد، ولعلّها لذلك لا تريد إثارة المشكلات، وهذا أفهمه لكنّ هذا الرجل الجديد بغيض. لا أقول ذلك فقط لأنّني أكرهه، وإن كنت أكرهه. وجهه فظٌّ جدًا. حقًّا. يدّعي أنّه لا يفهم شيئاً. هذه هي حياتي الآن»

استأنفت الحديث دون انتظار تعليقي.

«أمضي شَظراً من العطلة في زيارة أبي في بيته. منذ مدّة، أبلغتُ ماما بهذا ولا أحسب أنّها سرّت به، إلاّ أنّها ما زالت تسمح لي بالذهاب. وقد أسعدني ذلك غاية السعادة. أبي يعمل في منتجعٍ صحّيٍّ الآن، عند جماعةٍ من الدلاّكين. هو ليس دلاّكاً، لكنّه ينقل الدلاّكين بالسيّارة إلى الفنادق ويتابع رواتبهم وكلّ ما يتعلّق بهم. عندما وصلت إلى المحطّة جاء أبي لاستقبالي. لم أره منذ زمنٍ طويلٍ حتى إنّنا لم نعرف ما نقول، لكنّ الأمر لم يطل حتى عادت الأمور إلى طبيعتها».

سألتها «هل أمضيتِ وقتاً طيّباً»؟

«حينما يكون أبي في العمل كنت أنتظره في البيت أو أخرج للمشي. وعندما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعود نشاهد التلفاز ونأكل معاً. لديه غرفةٌ صغيرةٌ بها تلفازٌ صغيرٌ أسود. بعد العشاء، كنّا نقصد المسبح القائم عند ناصية الشارع للاستحمام. عندما علم بقدومي لزيارته طلب من شخصٍ في العمل أن يُعيره فراشاً وأشياء أخرى. كان يتعيّن عليه الذهاب إلى العمل كلّما رنّ الهاتف، لذلك فصل قابس الهاتف مدّة يومَين، فقط من أجلي. ذهبنا إلى المتجر وإلى مكتبةٍ وكذلك إلى متاجر أخرى ونظرنا إلى كلّ شيء. الأثاث والإلكترونيّات ونحو ذلك. ارتدى أبي ثياب العمل نفسها كلّ يوم. كان حذاؤه بالياً جدًّا. لم أقدر على الكفّ عن التفكير في حاله، لكنّه كان يبتسم كأنّه سعيدٌ جدًّا. وحين تمشّينا وتكلّمنا أمسكتُ عن التفكير في الأمر. ثم في متجر بيع الحيوانات الأليفة، ونحن ننظر إلى الجراء والقطط، تحدّث أبي عن أسماك اللّثش والشّبّوط التي كنّا نربّيها. أعتقد أنّه تعجّب من الأمر، وما كاد يصدّق أنّني أتذكّر كلّ شيء. ثم قال لِمَ لا نقصد مكاناً نجلس فيه قليلاً؟ وقلت فلنذهب إلى البيت، لكنّه قال لا بأس، لا بأس. لذا ذهبنا إلى مقهى. قال إنّه يمكنني أن آكل كعكاً وأشرب صودا قدر ما شئت. وقال فلنحتفل! ابتسم تبسّماً عريضاً، فقلت حسناً، وأكلت قطعتَي كعكٍ لم تروقاني. كعكةً صغيرةً وأخرى كعكة جبن»

هبّ نسيمٌ على درج النجاة من الحريق. ما كان هناك شيءٌ في الأفق أمامنا لتذروه الريح، فقد خلت السماء إلاّ من غيومٍ أخيرةٍ في البعيد.

قالت لي كوجيما «مهلاً، هل تعتقد أنّ ثمّة إلٰهاً»؟

كانت قد صمتت دقائق قبل أن تهمس بهذا السؤال

سألتها «إلٰه؟ أيّ صنفٍ من الآلهة»؟

«الصنف القدير. إلٰهٌ يعرف كلّ شيء. إلٰهٌ يعرف كلّ شيءٍ عن كلّ شيء. ذاك الذي يستطيع أن يرى خلال كلّ شيء، يرى أكاذيبنا، ويفهمنا حقًّا».

سألتها محوّلاً إليها السؤال «وأنت؟ أتعتقدين أنّ ثمّة إلٰهاً كهذا»؟

لم تنظر إليّ.

قالت «أعني أنّه لا يلزم وجود إلٰه، لكن إذا لم يوجد إلٰهٌ فهناك أشياء كثيرةٌ لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معنى لها. مثل المال. لقد بذل أبي قصارى جهده في العمل، ولم يكن ذلك لأجل نفسه. عمل لأجل عائلته. بيد أنّه لم يكن يفلح مهما بذل من جهد. انتهى به الأمر إلى العيش وحيداً، ولم يكن يبتغي ثراءً أو شيئاً منه، لكنّه بلغ من الفقر مبلغاً شديداً فلم يقدر حتى على شراء حذاءٍ جديدٍ لنفسه، في حين واصلتْ وماما العيش من دونه في رفاهيّة. وإنّني لأعجب كيف حدث ما حدث؟ إنّه شيءٌ غبيٌ جدًا أعجز عن فهمه. عليّ أن أؤمن بأنّ ثمّة إلهاً ما يرى كلّ ما يحدث ويدرك مغزى كلّ شيءٍ مررنا به عندما تبلغ الأشياء منتهاها».

لم أعرف بم أجيبها.

«عندما تبلغ الأشياء منتهاها؟ أتعنين ونحن أحياء أم بعد مماتنا»؟

أزاحت كوجيما خصلة الشعر عن وجهها وأجابتني ببطء، مُشدِّدةً كلّ كلمة.

«أمورٌ سنفهمها ونحن أحياء وأمورٌ سندركها بعد مماتنا. إنّ هذه الأمور لن يعود لها أهمّيّةٌ بعد الموت. ما يهمّ هو أن يكون للآلام والأحزان معنًى».

ما كادت تتكلّم حتى لاذت بالصمت، وحذوتُ حذوها، وركنتُ إلى الصمت. نفضتُ قميصي الراشح بالعرق على ظهري ليحظى جلدي بشيءٍ من النسيم.

رفعت كوجيما ذقنها وأمسكت بالدرابزين لتنهض. والآن نظرت إليّ.

«لماذا يفعلون ذلك في اعتقادك؟ لماذا يعاملوننا على هذه الشاكلة في اعتقادك»؟

لم أستطع النظر إليها.

خفق صدري بقوّة. شعرت بنبضي يتسارع. ابتلعت ريقي .

قالت «أتعلم ما أعتقد؟ إنّهم حتى لا يفكّرون. بتاتاً. إنّهم يفعلون ما رأوا الآخرين يفعلونه، إنّهم يتّبعونهم بعماء. لا يفقهون معنى ما يفعلون، ولا سبب إقدامهم على فعله. ولستُ أنا وأنت إلاّ متنفّساً لهم».

تنهّدت كوجيما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«لكنَّ الأمر لا يخلو من معنى. عندما يصل كلّ شيء إلى منتهاه سنبلغ مكاناً أو شيئاً لن نكون قادرين على بلوغه من دون المرور بكلّ ما نمرّ به. أتفهم مقصدي»؟

بدا صوتها واثقاً.

«الأولاد الآخرون، باقي الصفّ، لا يفقهون شيئاً. يجهلون مغزى الأشياء. لا يراعون مشاعر الآخرين، ولا يفكّرون في آلامهم. ما هم إلاّ إمّعة، يفعلون ما يفعله الآخرون. في البداية، غضبت غضباً شديداً. حقًّا. إنّني ما حرصت على أن أبدو مُسخة إلاّ ليكون ذلك هو سبيلي إلى الاقتراب من أبي، حتى لا أنساه. كانت تلك هي علامتي؛ العلامة على أنّني كنت معه. وتلك مسألةٌ لن يفهمها أيّ شخص آخر. علامتي على أنّ أبي كان هناك في مكانٍ ما يرتدي حذاءً عتيقاً، وأنّني كنت معه. قد يكون لاتّساخ المرء، كذلك، مغزى. لكنّ الأولاد الآخرين لن يفهموا ذلك أبداً. أتفهم مقصدي»؟

أومأت برأسي.

قالت «تماماً مثلما إنّهم لن يفهموا عينَيك أبداً. قبل أن أكتب إليك رسالةً أوّل مرّة، قرأت عن العيون الحولاء في كتاب. أردت أن أعرف. مثلاً، هل تؤلم صاحبها؟ كيف يرى العالم؟ ثمّة أشياء كثيرةٌ في العالم لا أفهمها، لكنّني أردت فهمك حقًّا. إنّني أعني ما أقول، وهو قولٌ جِدّ. أوّل مرّةٍ رأيتك عرفت ذلك فحسب. إنّنا متشابهان. وأليقُ بنا أن نصبح صديقَين»

دقيقةً جلسنا صامتَين.

سألتها «ما الذي حملك على هذا الاعتقاد»؟

حاولت أن أبدو على سجيّتي، غير أنّ صوتي كان يأتي أشياء لم أستطع فهمها، فما عاد صوتي. مسحت وجهي بمنديلي.

«لأنّ عينيكِ .. ».

قلتُ قبل أن تنهي كلامها.

«أكانت عينِي هي السبب أم أنّه التّنمُّر»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت «كلاهما. أقصد أنه لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر». بدا وجهها صارماً. «إنك تعاني كثيراً بسبب عينيك. أعرف أنه شيءٌ مؤلم، لكنه أيضاً هو ما ركّبك في ما أصبحت عليه. هذا ما لا شك فيه. ولأنني لن أتخلّى عن علاماتي فإنني أنا أيضاً أعاني كثيراً. ولو لم تكن عندنا علامات لاختلف كلّ شيء. لذلك عرفت أنني سأفهمك أفضل من أيّ شخص آخر وأنك ستفهمني أفضل من أيّ شخص آخر. عرفت ذلك. وما كنت بمخطئة لمّا أرسلتُ إليك المكتوب جئتَ. أنت تفكّر في مشاعر الآخرين. أنت طيّبٌ جدًا. ذلك يجعل للأمر مغزى. ولأننا نتألّم دائماً، نُدرك تمام الإدراك معنى إيذاء شخص آخر. لعلّ الأمر ليس سيّئاً لي بقدر ما هو سيّءٌ لك، إلاّ أنّني أعتقد أنّني أُدرك شعورك، ربّما أكثر من أيّ شخص آخر».

انتقلت كوجيما من الدرابزين إلى السلالم وجلست على الدرج الثالث من بسطة السلّم. دائماً ما كان ذلك الجانب من السلالم مظلماً. اقشعرّ بدني وأنا أنظر إلى كوجيما وهي تخطو في الظلام. من مكاني حيث وقفت تحت شمس الصيف القاسية، حدّقتُ إلى كوجيما وهي جاثمةٌ في الظلال. جلست ووضعت كوعَيها على ركبتَيها، وذقنها بين كفّيها. أخذت ترنو إليّ.

«أحبّ عينَيكِ حقًّا».

قالت ذلك ببطء، وبصوتٍ عالٍ وواضح.

قلت «لم يقل أحدٌ لي ذلك من قبل قطّ. البتّة».

تابعت النظر إليّ.

شعرت براحةٍ كبيرةٍ أربكتني، بيد أنّني قلتُ ما في خاطري. وما كنت متيقّناً ممّا قلت. أصغيتُ إلى ما قلتُ. قطعاً لم يكن ذلك صوتي.

«لا يزعجك أن أكون أوّل من يقوله لك. أليس كذلك»؟

أومأت برأسي غير متيقّنٍ ممّا قالت، ولم أكفّ عن الإيماء. وما زلت أومئ برأسي حتى شعرت بقواي تخور وتنساب من أطراف أصابعي. فكّرت في أنّني بحاجةٍ إلى الجلوس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أعلم أنّ ذلك مؤلمٌ جدًا، لكن علينا المثابرة. عندي علاماتي بسبب حال عائلتي، وأنت على ما أنت عليه بسبب عينيك. لذلك التقينا. وللسبب نفسه أمكننا أن نتحدّث على هذا النحو، وأن نكون معاً على هذا النحو. سيحين الوقت الذي ينجلي فيه كلّ شيءٍ خافٍ. حتى الأولاد الآخرون سيفهمون. سيحين الوقت لذلك، ولا ريب عندي بالأمر، عندما يستقيم كلّ شيء».

وقفت كوجيما وخطت بقدمها اليمنى إلى الأمام. كان وجهها وجسدها ما يزالان في ظلمة السلّم، لكنّ طرف حذائها برز في ضوء الشمس الساطع. هبطت الدرجات قادمةً نحوي. هبّ النسيم وبدأ كلّ شيءٍ في الانسياب. شعرها الكثيف طفا في الهواء وارتفع مثل منديلٍ منسوجٍ من أنعم مادّةٍ يمكن تصوُّرها.

تنبّهتُ إلى أنّها قد وقفت إلى جانبي تنظر إلى عيني اليسرى، وكانت قريبةً جدًا. بادلتها النظر. خلعت نظّارتي لأقرّب عيني أكثر. فَطِنتُ إلى أنّ بؤبؤَيها السوداوَين قد خالطهما نَسَقٌ وافرٌ من درجات اللون البنّيّ. وفي أغمقها، لمحتُ نقطة ضوءٍ مرتعشة، وصغيرةً كوخز دبُّوس.

مدّةً وقفنا هناك، دون قول شيء، وراح كلٌّ منّا ينظر إلى الآخر. ثم، متحيّرةً، أمسكتْ كوجيما بيدي اليمنى بكلتا يدَيها وربّتت أصابعي بأطراف أصابعها، وفردت أصابعي لتعاين راحتي، قبل أن تضغط على يدي لتُحيلها مسطّحةً كفطيرة. كانت أصابعها رطبةً من العرق، وبالمثل كان كفّاها. كانت يداها أبرد من يديّ وصغيرتَين جدًا. أمسكت بيدي وضغطت يدها. تلك كانت أوّل مرّةٍ ألمس فيها كوجيما.

خَفَتَ صوت زيز الحصاد وغرق في الأفق، فتنبّهتُ إلى أنّني ما كدت أسمعه إلاّ قليلاً. فارقت الحرارة الشديدة جلدي. نظرة كوجيما لم تشبه أيّ نظرةٍ رأيتها من قبل على وجهها الذي كان دانياً جدًا من وجهي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الرابع

باقتراب أوّل يومٍ في أيّام أيلول، وقد كانت المدرسة على وشك البدء من جديد؛ شعرتُ بشيءٍ يحدث في جسدي. كان كلُّ ما أراه وأفكّر فيه لا يعود حقيقيًا. وكلّما استلقيتُ على السرير شعرتُ بلسعٍ في حلقي لكأنّه كان يُطعَن بحربة. ثِقْلٌ ضغط صدري، فأخذتْ تعاودني حُمّى حيناً بعد آخر. كان يمكنني التذرُّع بهذه الحال لكي أبدأ الدراسة في وقتٍ تالٍ، لكنّ غيابي كان سيسترعي انتباه نينوميا ورفاقه في أيّام قلائل، وهو أمرٌ حرصت على تجنّبه، ذلك أنّ آخر ما أردته هو إثارة فضولهم.

بينما كنت جالساً عند الباب ألبس حذائي استعداداً للخروج سألتني أمّي عمّا إذا كنت أعاني نزلة برد.

وقالت «حاول الذهاب، وإذا شعرت بأنّك لست على ما يرام فيمكنك العودة إلى البيت».

لم يُبدِ الصيف أيّة إشارةٍ إلى نهايته.

كأنّ هذا الصيف سيستمرّ طوال العام إلى أن يحلّ محلّه صيفٌ آخر في نهاية الأمر. وكان النهار، الذي لا يلين، يحتفظ برطوبة الصيف كلّها وبحرارته وبأشعّة شمسه القاسية وهي في ذروتها.

لم يتغيّر شيءٌ في المدرسة. زُمرةُ زملاء الصفّ المشاغبين نفسها بعاداتها القديمة نفسها، وكذا الزّيّ المدرسيّ، ولون البشرة، وتكاسل التلاميذ في جلوسهم على مقاعدهم، ونبرة الصوت في مناقشة الموضوعات نفسها؛ كالنزَه التي قاموا بها، أو المغنّين المشهورين الذين رأوهم. اختلطت أصواتهم لتصبح صوتاً واحداً؛ هو صوت الصفّ.

بين الحصص، حينما كنت أهوّي نفسي بملفٍّ من ملفّاتي بصقت فتاةٌ عليّ. وقالت أخرى «حذارِ أيّها الأحول. عجباً، أما زلت حيًّا»؟ وضَحِكَتْ. طارت نحوي علبة عصيرٍ في الهواء. إنّها الأفعال القديمة نفسها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحجّرت كوجيما في مقعدها.

مهما أطلت النظر إلى ذلك الرأس كثيف الشعر، فلم يكن ليتحرّك أبداً. لا أحد كلّم كوجيما ولا كلّمت كوجيما أحداً. وأنا أنظر إلى ظهرها تخيّلتني أمشي نحوها وأقول على عادة الناس في الكلام «مرحباً كوجيما، كيف أمضيت الأسبوع»؟ ستنظر إليّ رافعة حاجبيها، ثم قد تضحك. كلاّ، محالٌ حدوث هذا. أستطيع أن أرى خُضلَة الشعر على شفتها الآن، والبقع على ياقة قميصها. تلك كانت علاماتها. كانت ذات أهمّيّة. ولم يكن ثمّة خطأ فيها. لو أنّني أوضحتُ ذلك لتلاميذ الصفّ، تُرى ماذا سيحدث؟

«مرحباً بالجميع. أتعرفون تلك المثالب التي طالما سخرتم من كوجيما بسببها؟ أتعرفونها؟ إنّها ذات منفعة، فهي سبيلها إلى تذكُّر الوقت الذي عاشته مع أبيها. جميعكم لديه ما يجلُّه ويعظّمه أكثر من أيّ شيءٍ آخر، أليس كذلك؟ صُوَر، أو ربّما رسائل. وما هذه الصور والرسائل في الحقيقة إلاّ أوراقٌ تُودِعها ذكرياتنا وعواطفنا فنمنحها مغزًى، وذلك ما يحيلها إلى أكثر من ورق. وبين تلك الصور والرسائل كلّها، أكاد أجزم أنّ واحدةً أو اثنتَين فقط تتميّز من البقيّة، ويُعنَى بها المرء عنايةً لا يُدركها أحدٌ سواه. وذلك ما جعل كوجيما تبدو على هذه الحال. أعلم أنّه قد يبدو أمراً غريباً، ولكن، إذا كانت الصور والرسائل تحمل هذا القدر من المعاني، وإذا أمكنكم الإفصاح عن أهمّيّتها لكم، فهل من الغريب حقًّا أن تعني قذارة المرء له ما تعنيه الصور والرسائل لكم؟ كلٌّ يرى العالم بعينه».

في أوّل الأمر سيتعجّبون، أو في الأقلّ سيدّعون التعَجُّب، ثم إذا استفضتُ في الشرح فسيزفرون مُبدِين فهمهم، إذ يعلمون أنّ ذلك صحيح. ثم ستلتفت كوجيما وتبتسم خُزّةً وسعيدة، وسيطيب لي ولها الحديث في كلّ ما فعلناه وحدنا في الصيف.

أحدهم اصطدم بطاولتي وأيقظني من أوهامي. كان الجرس يرنّ. حان وقت الدرس. دخل المعلّم مرتدياً قميصاً، بِيَاقة، برتقاليّ اللون، وقد سمّرت الشمس ذراعَيه ووجهه.

وضعت يديّ داخل الموضع البارد في طاولتي واستمعت بلا اهتمامٍ إلى ما كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقوله المعلّم. أحياناً كان يقول شيئاً فيضحك التلاميذ. وكنت أنظر فحسب، لا أكاد أدرك شيئاً، إلاّ أنّني لاحظتُ أنّ كوجيما كانت هي الوحيدة التي جلست ساكنة. لم تحرّك عضلةً واحدة. تحديقي إليها أثار فيّ مشاعر مبهمة. طاقتي كانت صفراً. على مَن أكذب! بل كانت أقلّ من الصفر. لم أقدر على الإتيان بأيٍّ من تلك الأفعال التي تخيّلتها. ولم يكن باستطاعتي فعل شيءٍ لتحرير كوجيما. أكانت على بُعد عشرة أقدام منّي؟ لم أستطع حتى مناداتها باسمها.

في الأسبوع الأخير من أيلول، وصلتني هذه الرسالة من كوجيما. نبرة الكتابة لم تشبه أيّ رسالةٍ أخرى أرسلتها إليّ من قبل.

تحيّات وسلام. أتصدّق أنّ الطقس ما زال حارًّا إلى هذا الحدّ!

أنا مسرورةٌ بجلوسي قرب النافذة الآن. أردت أن أقول لك ذلك. وإذاً، فهذه هي أوّل مرّةٍ أكتب إليك رسالةً منذ حين. أعلم أنّنا نلتقي في المدرسة، لكنّنا كأنّنا لم نتكلّم منذ أمَدٍ بعيد. كيف حالك؟ في البيت وفي المدرسة، أفكّر كثيراً في ذلك اليوم في الصيف لمّا ذهبنا إلى المتحف، وفي ما قلناه ونحن جالسان على الدرج. ماذا عنك؟ أعلم أنّ هذا كلامُ عَرَضيّ، لكنّك لطيفٌ جدًّا. أعتقد هذا، في الأقلّ. عندما أفكّر في الأمر يبدو مؤلماً. لا أستطيع التعبير عنه بأحسن من ذلك. أنا وأنت تحدّثنا في أمورٍ شتّى، وآمل أن نحرص على هذا، تماماً مثلما فعلنا في الربيع. إنّني أودّ حقًّا أن نستأنف الكلام، وأن نتحدّث في أمورٍ أكثر. ماذا عنك؟ لعلّك تفكّر: «ما الذي تبقّى لنتحدّث فيه»؟ لكنّني أقسم أنّنا إذا التقينا مرّةً أخرى فسيكون عندنا كلامٌ كثيرٌ نقوله. ما رأيك أن نلتقي عند درج النجاة من الحريق ونتحدّث أكثر؟

صحيح، أردت أن أخبرك بأنّني أخيراً تعاركت وزوج ماما الجديد (وإن لم يكن هناك ما هو جديدٌ يتعلّق به، كإنسانٍ أو في صلته بنا). حسناً، الحقّ أنّه لم يكن عراكاً. شجارٌ ليس إلاّ. لكنّني، في تلك اللحظة، قلت كلّ ما دار في خَلَدي. وبدت على وجهه تلك النظرة الحمقاء، كأنّه يعرف كلّ شيء. كان يبتسم طوال الوقت. لم أغضب في حياتي غضباً شديداً هكذا قطّ. وفي هذه الأثناء، استمع إليّ دون مقاطعةٍ وهو يبتسم تبشمه الأبكم ذاك، ثم ألقى عليّ إحدى محاضرات حياته وبدا مغروراً جدًّا بها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أكف عن التفكير في أنّ هذا الرجل ربّما لم تُتح له قطّ فرصة التفكير في أيّ شيء مهمّ حقًّا.

يحزنني التفكير في الأمر على ذلك النحو. أعني، ربّما لم يكن خطأه. وقد فكّرتُ في أنّه ربّما يحسُن بي أن أسامحه. وإنّني لأسأل نفسي عمّا إذا كان هو أيضاً ضحيّة. هكذا فكّرت.

أصدقك القول إنّني فكّرتُ أيضاً في أمر الأولاد في المدرسة، فمثلما نحن ضحيّتان قد يكونون هم ضحايا لشيءٍ أكبر منّا جميعاً.

إنّي لأرثي لحالهم عندما يسخرون منّي ويشتمونني أو يلاحقونني في الحمّام. بيد أنّني إن قلت لهم ما أقوله لك لن يفهموني. ومثلما تعلّمتُ ممّا فعلوه بي، أحسب أنّهم أيضاً بحاجةٍ إلى التعلّم، لكن ليس منّي. يجب أن يكون ما يتعلّمونه عاقبةً لأفعالهم. وإلاّ فلن يفهموا أبداً. أحرى بهم أن يتعلّموا عن أنفسهم ممّا يفعلونه بي. وحسبي من ذلك أن تكون حياتي خليقةً بالعيش. على أيّة حال، يمكنني الحديث في أفكاري بلا نهاية، لكنّ هذه الرسالة قد طالت كثيراً. أعتقد أنّني كنت أكتب منذ خمس ساعات. إنّني أودّ الحديث حقًّا. معذرةً على ثرثرتي. أليَقُ بي أن أتوقّف هنا. إلى لقاء.

لم تكتب إليّ كوجيما رسالةً بهذا الطول من قبل. أمضيت عشر دقائق في قراءتها.

حاولت الردّ عليها لكنّني لم أستطع. ذكّرتني بأمورٍ كثيرةٍ قالتها لي آخر مرّةٍ لمّا التقينا. فهمت ما قالت، غير أنّي لم يكن لديّ ما أقاسمها إيّاه. ولكي أتجنّب السطور الفارغة على الورقة، فكّرت في كوجيما وفي نفسي . بعد مدّة، سحبت حافظة القاموس من رفّ كتبي وأخرجت جميع الرسائل التي كتبتها إليّ وقرأتها. كانت كلّها مفعمةً بالحياة، كأنّ كوجيما كانت قربي تعبّر عمّا يجول في ذهنها. وأنا أقرأ ألفيتُني أسأل نفسي كيف بدت رسائلي لها، وأيّ مزاجٍ نقلته إليها؟ وما الذي كتبتُه؟ تذكّرت أنّها كتبت إليّ ذات مرّةٍ تقول إنّ المرء إذا أرسل رسالةً إلى شخصٍ ما فإنّ أمرها يخرج من يده، فلا تعود الرسالة له، وإن كان هو من كتبها.

أعدت رصّ رسائلها في حافظة القاموس، واستلقيت على فراشي، واستغرقتُ في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التحديق إلى السقف. ولكم أردت أن أراها!

استويتُ جالساً، لكنني حملت نفسي على العودة إلى الاستلقاء وأغمضت عينيّ. كلّ ثانية، كان اسمها يخفق في أعصابي ويكبر حتى يملأ دمي. جلست مرّةً أخرى، وسحبت حافظة القاموس وشرعتُ في قراءة تلك الرسائل القديمة من البداية لم أكن على يقينٍ من شعوري نحو الرسالة الطويلة ولا من كيفيّة الردّ عليها. أيقنت من قراءة رسائلها أنّني أودّ أن أراها، لكنّني لعدم يقيني من شعوري، سألتُ نفسي عمّا إذا كان يجدر بي أن أكتب إليها أصلاً. فكّرت في قولها لي إنّها أحبّت عينيّ. أعدت استذكار كلّ ثانيةٍ من تلك الدقيقة في رأسي. لقد أحبّت عينيّ حقًّا. لبثت الذكرى في صدري. كان الألم لطيفاً وسيّئاً في الوقت نفسه. عجزت عن الحركة. لعلّني أردت شيئاً آخر منها، شيئاً أعظم، شيئاً لا يني يتجذّر بداخلي، ولا تستطيع الرسائل وحدها تعزيزه. كانت جذوره تحفر عميقاً. انقلبت على بطني ودسست وجهي في الوسادة وأنا أفكّر بكوجيما في الظلمة المتموّجة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الخامس

في مطلع تشرين الأول، توفيت الأخت الكبرى بالتبني لماما، التي هي بمقام خالتي، وقد ذهبتُ إلى جنازتها، فكانت تلك أول جنازةٍ أحضرها في حياتي.

كانت خالتي هذه، التي لم ألتقِها قطّ، تكبر ماما بسبع سنوات، وكانت بلا زوجٍ وبلا أبناء.

تعذّر مجيء أبي بسبب العمل، لذا انتهى الأمر إلى أن أكون أنا مرافق ماما. لم أكن أعرف شيئاً عن المرأة هذه. قال لي أبي إنّني لست ملزماً بالذهاب، لكنّني شعرت بأنّ ماما ستحزن إذا ذهبت بمفردها. ولمّا قلت لها إنّي سأرافقها نبّهتني إلى بُعد المكان، بيد أنّها، أيضاً، أبدت ارتياحها لمرافقتي إيّاها.

كانت الجنازة حدثاً هادئاً. اجتمع عشراتٌ أو نحو ذلك من الأقارب في قاعة المناسبات في مركز اجتماعيّ. قعدنا القرفصاء وطأطأنا رؤوسنا، وطُيّب المكان بالبَخور، وتلا راهبٌ نصًّا من نصوص السوترا، مختتِماً كلّ فِقْرةٍ بقرع جرس، ومُطَقطِقاً خَرَزات مِسبَحَته. ثم حان دوري لإشعال عود بخور. ومن حينٍ لآخر كنتُ أسمع أناساً يبكون. وقد بقيتُ مُطرِقاً أحدّق إلى ركبتيّ طوال الوقت.

انتهى القُدّاس وأزِف الوداع، فوضع الجميع زهوراً في التابوت. نظرتُ إلى داخله. كانت شفتاها منفرجتَين، وقد سُدَّ أنفها بقطنٍ أبيض. تعذّر وصف وجهها، ولم أعرف ما إذا كان ذلك لأنّها ميّتةٌ أم لأنّ خِلْقَتَها كانت على ذاك النحو. وأنا أرى، أوّل مرّة، جسداً ميّتاً اعتراني ذعرٌ أو لعلّه كان اشمئزازاً، ولكن، لأنّني لم أرغب في الانسحاب، أردت أن أعرف سبب اختلاف هذا الجسد عن الجسد الحيّ، ولم أستطع الإشاحة بوجهي.

حاولت التفكير وقتاً، ولكن كان واضحاً أنّه لم يكن عندي ما أفكّر فيه. وقد أعانني ذلك على تذكُّر أنّني إنّما أودّع امرأةً غريبةً لا تكاد تمتُّ إليّ بصلة، فخفّف ذلك عنّي وأراحني.

بعد إخراج التابوت، قام الأقارب إلى تناول الغداء. لم ترغب ماما في البقاء فعزمنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على العودة إلى البيت، ولم نحضر حرق الجثمان. لم يُبعِد أقارب ماما عيونهم عني، وكلّما بادلتهم النظر كانوا يعرضون عني. ولمّا سلّم بعضهم عليها عزّفتهم بي، وكانوا ذمثين ومهذّبين. لم أسأل عمّن كانوا ولم تكترث ماما لإخباري. رأيت أمّها، أو بالأصح جدّتي بالتبنّي. عرفتُها ما إن لمحتها، لكنّها لم تقل شيئاً لماما بعد الجنازة، ولا لي بطبيعة الحال. خرجنا قبل توزيع الطعام المُفلْب.

في طريق العودة بالقطار، قالت ماما «نحتاج إلى ملح، لننثره قبل الدخول إلى البيت».

«لماذا»؟

«للتطهير».

بصمتٍ جلسنا في القطار المتمايل. بان التعب على ماما. أمّا بخلاف ذلك، وبخلاف كوننا في طريقنا إلى البيت عائدَين من جنازة، فقد كان أصيلاً رائعاً. وقبل ذلك، لمّا كنّا ننتظر القطار، ذهب فكري إلى الوجه الذي رأيته في التابوت، وتخيّلت جلده وتجاعيده، لكنّني، عندما انطلق القطار، نسيتُ كلّ شيء. ذكّرني القطار المتذبذب بكوجيما. كان نور الشمس المتدفّق إلى الداخل والطبيعة التي مررنا بها مختلفَين، وسرعان ما حملتني الذكرى إلى ذلك القطار المنطلق في الصيف، فتذكّرتُ كلّ كلمةٍ قالتها كوجيما عندما كانت جالسةً على المقعد إلى جانبي.

سألتني ماما بغتةً «كان ذلك غريباً، أليس كذلك»؟

صوتُها أعادني إلى الواقع. انتظرتها لتكمل قولها، لكنّها لم تقل شيئاً آخر.

وفي آخر الأمر، سألتُها «ما الذي كان غريباً»؟

قالت «لستُ أدري. أحسب أنّه اليوم كلُّه».

«أكان غريباً»؟

قالت «جدًّا. لقد استنفد قواي».

صمتت ماما بعد ذلك. أغمضت عينيها ولم تتحرّك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترجّلنا في محطّتنا، وفي طريقنا إلى البيت مررنا بمتجر. وبينما كنّا نجول في المتجر نظر الزبائن الآخرون إلى ماما وهي في ثوب الحداد وإليّ وأنا في ثوبي الرسميّ، ولم تعرهم ماما انتباهاً وانصرفت إلى ملء سلّةٍ بالسبانخ والبصل وشرائح الخنزير. سألتها عمّا إذا كان لائقاً دخولنا المتجر قبل نثر الملح، فقالت إنّ المتجر كبيرٌ ووجودنا على هذه الشاكلة لن يُلحِق به شؤماً. حملتُ كيسَي البقالة. ولمّا عدنا إلى بناية شقّتنا وكنّا ننتظر المصعد الكهربائيّ شكرتني ماما على مرافقتي لها، من دون أن تنظر إليّ. قلت لها إنّني ستسرّني مرافقتها في المرّة القادمة. تنهّدت وعانقتني. بدت مرتبكة لكنّها ابتسمت لأجلي.

أنهكني مشوار الذهاب إلى الجنازة والرجوع منها، وكنت في غاية التعب، فمكثتُ في البيت ولم أذهب إلى المدرسة ثلاثة أيّام. فكّرت كم سيكون جميلاً لو أنّي أستطيع البقاء في البيت دوماً، لكنّني كنت أعرف أن لا سبيل إلى ذلك.

بعد الجنازة بأربعة أيّامٍ، خرجت من البيت باكراً كالعادة وقطعت الطريق المحفوف بالأشجار متّجهاً إلى المدرسة. استحال لون التربة الممتدّة بين الأشجار إلى بُنّيّ مشبّعٍ بالرطوبة. تنشّقتُ بعمقٍ لكنّ رائحة المطر كانت قد تلاشت. ومع ذلك، كانت التربة رطبةً وتكاد تبتلع خطواتي، منذرةً بغوص حذائي في الأرض.

لا بدّ أنّها كانت قد أمطرت في وقتٍ ما ليلاً. لم يكن هناك أحدٌ على الطريق. ومن بعيد، سمعت صوت محرّكٍ يدور. مشيت بتثاقلٍ صوب المدرسة كأنّي أجرُّ الشارع بأسره ورائي.

لم يكن ثمّة أحدٌ واقفاً عند المدخل، وما جرت العادة بأن يكون أحدٌ هناك في هذا الوقت المبكر. وقد تُرِكت البوّابة مفتوحةً قليلاً. قطعتُ فناء المدرسة متّجهاً إلى المبنى القائم في الخلف. ليس من أحدٍ سواي. وفي منتصف الطريق، أدرتُ نظري إلى المبنى الذي مررت به. كان منتصباً هناك مثل هيكلٍ عظميٍّ بالٍ لمخلوقٍ ضخم. وكانت المنصّة التي في منتصف الساحة معوجّةً ومقشّرة الطلاء كأنّها جزءٌ رثٌّ ومبتورٌ من الهيكل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دخلتُ الصفّ وجلستُ إلى طاولتي. ولمّا قرّبتها إليّ بدت حركتها مختلفة. وضعت يدي بداخلها فشعرت بأنّي أمسّ ما يشبه قطعة قماش ممزّقة. جثوت لأستبين الأمر فأدركت أنّ الطاولة كانت كلّها محشوّةً بقمامة. سحبت قطعة القماش فسقطت حزمةٌ ثقيلةٌ على الأرض وانفكّت من تلقاء نفسها .

كانت هناك كِسَر خبزٍ بائتٍ بدت كورنيقاتٍ غُمِرَت في نشاء الذرة، وأشياء أخرى كأنّها يرقات . . لكن تبيّن أنّها كانت حبّات يوسفيّ صغيرةً مجفّفةً قد علقت بثيابٍ رياضيّةٍ مكدّسةٍ ونعالٍ مدرسيّةٍ عرفتُ أنّها كانت لي، وكان بينها مفاتيح، ودميةٌ محشوّةٌ على شكل حيوانٍ غريب، وقناع وجه، وكومة منشورات، وبطاطا نابتة براعمها، وكتب مكتبة، وفرشاة تنظيف، وممحاة السبّورة، وعلبة حليب فراولة لا بدّ أنّها كانت ممتلئةً إلى منتصفها لأنّ الحليب كان يقطر من القصبة. كانت الرائحة كريهةً جدًا. أمَلتُ الطاولة ونظرت بداخلها. كان هناك المزيد. كيسٌ بلاستيكيٌّ أسود تساقطت منه فوطٌ صحّيّةٌ وقطنيّةٌ مستعملة.

وقفت هناك أنظر إلى ما خرج من طاولتي. ثم جلست على مقعدي وحدّقت إلى الفوضى التي تراكمت حول قدميّ. لعلّكم فكّرتم في شعوري وأنا جالسٌ هناك، فمسند الظهر وأجزاؤه المعدنيّة كانت تحفر جلدي. ولم أجد سبيلاً مريحاً للجلوس.

لا أعلم كم من الوقت مضى وأنا أحدّق ببلاهةٍ إلى القمامة من حولي، لكنّني في لحظةٍ سمعت أحدهم قادماً في الرواق. لسببٍ ما، خمّنتُ أنّه كان تلك الفتاة التي رأيتها في آخر يومٍ قبل بداية الصيف فحبست أنفاسي. وكلّما اقتربت الخطوات تسارع نبضي، وتذكّرت شكل ثوبها المدرسيّ وشعرها المرسل والاشمئزاز الذي بدا على وجه موموز. اعتراني التوتّر. بيد أنّها كانت فتاةً أخرى. نظرتُ إلى طاولتي وأشاحت بوجهها في الحال، وضعت حقيبتها وخرجت من الصفّ. كثيراً ما تلا اسم هذه الفتاة اسمي في قائمة الحضور والغياب. لم أتحرّك بعد خروجها. وفق الساعة أعلى السبّورة بقيت عشر دقائق على مجيء الجميع. نهضتُ وجلبت كيساً بلاستيكيًا من خزانة مستلزمات التنظيف قرب الباب والتقطت كلّ الأشياء من حوالى طاولتي.

جاء رفاق نينوميا مع حشد الأولاد الآخرين. أحدهم ضرب رأسي بملفّه. ضحكوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هازئين وسألوني عن سبب رائحتي الكريهة جدًا.

سأل أحدهم وكان لا يني يضحك «أيُها الأحول، ما الذي حلّ بطاولتك»؟ جلست ساكناً ولم أجِر جواباً.

«سمعنا عن موت أحدٍ من أهلك»، كان ذلك هو الفتى الذي ضربني بملفّه. «تقبّل .. لمرّةٍ أخرى ما كانت تلك الكلمة»؟ سأل تلميذاً آخر كان إلى جواره.

«إنّها تأبين».

«كلاّ، رثاء».

كانوا يتسلّون ويمرحون. الكلمة التي أشكلت عليهم كانت «تعازي»، إلاّ أنّه لم يكن أنا مَن سيقولها.

نينوميا، الذي شُغِل بإضحاك فتياتٍ على بعد طاولات، أقبل نحونا. ولمّا دنا منّي غطّى أنفه بيده وتأوّه كأنّما يوشك على التقيُؤ.

«ما هذا؟ أيّة رائحةٍ نتنةٍ تلك»؟ لوّح بيده أمام وجهه. «أتبغي قتلنا يا هذا؟ اغتسل قبل مجيئك إلى الصفّ. ألا تستحمّ أبداً»؟

خفّ الجميع لذلك وطربوا.

أضاف أحدهم قائلاً «وكنتُ أحسب أنّ تلك الفتاة المدعوّة بكوجيما هي القذرة».

تجمّدتُ في مكاني لذكر كوجيما، وشعرت كأنّي أحضن كرة ثلج.

قال نينوميا عاقداً ذراعَيه «حسبنا واحدٌ في الصفّ. أمّا اثنان فسيكونان وبالاً على الحياة».

نظر إليّ كأنّه يروزني.

«أنت مُخيَّرٌ بين أمرَين. تتعرّى وتغتسل في النافورة حالاً وإلاّ لعبنا لعبةً صغيرةً بعد المدرسة. القرار بيدك».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جلست على مقعدي ولم أقل شيئاً.

«عدم الجواب يعني أنّك اخترت اللعبة».

لم أجِر جواباً.

«فلتكن هي اللعبة إذاً. كم أتشوّف إليها! قرأتُ عنها في كتابٍ أثناء غيابك عن المدرسة. ستعجبك».

ضحك. وكذلك فعل الجميع.

قال «لا تنصرف. إذا فعلت فسينتهي أمرك».

حدّقت بصمتٍ إلى سطح طاولتي.

لم تلبث بضع كلماتٍ بيضاء تملأ السبُّورة حتى اختفت. ما نفع ذهابي إلى المدرسة إذا عنى ذلك مقاساة هذا كلّه؟ مهما أمعنت في السؤال فلن ألقى جواباً.

إلاّ أنّني إذا امتنعت عن الذهاب إلى المدرسة، إذا كان باستطاعتي الامتناع حقًّا، فلا بدّ أن أعلّل ذلك لماما.

توهّمتُ أنّي أدعو ماما إلى الجلوس لأبلغها بذلك، لكنّني عجزت عن متابعة توهُّمي. لم أشأ أن تعرف بما أعانيه من تنمُّر. وقطعاً لم أشأ أن يعلم أبي بذلك، مهما حصل. وإن علم، فليس بمقدوري تخيُّل ما يمكن أن يحدث. أعلم أنّني إذا أنبأتهما بحقيقة الأمر فلن يريدا أن يكون لهما شأنٌ بي. وإذا عرفا أنّني صريع التّنمُّر فلن أكون، في نظرهما، إلاّ شخصاً قد انتهى أمره .

فكّرت في الانقطاع عن المدرسة، إلاّ أنّني جهلتُ كيفيّة تدبير الأمر. على الجميع إكمال الدراسة الإعداديّة، فذاك هو القانون. وهل كان الانقطاع جائزاً؟ حتى إن أذنت لي ماما بذلك، فما الذي أنا فاعله بحياتي؟ لم يكن لهذا الرأي أن ينتهي بي إلى خير. إذا لم أكمل الدراسة الإعداديّة فلن يُتاح لي الانتقال إلى المدرسة الثانويّة، وأنّى لي أن أحتمل عاماً آخر من العذاب! لو أمكنني العثور على عملٍ لتدبّرت أمري في ما بقي لي من عقودٍ أعيشها. ولكن مَن تُراه سيُشغّلني عنده؟ إنّي كلّما تفكّرتُ في هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السؤال أسقط في يدي. هَب أني انقطعت عن المدرسة زمناً، ثم تدبّرت أمري وأتممت الدراسة الثانويّة، بل الكلّيّة أيضاً. قد أسلم من الشرّ، مهما كان جنسه، ولكن لا ضمان لي بأنّي سأكون آمناً على نفسي دوماً. وما دمت أبدو بمظهري هذا، بهذه العين، فما أنا إلاّ هدفٌ مقصودٌ على الدوام. وماذا لو كانوا بانتظاري يتربّصون بي أينما ذهبت؟ قُدّرَ شنيعٌ يكمن لي في الطريق متحيّناً مروري.

أوشك اليوم على الانتهاء، ثم ولّى وأدبر. اضطربت وخفتُ ولم أقدر على الجلوس ساكناً.

انتظرت إلى حين خروج الجميع. ثم تحيّنتُ غفلة نينوميا ورفاقه وجذبت حقيبتي وشققت دربي بين الأجساد الخارجة من الصفّ. تقبّض بطني وتشنّج، فسألت نفسي عمّا إذا كان سبب ذلك هو الطعام الذي تناولته في الغداء، لكنّني لم أذكر أنّني تغدّيت. مشيت بين أرتال التلاميذ المتّجهة إلى النادي شاقًّا طريقي في غمرة القيل والقال. كان الهروب غاية همّي، ولم يسعفني الوقت للتفكير في ما أنا صانعٌ بعد ذلك، دع عنك في الغد.

انعطفتُ وأنا منكّس الرأس فكدتُ أصطدم بكوجيما.

جفلت وتراجعت، ثم أدركتُ أنّني كنت أنا. أطبقتُ شفتيها وتبسّمت لي بعينَيها فقط. وكنتُ أتنفّس بمشقّةٍ حتى سَمِعتُنِي أزفر زفيراً، وشعرت بحرارةٍ رطبةٍ حول عينيّ.

حملت كوجيما سلّة مهملات منبعجةً تُشبه برميل زيتٍ صغير. وكثيراً ما كانت هي من يخرج سلّة المهملات. حكّت بطنها بكفّها الأخرى .

«كوجيما».

تلفّظت باسمها. بصوتٍ مرتفعٍ وبيّن.

كانت تلك أوّل مرّةٍ أنطق باسمها في المدرسة.

التلاميذ السائرون في الرواق لم يلحظوا ذلك. وضعت كوجيما سلّة المهملات على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأرض وتردّدت في تركها. أدامت النظر إليّ وهي تُدرك أنّ التلاميذ حولنا. تنفّست نَفساً طويلاً وناديت باسمها مرّةً أخرى. كوجيما. وناديت مرّةً أخرى. عبست كأنّما تسأل ما الخطب، لكنّها بين خفض بصرها وتلفّتها لترى من القادم نظرت في عينيّ.

لحست شفتيّ وخرجت الكلمات بمشقّةٍ كأنّي أنتزعها انتزاعاً وقلت «معذرةً، لم أستطع الردّ على رسائلك. فكّرت كثيراً و . . »

إلاّ أنّ عينَي كوجيما قفزتا إلى شيءٍ خلفي. ألمّ حادٌ انغرز في ساقي. وأنا أسقط جهدت لأنحرف عن كوجيما وأنعطف عنها، فوقعت على كتفي وارتطمت عظام وجنتِي بالأرض.

وقف نينوميا بالقرب من الصبيّ الذي ركلني. بدا ممتعضاً.

«إلى أين تحسب أنّك ذاهب»؟

اقتادوني عابرين بي ساحة المدرسة إلى الموضع القائم أمام القاعة الرياضيّة.

جرت العادة بأن يغصّ هذا الموضع بالفِرَق التي تتمرّن على تمارين الإحماء والتلويح بمضاربها، أو بالتلاميذ الذين تحتاج نواديهم إلى استعمال القاعة الرياضيّة، إلاّ أنّه لم يكن هناك أحد. من مكبّرات الصوت صدحت موسيقى العودة إلى البيت مثل هدهدة، ومن بعيدٍ بلغت مسمعي أصوات الفتيات وهنّ يتصايحنَ ويمرحنَ ويتشاتمن.

عجبت أين غاب الجميع، لكنّني فجأةً تذكّرت. مرّةً في الشهر تُوقَف جميع أنشطة نوادي التلاميذ والأنشطة التي تُمارَس خارج الصفوف كي يعقد المعلّمون اجتماعهم، فيخرج التلاميذ جميعاً من المدرسة فور فراغهم من الدروس.

كان الباب الأماميّ المفضي إلى القاعة الرياضيّة مغلقاً. لا عجب. انعطفنا إلى يسار المبنى ودرنا حول واجهته المائلة ووقفنا عند بابٍ خفيضٍ عُلّم بعلامة مخرج طوارئ، وقد بدا أنّه من ألمنيوم رقيق . أداروا المقبض ودخلنا بأحذيتنا، وكانوا يدفعونني من كتفَي سترتي. ومن عند الباب صعدنا خطواتٍ معدودةً إلى جناح المسرح في الناحية الخلفيّة من القاعة حيث تدلّت الستائر من السقف. فاحت رائحة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغبار من النسيج القديم. ولمّا توقّفتُ دفعوني من الخلف دفعاً شديداً حتى تعثّرت وكدت أقع. انزلقت حقيبتي من كتفي وسقط الكتاب الذي كان في الجيب الأمامي المفتوح عند قدمي، فسارعت إلى إعادته إلى الحقيبة.

كنتُ قد زرت القاعة الرياضيّة مرّاتٍ لا حصر لها، لحضور الاجتماعات وحصّة الرياضة، إلاّ أنّها بدت الآن مكاناً لم أألفه من قبل. علا السقف غلوًّا شديداً، أعلى ممّا كنت أعرف من قبل، وبدا المكان كهفاً.

اشتدّ نشاط الصبية، فما كادوا يدخلون حتى بدأوا يتقافزون في الأرجاء. هتف أحدهم فزجره نينوميا. ثم تبدّل وقع خطاهم وتردّد صدى أصواتهم الهادئة وضحكهم المخنوق. اتّخذ الصوت ثقلاً غريباً، كأنّما صار أضخم. وكلّما اصطدم بالجدران ارتدّ.

سمعنا صوتاً آتياً من مخرج الطوارئ. صمت الجميع ونظروا، ولم يكن هذا إلاّ موموز.

من مكاني، حيث أقف، رأيته يدخل ويغلق الباب، وبعد قليلٍ سمعت المعدن يصلصل وهو يوصده.

لمّا رأى نينوميا موموز بشّ وجهه وتبسّم ولوّح له مسلّماً. لم يُجِب موموز وأقبل نحونا واضعاً يدَيه في جيبَي سترته. ظننتُ أنّني سمعته يصفّر أو لعلّني توهّمت ذلك. كأنّه لمحني، أو ربّما مرّةً أخرى، كان عقلي ينسج حيلاً وأوهاماً. وجودي في مدى بصر موموز لم يكن ليثبت أنّه رآني. كانت عيناه مفتوحتَين لكنّهما خاليتان من إثارةٍ أو عاطفة. بوجوده هو ونينوميا، كانوا جميعاً ستّة صبية.

مشى نينوميا إلى المدخل الأماميّ حيث كانت الستائر الثقيلة مُسدلةً لئلاّ يُرى ما بالداخل. مدّ يده وراء كومة حُصُرٍ مفتّشاً عن شيءٍ ما. ولمّا عثر على شيءٍ يشبه القناع أقبل علينا به في يده.

قال لي وهو يحمل ما يشبه كرةً فارغةً من الهواء بها شقّ «البس هذه. سنلعب كرة قدم أو شيئاً من ذلك».

كانت كرةً طائرة. وجدتني أهزّ رأسي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وطفق يُدوِّر الكرة المنكمشة بيديه، ثم قال «الحقّ أنّي أردت كرة قدمٍ حقيقيّة، لكنّ ذلك غير موجود. واضح أنّ من غير اللائق أن نلعب كرة قدمٍ هنا. أليس كذلك»؟

حشرج نينوميا.

«كرة القدم أغلى من كرة الطائرة، وقد وضعوا أرقاماً على جميع كُرات القدم. وبعد التمرين، إذا نقصت كرةٌ واحدة، فإنّهم يبحثون عنها حتى يعثروا عليها. وإذا لم يعثروا عليها، فإنّ جميع طلاّب السنة الأولى يُعاقَبون».

أدخل إصبعه في شقّ الكرة وقلبها فظهرت بطانتها إلى أعلى.

«تعلم أنّه يسعني أن أكون في غاية اللطف. لهذا تحصل على كرةٍ طائرة. لا يسهل الحصول عليها مثل كرة تنس الطاولة، لكنّ هناك عدداً كافياً منها. وكرة الطائرة، مع ذلك، أحبُّ الكرات إليّ. نسيجها حسن. وهي لطيفةٌ وناعمةٌ على البشرة، مثل ضمادة . . ».

نظرتُ إلى قدمَي نينوميا.

«قرأت كتاباً في العطلة. لا أعلم ما حملني على ذلك. ليس لأنّني لا أقرأ. إلاّ أنّني في بعض الأحيان لا أجد لذلك أهمّيّة. على أيّة حال، قرأت الكتاب كلّه. ماذا عنك؟ أحسب أنّك قارئٌ عظيم».

كان يسألني.

«أوقعتَ ذلك الكتاب قبلاً. ما كان ذلك؟ هل هو كتابٌ حسن»؟

لم أحِر جواباً.

«لا تروقني قراءة الروايات، ولا القراءة عن حياة الآخرين ونحو ذلك. من يبالي؟ أقصد أنّك تعيش حياتك، أليس كذلك؟ وستنصرف إليها ما إن تضع الكتاب جانباً. فلِمَ تحيد عن دربك لتعلق في حياةٍ مُختَلَقة»؟

لم أزل عاجزاً عن الإجابة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«القراءة كالسحر. ليست سحراً حقيقيًا، بل سحرٌ زائف. ماذا فيها حتى يحبها المرء؟ إنها أحبولة. خدعة. والحقُّ أنْ شيئاً لن يتغيّر. كلاّ، لعلّ القراءة تغيّر الأشياء. بل إنّها تزيدها سوءاً، وتفسد يومك. على أيّة حال، ما هي إلاّ أكاذيب. إذا لم تكن سحراً حقيقيًا فما الجدوى؟ إنّها مضجرةٌ فحسب».

أمرني نينوميا بخلع ربطة عنقي، ثم أعاد النظر وأمرني بخلع نظّارتي كذلك. أوعز إلى أحد رفاقه بإبعادها عن وجهي وبربط يديّ خلفي بربطة العنق.

قال ضاحكاً «ليس بإحكام». وقف موموز على بعد خطواتٍ عاقداً ذراعَيه ناظراً إليّ وهو يمرّر سبّابته على شفته.

قال نينوميا «كرة قدمٍ بشريّة أعلم أنّ تلك هي كرةٌ طائرة، لكنّك تفهم مرادي. سنركل، ولذا فهي أقرب إلى كرة قدمٍ منها إلى كرةٍ طائرة. أوّل من يدخلك إلى المرمى يفوز».

نظر إلى الآخرين.

«سيلعب كلٌّ منّا ضدّ الآخر، والخاسر يخرج من اللعبة. أنتما أوّلاً، ثم أنتما أيّها الرفيقان، ثم أنا وموموز. والفائز يواصل اللعب».

صفّق بيديه.

قال «حسناً. اخلعوا أحذيتكم. ضعوا الأهداف».

اتّجه بعضهم إلى الناحية المقابلة من الملعب، خلعوا أحذيتهم ووضعوها على بعد ستّة أقدامٍ بين بعضها وبعضها الآخر، مشكّلين زوجاً من الأهداف الموقّتة.

لويث معصميّ ولم أستطع تحرير يديّ. وما عساي أفعل إذا حرّرتهما؟ سيقيّدونني مرّةً أخرى، أشدّ عن ذي قبل. تقاطر العرق من إبطيّ إلى ظهري، وحتى على فخذيّ.

«يا أحول، أريدك أن تكون أفضل كرة. كن كأنّك كرة. أتعرف ما أقصد؟ خيرٌ لك أن تتحرّك كما تتحرّك كرةٌ حقيقيّة».

مطّ نينوميا الكرة ممسكاً بشقّها ووضعها على رأسي. ضغطها بشدّةٍ لكنّه لم يستطع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جذبها على صدغيّ، فلم تسع رأسي.

قال «أذناك كبيرتان. يا رجل، إنّك تثير غضبي».

أقبل موموز. ودون أن ينبس بكلمةٍ جذب الكرة وفتّقَ الشقّ لتتّسع فتحته ثم مطّ الكرة وأعادها فوق رأسي. صرّت وهو يثبّتها على جمجمتي حتى امتلأ أنفي برائحة الغبار وما عدت أرى. تشنّج جسدي وتقبّض ككتلة، وفي جبهتي رأيت صوراً متحرّكةً مضطربةً تومض. هززت رأسي كالمجنون وحاولت الركض، لكنّ أحدهم ركل رجلي وصاح بي لأقف. نزلت بطانة الكرة إلى ما فوق ذقني، تاركةً شفتي السفليّة مفتوحةً للهواء.

قال نينوميا متظاهراً بالتعجّب «كرةٌ طائرةٌ أصغر ممّا تبدو. حسناً، فلنبدأ».

Telegram:@mbooks90

اختفيتُ في ظلمةٍ لم أعرف لها لوناً، ولمّا عجزتُ عن الوقوف شرعتُ أدور وأتلوّى بحثاً عن حماية. ولم أدرِ ما حلّ بجسدي، إذ صعدت فوق كاحليّ حممٌ فاترة، سوداء ورصاصيّة، وتسلّقت ساقيّ. دخلت فمي وملأت رئتيّ. وما لبثت حتى أذابتني فاعلةً فعلها في جوفي. حرّكتُ ساقيّ وهممتُ بالهرب فاختلّ توازني ووقعت. حاولت الوقوف مستنداً إلى ركبتيّ فضربوا ظهري وطرحوني على الأرض. كنتُ أصارع بين ضحكهم المخنوق ولهاثهم، وظللتُ على هذه الحال أجهد للوقوف وهم يصرعونني في كلّ مرّة.

قال نينوميا «لستَ أفضل كرةٍ رأيتُها، لكن لا بأس بك»

أمسك أحدهم بذراعيّ وأنهضني، ثم أخذ يجرّني وأنا أرفس بقدميّ رفساً. صاحوا بي لأعتدل واقفاً.

«هلُموا بنا! فلنفعل هذا. سأقول هيّا وابدؤوا. تماماً مثلما نفعل بكرة قدم. اركلوا ركلاً لائقاً يا أولاد».

ابيضّت مفاصل أصابع يديّ المقيّدتَين، وارتعشت ركبتاي حتى كدت أسمع اهتزازهما. ثنيتُ كلّ عضلةٍ فيّ وأغمضتُ عينيّ واصطكّت أسناني حتى شعرت بالدم ينبض في جبهتي. لا شكّ أنّ وجهي كان قبيح المنظر، فقد شعرت كأنّ شيئاً كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يشدُّ زاويتي شفتيّ إلى الخلف ويدفع أسناني إلى الأمام، وغرغرتُ بلعابي. خفق قلبي خفقاناً ما عهدته من قبل. وسمعت انسحاق نبضي مثلما ينسحق رملٌ رطب. كأني لو وضعت إصبعي في نبضي لشعرت به. كانت هذه أوّل مرّة أخبُر فيها الذعر كصوت.

قال نينوميا «حانت اللعبة».

تبدّل الهواء من حولنا. ثم انشقّت السماء وهدر موجٌ لا نهاية له، وأمام ناظري لمع نورٌ فضّيٌ كلَهَبٍ مَرَق مروقاً. ولم أعرف ما الذي كان يحدث. شعرت بساقيّ تتأرجحان في الهواء. وبكلّ ثقلي هويتُ على الأرض على ظهري. ضاقت أنفاسي. تصاعد الألم من وجهي وكاد يُصيبني إغماء. رافق الألمَ صوتٌ مألوف، لكنّني لم أجد سبيلاً إلى التّيقُّن ممّا إذا كان الصوت حقيقيًا ولا حتى معرفة كيف بدا مهما أصخت السمع. تخدّر وجهي كلّه، كأن قسماً منه تلاشى. على الأرض، حنيتُ ظهري ما استطعت لأكوّر جسدي وانكببتُ بوجهي على ركبتَيّ، وشعرتُ بحلقات ألمٍ حارقٍ تشعُّ من رأسي.

لم أدرِ كم من الوقت مضى قبل أن يتحدّث نينوميا. بدا مستاءً من صبيّ ووافقه الآخرون.

«مهلاً، خفّف الأمر. قليلاً من الاحترام. أريد لعبةً نظيفة».

انهمرت الدموع على وجهي، وانفتح باب طوفان. ابتلّ وجهي كلّه، وسال الدمع مدراراً على شفتيّ وذقني. وشعرت به يصل إلى صدغي المضغوط على الأرض، وإلى فروة رأسي.

عجزتُ عن الحركة. يدان أمسكتا برأسي وجذبتاه. تحرّر وجهي من الكرة. كان سطوع الضوء مؤلماً حتى لمّا أغمضت عينيّ. ولم أقدر على فتحهما ولا على النهوض.

خَدِرَ وجهي ولم أعد أشعر به. واغرورقت عيناي ولم يتوقّف دمعهما. ثم بعد مدّة، شعرت بهم يحلّون رباط يديّ، وخزّرتُ عينيّ فلم أرَ إلاّ ظلال أقدام. ركلوا نظّارتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحوي. ولمّا مددت يدي وتناولتها رأيت دماً متجلطاً على الأرض. لكأنّ أحداً كان قد ترك حوضاً يفيض بالدم. دمٌ طازج، شديد الحمرة. شخصْتُ ببصري متحيّراً من قدر ما خسرته من دماء. أخذت نظّارتي ولمست الدم بطرف إصبعي. اختلف ملمسه الزلق عن ملمس الدموع. وضعت إصبعي تحت عيني اليسرى. كان الدم رطباً ودبقاً حتى ظننت أنّه سيكلّمني في أيّ لحظة.

لم أستطع معرفة ما إذا كان الدم يسيل من جرحٍ على جبهتي أم أنّه ينزف من أنفي، فلم تكن هناك علامةٌ على توقُّف الخدر حول أنفي.

قال نينوميا بهمّةٍ فاترةٍ مصفّقاً مرّةً واحدة «انتهت اللعبة».

توقّف الهمس المتردّد من حوله إلى أن تثاءب أحدهم فشرعوا يتهامسون مرّةً أخرى.

دونما أدنى إحساسٍ بالخزي، قال نينوميا «لا مزيد من لعب كرة قدمٍ بشريّةٍ فقد أفسدتموها».

استويت جالساً مستعيناً بيديّ وركبتيّ، وبرفقٍ لمست أنفي. ما زال موجوداً هناك، لكنّ مسّه فحسب ألهب الألم، فاحتملته وصبرت عليه ولبست نظّارتي. كدت أختنق من وطأتها على أنفي إذ كانت مثل جسرٍ رازح على وجهي. فتحت عينيّ المتشنّجتين اللتين ظلّتا تطرفان بلا توقُّف.

نظر إليّ نينوميا من علٍ. عاقداً ذراعَيه، وقف موموز وراءه بثقله كلّه على ساقٍ واحدة. كأنّه هو أيضاً كان ينظر إليّ. سمعت الآخرين يعبثون في أرجاء المكان. ومن حينٍ لآخر، كنت أسمع صرير أحذيتهم على الأرض وهم يجهدون لمنع أنفسهم من الضحك فلا يستطيعون.

«يا أحول، حذارِ أن يراك أحدٌ في طريقك إلى البيت. سنخرج من هنا، وستنتظر أنت ثلاثين دقيقة، أتفهم؟ ثلاثين دقيقة. ربّما لم يفرغ المعلّمون من اجتماعهم بعد، ومع ذلك احذر. أعرف أنّه لا حاجة إلى أن أقول لك هذا؛ خيرٌ لك ألاّ تُعلِم أحداً بما حصل، وإلاّ ذاق أهلُك الأمرّين. مهلاً، انتظر».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظلّ وقتاً يفكّر.

ثم قال «اسمع، بعد ثلاثين دقيقةً اخرج من حيث دخلنا واقصد غرفة الأجهزة السمعيّة والبصريّة. خلفها حائطٌ أقصر من الحيطان الأخرى. تسلّقه واغرب من هنا. علينا أن نتيقّن من ذلك. تستطيع القفز إذا حاولت، فلا خيار أمامك. أتفهم»؟

كنت جالساً في اعتدالٍ لكنّني نكّست رأسي ونظرت إلى بركة الدم أمامي. تلطّخ صدر قميصي بحمرةٍ قانيةٍ وأمّا سترتي فما عرفت لون الدم عليها. مشى الصبية متثاقلين صوب الباب، لكنّ نينوميا استدار كمن تذكّر شيئاً .

قال «تنظّف قبل أن تخرج». ثم أشار إلى الباب وهزّ رأسه «ولا تستعمل الماء الذي في الخارج. بل استعمل الماء الذي هنا. تنظّف ثم اغرب».

بعد أن أغلقوا الباب وراءهم عدت إلى الاستلقاء على ظهري وحاولت التفكير وأنا أحدّق إلى السقف.

ولم يُسفِر التفكير عن جدوى.

لم أقدر إلاّ على فتح فمي لأتنشّق الهواء وأزفره. وبينما كنت كذلك إذ بجسدي النازف يرتفع إلى السقف ويلتحم بالعوارض الخشبيّة شبكيّة الشكل.

جسدي الذي على السقف استدار ليواجه جسدي المستلقي على الأرض، ثم بدأ في النزول. رأيتُني لابساً ثوبي المدرسيّ ونظّارتي وقد غشيني الدم بدءاً من أسفل عينيّ، وكنت أقترب شيئاً فشيئاً. وعندما لم يكن بيننا إلاّ ستّة أقدامٍ توقّف جسدي في الهواء.

جسدي الطافي بلا حراكٍ كان ينظر إليّ دون أن يتفوّه بكلمة. كانت عيناه خلف نظّارته ثخينتَين كالهُلام، بلا اتّجاهٍ بقدر ما يمكنني القول. غمغمتُ قائلاً له إلامَ تنظر؟

وأنا أراني على هذه الحال أدركت مدى ضآلتي. نحل معصماي وكاحلاي وعنقي نحولاً شديداً، ولم يكن في أيٍّ منها أثرٌ لقوّة. لم تلائم سترتي كتفيّ، وقميصي الذي استحال صدره قرمزيًّا ارتفعت أطرافه عن موضعها. واتّسع بنطالي وطال. بدا جسدي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معلّقاً في السماء بزاويةٍ غير ثابتة.

وبينما كنت أنظر إلى جسدي المعلّق في الهواء، انفرجت شفتاي في ذلك الجسد. فطنتُ إلى أنّني قلت شيئاً، غير أنّني ما كدت أستبين حركة شفتيّ وما قدرت على قراءتها. بعد ذلك، انفرجت أسارير وجهي في جسدي المعلّق فوقي. شعرت بأنّه تبسّم لي. كأنّ نسختي الملطّخة بالدماء فوق رأسي تبسّمت حقًّا. لم أعرف مغزى ذلك فبقيت مستلقياً هناك أبادل وجهي النظر. عندما جذبت الهواء إلى صدري خرج بلغمٌ كثيرٌ إلى فمي وتجمّع على لساني. تردّدت قليلاً ثم أملت رأسي جانباً وبصقت. بصقت دماً خالطه بلغمٌ وفقاقيع صغيرة. وتبقّع ببقعٍ سوداء صغيرةٍ أيضاً.

سمعت الباب يُفتَح فتحجّرت في مكاني. لا بدّ أن معلّماً سمعنا وجاء لتفقّد الأمر.

لكنّ ذلك القادم لم يكن إلاّ كوجيما.

وقفت بالباب ناظرةً إليّ. ثم كأنّ شيئاً وكزها ركضت نحوي.

جثت على الأرض ونظرت إليّ بعبوس.

قالت «الدم في كلّ مكان. هل تتألّم»؟ هزّت رأسها ولعقت شفتَيها كأنّما ستُقدِم على فعل شيء.

قلت «أجل، لكنّ الألم خفّ الآن».

اهتزّ صوتها كأنّ ريحاً قويّةً عصفت به «لقد تبعتهم إلى هنا ودخلت بعد أن رأيتهم خارجين».

«معذرةً، إنّني مذعورة . . أتستطيع النهوض»؟ مدّت يدَيها لتمسّ كتفيّ. وما فتئت تومئ برأسها وتبتلع لعابها حتى أمكنني سماعه.

قلت «أظنّ ذلك. لم أرَ دماً غزيراً كهذا البتّة»

جهدت لأبتسم ومرّرت ظاهر يدي تحت أنفي لأرى. ما زال هناك دمٌ لزجٌ لكنّه بدأ يتخثّر في منخريّ. اشتدّ الألم وصعق وجهي كتيّارٍ كهربائيّ. جلست كوجيما إلى جانبي على الأرض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي آخر الأمر، استويت جالساً وأدخلت أطراف قميصي في بنطالي. عثرت على ربطة عنقي ووضعتها في جيب قميصي.

مشيتُ إلى المغسلة التي كان نينوميا قد أشار إليها. ولمّا وقفت شعرت بذوارٍ لكنني تمكّنت من المشي باعتدال. كلّما خطوت خطوةً وخز الألم وجهي.

كان بالمغسلة الخزفيّة البيضاء شرخٌ كبير. وكان إلى جانبها دلوٌ به خِرقةٌ جافّةٌ ومَمسَحةٌ بذراعٍ طويلة، جافّةٌ كالخرقة. أدرت الصنبور فسال ماءٌ بارد. ملأت كفّيّ ورششت وجهي وجهدت لغسله. ولمّا مسّت يداي جلدي اشتدّ الألم. شعرت كأنّ وجهي انشقّ شقًّا. كانت الخرقة قد عُصِرت حتى أصبحت متكتّلةً وتُركت على حالها ذاك. ملأتُ الدلو ماءً وبه الخرقة وحملته إلى حيث الدم. ثم ذهبت كوجيما إلى المغسلة وعثرت على خرقةٍ أخرى لمساعدتي. طفقنا نمسح الدم دون أن نتبادل الكلام. أضاف المسح ماءً إلى الخليط فخفّت كثافة الدم، لكنّ ذلك ضاعف عملنا. عصرت كوجيما خرقتها ومسحت الأرض. وحيثما جفّ الدم أزلته بأظافري. وقد تلوّث ماء الدلو بأوساخ الخرقة والدم الذي صار خفيفاً حتى ما عدنا نرى قعر الدلو.

«كنت أنظر من النافذة، من هناك».

خرج صوت كوجيما هادئاً. كانت تفرك الأرض وتحدّق إليها. مسحتُ الأرض وأومأت برأسي.

«ظللتُ أنظر حتى بدأوا الركل. ثم بدأتُ أرتجف. لم أستطع تحمّل الأمر».

«أجل». أومأت برأسي مرّةً أخرى وعصرت خرقتي فوق الدلو.

قالت «الفتيات فعلن ذلك بي أيضاً. في الحمّام. أوقعنني على الأرض». ثم هدأ صوتها «لم أنزف، لكنّني تألّمت كثيراً. إنّهم شديدو الاحتراز وحريصون على ألاّ يراهم أحد، ويجيدون إخفاء آثارهم إلى حدّ مخيف. برأيك أين تعلّموا ذلك»؟

قلت دون أن أنظر إلى كوجيما «هناك كتب، أو ما شابه ذلك، تُفَصّل الأمر وكيفيّة الإفلات من العقاب».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أتظنّ أنهم قرأوا ما فيها ثم جزبوه علينا»؟ كادت كوجيما تقول ذلك همساً.

لم أجبها.

سألتني «هل تظنّ أننا تمرينٌ يتمرّنون عليه أم أننا حقيقة»؟

فكّرت في أننا قد نكون الاثنين معاً. غمستُ خرقتي في ماءٍ نظيف وعصرتها ثم مسحت ما بقي من آثار. بعدما فرغنا وقفتُ ونظرت إلى الأرض. اختفى الدم دون أثر.

سألتني ناظرةً إليّ «ما أنت فاعلٌ بثيابك»؟

بدت كوجيما خائرة القوى. لم أعرف كم من الوقت مضى ونحن نمسح الأرض، وكم من الوقت قضيتُ في القاعة الرياضيّة. رفعتُ بصري إلى النوافذ المحيطة بالقاعة الواسعة، قرب المنصّة، لأتفقّد لون السماء، لكنّها كانت بلا لونٍ ولم تنبئني بشيء. بدا كأنّ شيئاً لم يتغيّر منذ دخولنا إلى هنا، وفي الوقت نفسه، لاح اليوم كأنّه موشكٌ على الانتهاء. شكرت كوجيما على مساعدتها لي دون أن أنظر إلى وجهها، فنظرت إليّ. وشعرت بتحديقها إلى أنفي وفمي. لم أستطع تخيّل ما رأت.

قالت «لستَ بحاجةٍ إلى شكري». وسألتني مرّةً أخرى «لكن ما أنت فاعلٌ بثيابك»؟

قلت «سأتدبّر أمري. ستكون على ما يرام».

خرجنا من مخرج الطوارئ وأغلقنا الباب. تيقّنّا من خلوّ المكان فهرولنا إلى الناحية الخلفيّة لأقرب مبنى. كانت المساحة الضيّقة، بين مبنى المدرسة والجدار الحجريّ الذي يُحيط بالأرض، محجوبةً في الظلّ ومكتظّةً بأعشابٍ طحلبيّة، وقد تناثرت على حافّاتها علبٌ فارغةٌ وقفافيز عمّال. تبعنا المبنى حتى رأينا الجدار الذي تحدّث عنه نينوميا. كان مرتفعاً لكنّه أقصر من باقي الجدران.

سألتني كوجيما وهي ورائي بخطواتٍ قليلة «لِمَ نسلك هذا الطريق»؟

وقفتُ أنظر إلى الجدار، ثم قلت «يجب أن أسلك هذا الطريق، فثيابي ملطّخةٌ بالدماء وأخشى أن يراني أحدٌ إذا خرجت من البوّابة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كأنّ هذا العذر أوهن ذراعيّ وساقيّ، فسألت نفسي لِمَن هذا العذر ولأيّ غرض؟

سألتني «ماذا يوجد في الجهة الأخرى للجدار»؟

قلت «لستُ أدري، فلم أفعل هذا من قبل، ولكن لأنّ البوّابة هناك، فتلك الجهة تفضي إذاً إلى ما وراء المدرسة». لم أفقه ما كنت أقول إلاّ أنّ شفتيّ تحرّكتا على أيّة حال. «هل تعتقدين أنّه أجدر بي أن أسلك هذا الطريق»؟

«كلاّ، أجدر بك أن تخرج من الأمام كجاري العادة. لا مشكلة في أن يراك أحد. حسبك أن تقول إنّك تأخّرت لعملٍ ما في المدرسة».

وقفت وكوجيما هناك دقيقةً لا نقول شيئاً.

حزّ في نفسي أن تراني كوجيما مثيراً للشفقة هكذا. وددتُ لو أنّي أختفي. وقفت هناك منتظراً ذهابها. لكنّها لم تتزحزح، بل وقفت هناك محدّقةً إلى ظهري.

وفي آخر الأمر، قالت «سأذهب بعد أن تعبر أنت».

أردت أن أقول لها إنّني أحبّذ أن تذهب الآن، لكنّ الكلام استغلق عليّ. وقفت صامتاً مولّياً إيّاها ظهري.

سألتني بصوتٍ قلق «هل تتألّم»؟

لم أقل شيئاً.

قالت «أعتقد أنّ عليك الذهاب إلى المستشفى. إنّني أقول قولاً جِدًّا».

«حسناً، سأذهب».

«حسناً تفعل».

قلت «إلى لقاء».

رفعتُ يديّ لأتشبّث بأعلى الحائط الحجريّ، ولم يكن شديد الارتفاع. شعرت بوهن جسدي وثقله كرصاصٍ أُذيب واستحال طيناً. لم أشعر بعضلاتي أقلّ شعور، وما إنْ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وضعت قدميّ على الجزء المنخفض من الجدار حتى غادرني كلّ يقينٍ بما سأفعل بعد ذلك. وددتُ الاختفاء فحسب.

أصابعي على الجدار كانت تصرخ. عرفت ما يلزم من خطواتٍ للصعود والقفز، إلاّ أنّ الحركة التالية استعصت عليّ. تعثّرت ووقعت على الأرض. وقفت كوجيما ورائي حاملةً حقيبتي. أوجعني وجهي. وَجِفتُ وأمسكت بحافّة الجدار مراراً، بيديّ وقدميّ دون جدوى، مخفقاً في كلّ مرّة. شعرت بحرارةٍ تصعد من معدتي. بلغت وجهي لكنّها لم تجد موضعاً تنصرف من خلاله. ولمّا زفرتُ ضغطت نُتَفٌ من دمٍ متخثّرٍ على جيوبي الأنفيّة فانقضّ الألم انقضاضاً شديداً. لم أقدر على الالتفات ورؤية وجه كوجيما. أردت أن أختفي عن الأنظار. حكّ حذائي وجه الحائط فخرج صوتٌ جافٌّ وانتثر غبارٌ رماديّ. كلّما حاولت التسلّق زلقت قدمي وسقطتُ على الأرض المعشوشبة.

كنت أرفع يديّ لأتشبّث بأعلى الجدار لمّا نادتني كوجيما وقالت «مهلاً».

«مهلاً». قالت مرّةً أخرى، لكنّها هذه المرّة جذبت ذراعي وسحبت جسدي نحوها. عبست في وجهي وهي تنظر إليّ.

«هلاّ تحدّثنا قليلاً»؟

كان صوتها أخفض من المعتاد. نكّستُ رأسي ناظراً إلى حذائها ولم أقل شيئاً. مسّت أربطة حذائها القذر الأرض. وكانت قد انحلّت .

«لمّا رأيتهم غُضبةً عليك شعرت كأنّي أبصرتُ شيئاً آخر، شيئاً لم تبصره أنت».

أبطأتُ في كلامها.

قالت «أحسب أنّك على صواب. أعني أنّنا وهم في العمر نفسه. جسدانا كأجسادهم، ولو أردنا لاستطعنا الدفاع عن أنفسنا، ولأذقناهم من الكأس المُرّة التي تجرّعناها. لاستطعنا خوض عراك. لاستطعنا الثأر لأنفسنا. إلاّ أنّنا لا نفعل. ما الذي يمنعنا من ذلك»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«إنّي لضعيفٌ عاجزٌ عن الدفاع عن نفسي». أجبتها، لكنّها لم توافقني.

قالت «ليس لهذا السبب سمحنا لهم بفعل ما يفعلون. لا لضعفٍ فينا، فنحن لسنا خاضعين لأوامرهم بأيّ حال. لعلّ الأمر قد بدأ على هذا النحو، لستُ أدري. غير أنّنا لسنا مطيعين فحسب، بل نحن من يسمح بحدوث ذلك. نعلم تماماً ما يحدث. نرى كلّ شيءٍ ونسمح بحدوثه. لا أحسب أنّ ذلك ضعفاً البتّة. بل الأصحّ أنّه قوّة».

كرّرتُ قولها لكنّني إنّما كنت أسألها «نسمح بحدوثه»؟

«أجل. كأنّنا نسمح لهم بفعل ما يفعلون ولا نفعل نحن شيئاً، لكن ذلك ليس صحيحاً. إنّ لما نفعله نحن معنًى».

وقفتُ هناك في مكاني مفكّراً في قولها.

قالت «لعلّكَ مُحِقٌّ في ما تفعل. لعلّنا ضعيفَين بوجهٍ من الوجوه. إلاّ أنّ ذلك ليس بالسيّء. إذا كنّا ضعيفَين فلضعفنا معنًى حقيقيّ، ونحن نعي ضعفنا هذا. نعرف ما الصواب وما الخطأ. وهذا ليس صحيحاً في عين الآخرين بالصفّ، فهم يدّعون جهلهم بما يحدث. يحسنون معاملة من يدوسنا لينصرهم، ولئلاً يحلّ بهم ما حلّ بنا. يتصرّفون كأنّ أيديهم نظيفة، لكنّها ليست كذلك. إنّهم لا يفقهون الأمر أبداً، ولا يختلفون عمّن يؤذوننا. الوحيدان اللذان لا يشاركانهم ذلك هما أنا وأنت. وهذا هو ما فعلوه بك في القاعة الرياضيّة . . . ، بل ما يفعلونه على الدوام، فلطالما كان هذا ديدنهم. مهما فعلوا فأنت من يسمح بذلك. لكنّني لمّا رأيتُ ما وقع لك بدا لي أنّي رأيتُ عقدةً مجنونةً تنفكّ فكًّا، وفجأةً أصبح لكلّ شيءٍ معنى. أتدرك قصدي؟ أعتقد أنّ مسلكك كان صائباً، بل إنّه المسلك الصائب الوحيد».

«لكن أيّ مسلكٍ سلكتُ»؟

تكلّمتُ كأنّ كلّ كلمةٍ قلتها كانت بطاقةً ألصقتُها في الفراغ أمام عينيّ.

بكت كوجيما، وقالت «ما قلتُ إلاّ إنّك مُحقّ. أقول إنّك محقّ».

قلت ناظراً إليها «لا تبكي». وخلال أصابعها التي غطّت وجهها، رأيت فمها مُطبقاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نصف إطباقِ أبان عن أسنانها قليلاً. وتحت كفّيها تضرّجت وجنتاها. عادتني ذكرى ذلك اليوم الصيفيّ الأوّل على المقعد أمام المتحف، حيث رأيت كوجيما تبكي أوّل مرّة. يومها بكت دون حراكٍ وبلا صوت. وقد أردت أن أقول شيئاً أو أنّني أدركت أنّه عليّ قول شيء، لكنّني لمّا رأيتها تبكي على تلك الحال، أخفقتُ مثلما أخفقتُ الآن في قول شيءٍ ذي بال.

قلتُ برفق «لا تبكي يا كوجيما».

قالت «لا أبكي».

رفعتْ نظرها وفركتْ عينيها بظاهر كفّيها.

«أعني أنّني أبكي. إنّما ليس لأنّني حزينة».

حشرجت ونظرت إلى عينيّ. وعندئذٍ تبسّمت.

قالت «هذا برهان. برهانٌ على أنّني مُحقّة. أترى؟ لست حزينة».

أومأتُ برأسي. تنفّست كوجيما بعمق، نظرتْ إليّ وزفرتْ زفيراً ثقيلاً.

«هل تصدّقني؟ هل تصدّق قولي إنّك على حقّ؟ ذاك ما أشعر به في أعماق قلبي. أتصدّقني»؟

«أصدّقك».

« . . الصِبنيَة خائفون من عينَيك».

حدّثتني كوجيما بصوتٍ خفيضٍ لكنّه قويٌّ، يخصُّني بمضمونه.

«عندما يقولون إنّهم رابحون فهم كاذبون. إنّهم مذعورون فحسب. مرعوبون. لا أقصد أنّهم خائفون من منظر عينَيك. إنّهم خائفون من الاعتراف بأنّ ثمّة شيئاً لا يفهمونه. لا يستطيعون فعل شيءٍ فُرَادى، بل يجتمعون غُضبةً واحدة، لكنّهم ليسوا أصدقاء بحقّ، وعندما يتميّز شيءٌ في العالم يخافونه فيسعون إلى تدميره. يسعون إلى الخلاص منه. والحقّ أنّهم يخافون مثل الجميع، لكنّهم لا يخدعون إلاّ أنفسهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يظنّون أنّهم يبحثون عن السلام، إلاّ أنّهم كلّما أمعنوا في الاختباء زاد تبلّدهم. بيد أنّ شعور الذعر ذاك مقيمٌ فيهم، ملازمٌ لهم كلّ يوم. ومهما أمعنوا في تعذيبنا لا نقول نحن شيئاً. وخصوصاً لمعلّمينا وآبائنا. ومهما فعلوا بنا نستمرّ في الذهاب إلى المدرسة كلّ يوم، وهذا ما يزيد خوفهم. إذا صرخنا أو ألقينا بأنفسنا عند أقدامهم وتوسّلنا إليهم فسنتمكّن من إيقافهم. لكنّنا لا نلعب وفق قواعدهم. بل إنّها إرادتنا. نحن نسمح لهم بفعل ما يفعلون. نكاد نكون نحن من يختار لهم أفعالهم. وذلك هو سبب عدم قدرتهم على تركنا وشأننا. إنّهم خائفون جدًا، مذعورون جدًا، ولا يمكنهم فعل شيءٍ لمنع ذعرهم».

لمّا فرغت كوجيما من الكلام مرّرت طرف إصبعها على شفتيها. ثم، كأنّها تستشعر محيط عينها اليمنى، ضغطتها برفق. في الضوء المتبدّل، استطعتُ أن أرى آثار دموعها. نظرتْ إليّ وتبسّمت.

«سيفهمون في آخر الأمر».

وبينما وقفت هناك وقدماي مغروزتان في العتمة، شعرت كأنّني أرى الهواء يبرد صاعداً من الأرض أمام عينيّ. ثم ما لبثتُ حتى أدركتُ أنّ رُقَعاً من السماء حجبتها سحبٌ سوداء، ومن البعيد سمعت هزيم الرعد. لم أعرف كم كانت الساعة. أوجعني التنفُّس من أنفي لأنّه كان يكسر الدم المتخثّر، على أنّني استطعت مع ذلك شمّ مختلف الروائح المختلطة عند كلّ نَفَس. لم أستطع تبيُّن الروائح كلّها لكنّني شعرت كأنّني أعرفها حقّ المعرفة.

قالت كوجيما «أحبّ عينَيك حقًّا. قلت ذلك من قبل، لكنّهما علامة. لهما شأن. عيناك هما أنت».

نظرتْ إليّ بعينَين كادتا تبكيان، لكنّها تبسّمت .

«أحبّهما حقًّا».

تلك الليلة، تعذّر عليّ النوم.

ثقل جسدي واخشوشن. وطغى عليّ شعورٌ بالرغبة في التقيُّؤ، وحتى إغماض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عينيّ لم يزدني إلاّ توتُراً، وقد راوحت الظلمةُ في أثناء الإغماض بين الشدّة والخِفّة، لكنّ النوم لم يأتِ قطّ. أوجعني حلقي كأنّ ثمّة من يأخذ بخناقي، وسخُنَ فراشي سخونةً خانقة. حتى التنفّس أوجعني. وكلّ مساعيّ إلى النوم صَرَفَت عنّي النوم.

قلت لماما إنّ درّاجةً صدمتني لأنّني لم أتنبّه. بُهتت أمّي لرؤية بقع الدم على قميصي. ولمّا قلت لها إنّ أنفي ينزف فحسب ارتابت في أمري، إلاّ أنّها حنّدت تصديقي. وبعد أن فحصت الجروح والكُدُوم، قالت إنّ رأسي كان سيُصاب وإنّه أحرى بي أن أذهب إلى المستشفى. قلت سأفعل. التكلّم يؤلم أنفي كلّ مرّة. ولو كان مكسوراً لاشتدّ الألم. وقد وجدتُ الألم بعد وقوع الحادثة أشدّ منه عند وقوعها. قلت إنّني سأحاول النوم فصعدت إلى غرفتي. لم أرغب في الحديث إليها ولا إلى أيّ أحد.

غيّرتُ قميصي المبقّع بالدم ورحت لأضعه في سلّة الثياب المُعَدّة للغسل، لكنّ ماما طلبت منّي أن ألقيه إليها فناولتها إيّاه بلا اعتراض. عبست وكوّرت القميص وسألتني عمّا حدث للرجل الآخر. قلت إنّه ولّى مبتعداً بدرّاجته. سألتني عن أوصافه. قلت لها إنّه كان رجلاً كالآخرين. وما فتئتُ أصطدم بالناس منذ طفولتي. وفي الحقيقة، صدمتني درّاجاتٌ في الماضي ووقعت على وجهي. كلّ ذلك بسبب إخفاقي في إدراك المسافة بيني وبين الآخر.

زفرتْ قائلة «كانت درّاجةً في الأقلّ. ماذا لو كانت سيّارة»؟

قلت إنّني كنت سأنزف أكثر، وربّما كنتُ سأموت.

في صباح اليوم التالي، أشارت عليّ ماما بالذهاب إلى المستشفى قبل المدرسة، لكنّني أقنعتها أن تأذن لي بإرجاء ذلك إلى أن أكون في طريق العودة إلى البيت، وأن أقصد المدرسة في الوقت المعتاد. لمّا هممت بالنهوض من الفراش شعرت بألمٍ في حلقي وصدري فجلست ساكناً مدّةً من الوقت.

فكّرت كم سيكون لطيفاً لو أنّي قدرت على إخبار ماما بكلّ شيء، أو قد يكون من الأفضل ألاّ أقول شيئاً وأن أقيم في هذه الغرفة إلى الأبد. لكنّني لن أستطيع فعل ذلك، فكوجيما بحاجةٍ إليّ وأنا بحاجةٍ إليها. لم نكن نتبادل الأحاديث في المدرسة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكلي أتذكّر مرّاتٍ أكثر من أن تُحصر أنّي ارتحت لرؤيتها ولمعرفة أنّها موجودةٌ فحسب. وإذا كان وجودي هناك يساعد كوجيما أيضاً على النحو نفسه، فليس لي أن أتركها وحدها في الصفّ.

في طريقي إلى المدرسة، جهدت لأتذكّر بدقّةٍ ووضوحٍ ما قالته لي كوجيما في اليوم الفائت.

بكت وضحكت، وقالت لي إنّها تحبّ عينيّ. ولم تكن تلك أوّل مرّةٍ تقول فيها إنّها تحبّ عينيّ، غير أنّ لقولها هذا أثراً لطيفاً أنعشني. لقد عميتُ عن رؤية ما تفعله هذه الكلمات، لكنّها أعادتني إلى حيث كنتُ قبل أن أُهانَ وأُذلّ.

قالت كوجيما إنّ الجميع كان خائفاً من عينيّ. قالت إنّهم إذا نظروا إليّ ولم يعرفوا في أيّ اتّجاهٍ أنظر، فإنّ أدمغتهم تتلقّى إشارةً بأنّ ثمّة أموراً لا يفقهونها، ولكي يصرفوا عنهم شعور الخوف لا بدّ لهم من التنمّر علينا. قالت إنّ عينيّ هما أنا، وإنّنا، أنا وهي، لم نستسلم بل اخترنا للأمور أن تسير على هذا النحو وسمحنا بحدوثها. وقالت إنّنا لن نبلّغ عنهم أبداً مهما ساء الوضع، وسنذهب إلى المدرسة دائماً، وكلّما تكرّر الأمر احتملناه، فذلك هو الأهمّ، وذلك هو ما يحمل معنًى حقيقيًّا.

أعلم أنّ عليّ أن أجد سبيلاً، بكلماتي، لأفكّر في كوجيما وفي نفسي، وفي ما حدث بالأمس وكلّ ما حدث من قبل وما سيحدث من بعد، لكنّني عليّ أوّلاً تحديد لبّ المشكلة. هل هذا تنمّر؟ حتى الآن كلّ شيءٍ كان تنمّراً. لكنّ ذلك لم يساعدني. هل السبب عيني الحولاء؟ وفي حالة كوجيما، هل كانت علاماتها السبب؟ شعرت كأنّني سقطت، وعيناي مغمضتان، في وحلٍ لم يكن ساخناً ولا بارداً. في مكانٍ لا يمكن بلوغه بالعزاء الذي كنت أمتصّه، كما تمتصّ الأجسام الضوء، كلّما قرأت رسائل كوجيما أو قابلتها أو حتى فكّرت فيها.

بِفِكرٍ حائرٍ استأنفت سيري على الطريق المحفوف بالأشجار. وفي منتصف الطريق، وقفت قليلاً وزفرت زفيراً حتى شعرت بالألم يستفيق في رئتيّ. ثم رفعت بصري إلى السماء. كانت زرقاء زرقةً مائيّةً رقيقةً ولا شيء آخر. اهتزّت أوراق الأشجار الكثيرة في حركةٍ واحدةٍ كمُلاءةٍ ثقيلة. تلبّسني يقينٌ تامٌّ بأنّها ستسقط من أغصانها في أيّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لحظةٍ لتغمرني، دون اعتذار، قبل أن تتاح لي الفرصة للزفير. كلّ ما بقي من الصيف اختفى، وكنت واقفاً في الخريف الكثيف، وقد أثقل الضوءَ والتربةَ والروائح ببرده، كأنّ مطراً صامتاً قد هطل في غفلةٍ من الجميع وبزّد كلّ شيء.

دعاني معلّمي إلى طاولته بعد انتهاء الدرس. بدا مذعوراً.

«ما الذي حلّ بوجهك»؟

قلت «صدمتني درّاجة».

كان يرتدي، لليوم، قميص بولو أبيض، وكان يحكّ طرف منخره بالحافّة الصلبة لورقةٍ مطويّة. وببلاهةٍ حدّق إليّ.

«متى؟ البارحة»؟

«أجل».

«في طريق العودة إلى المدرسة»؟

أومأت برأسي. ثم سألني أين ومتى وقع ذلك، وكيف صدمتني الدرّاجة، وماذا فعل الرجل بعد ذلك، فرويت له القصّة نفسها التي رويتها لماما.

«أعلم أنّه لا يمكنك التحكّم في حادث، لكن يمكنك الحذر. يبدو الأمر سيّئاً جدًّا. هل قصدت الطبيب»؟

«ليس بعد».

«عساك تفعل. وجهك منتفخ. اذهب وانظر ما الذي سيقوله لك الممرّض».

هزّ يده لتنزلق ساعته عائدةً إلى معصمه ورفع صوته قائلاً للتلاميذ إنّه نسي إخبارهم بأنّ اليوم عندنا درس صحّةٍ بدل درس الرياضة، ولذا سنعود بعد الغداء. جاء رفاق نينوميا إلى طاولتي وسألوني عمّا كنت أقول للمعلّم. ضحكوا محاولين إخافتي. قلت لهم ما قلته للمعلّم، وقلت إنّ ذلك كان كلّ ما في الأمر. شعرت بقلق كوجيما، من اختلاسها النظر إليّ، لكنّني حرصت على ألاّ يلاحظوا نظري إليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أرَ وجهي بعد تلك الواقعة. والحق أنّ وقتاً طويلاً قد مضى منذ أن نظرتُ إلى المرآة آخر مرّة. في المدرسة، غريزيًا تجنّبتُ مرايا الحمّام، وفي البيت بذلت جهدي لكي لا أنظر إليها. ولم يكن ذلك بالأمر العسير، إذ ما لبثت أن ألِفتُ العيش بلا مرايا.

بعد المدرسة، مررتُ بالبيت قبل التوجّه إلى مستشفى البلدة.

دخلتُ المستشفى وشهدت أخلاطاً من الروائح والبشر. عند الهاتف العمومي، وقف رجلٌ عُصِب رأسه بضمادةٍ بيضاء. وكان معظم الجالسين على المقاعد أمام التلفاز الضخم عجائز. وقد اضطُرّ الممرّضون إلى رفع أصواتهم والتحدّث في آذان العجائز لإخبارهم بوقت تناول الدواء وكيفيّة تناوله. كأنّ الكلمات كانت تطفو إلى جانبهم ويُشيرون إليها وهم يقرؤون للعجائز وصف الدواء.

قصدت منضدة المحاسبة لأريهم بطاقة التأمين الطبّيّ ثم جلست حيث جلس العجائز يشاهدون نشرة الأنباء وهم شبه نيام. إلى جواري جلست عجوزٌ طوت يدَيها على مقبض عصاها، ولم أستطع تبيُّن ما إذا كانت عيناها مفتوحتَين أم مغمضتَين.

نادوا باسمي وأعطوني شارةً بلاستيكيّةً وأرشدوني من الردهة إلى منطقة الانتظار في عيادة جراحة العظام. بدا مسلك الممرّضة التي استقبلتني شبيهاً بمسلك عاملٍ في خطّ تجميع. كلّمتني وعينها على أطراف أصابعي .

الجناح الذي دخلته امتلأ بالمرضى أكثر من الأجنحة الأخرى، ولم يبدُ على أيٍّ منهم إصابةٌ من أيّ نوع. أجبت عن أسئلة ورقة البيانات، ووقّعتها وأعدتها. ثم وقفت هناك منتظراً دوري.

عندما نوديتُ إلى غرفة الفحص ورآني الطبيب جحظت عيناه.

«لا بدّ أنّ ذلك آلمك»!

كان الطبيب بعمر أبي، ربّما أكبر بقليل، بوجهٍ طويلٍ وبنيةٍ قويّة. بين الجدران عديمة اللون والمعدّات الطبّيّة البالية، شعّ بياض معطفه فبدا بلون النعناع، وامتلأ جيبه على الصدر بأقلام الحبر وأقلام الرصاص التي تنتهي أطرافها بممحاة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سحب كرسيًا وسألني «هل نزفت»؟

قلت «نعم».

«ما الكمّيّة»؟

«كثيراً».

«مؤكّد، أتوقّع ذلك». أومأ الطبيب برأسه وقرأ ورقة البيانات. تيقّن من أنّني لم أشعر بصداعٍ أو غثيانٍ بعد الواقعة، وسألني أيّ جزء من الدرّاجة ضرب رأسي. وأجبت بأنّني لا أظنّ أنّ الدراجة قد ضربت رأسي، بل ارتطمتُ بالأرض. همهم متفكّراً ثم دنا أكثر. ضغط جبهتي بأصابعه، ثم وجّهني إلى رفع ذقني مصوّباً مصباحاً صغيراً فضّيًا إلى أنفي، ورفع منخريّ بطرف إصبعه حتى يرى داخلهما. شممت رائحة أنفاسه التي بدت زنخة. بعد ذلك، ضغط أنفي بإصبعه بحذرٍ سائلاً أن أخبره كلّما شعرت بألم. قلت إنّ كلّ شيءٍ يؤلمني وشعرت بعينيّ تنتفخان بالدمع إلى أن سالت دمعةٌ من زاوية عينِي. استدار الطبيب بكرسيّه إلى طاولته فصرّ الكرسيّ، ثم كتب تعليقاً في سجلّي. قال إنّني بحاجةٍ إلى أشعّةٍ وإنّ عليّ انتظار الممرّضة في الردهة.

بعد الأشعّة بقليل، نوديتُ مرّةً أخرى إلى غرفة الفحص. أشار الطبيب إلى الصور وقال إنّ عظامي لا يظهر عليها ما هو خلاف الطبيعيّ.

«مع أنّ شيئاً لم يُكسَر فإصابتك شديدة. قد تتألّم مدّة». وضع قبضته على فمه وكحّ. «لكنّ الوقت يُبرئ الجراح كما يقول المثل».

سألته بحذر «لكنّني لستُ مضطرًا إلى الاستمرار في المجيء، أليس كذلك»؟

قال ضاحكاً «تعال في أيّ وقت. لا يمكننا فعل شيءٍ إلاّ الانتظار لنرى. سنصف لك حبوباً مسكّنةً للألم وضمادة. لك أن تتناول الحبوب كلّما شعرت بالألم، ولا تستعمل الضمادة إلاّ عندما تخلد إلى النوم. يمكنك استعمالها في أثناء اليوم أيضاً إذا كانت لا تزعجك، لكنّ استعمالها في الليل فقط سيفي بالغرض».

نقر طاولته بطرف قلمه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«الضمادة كبيرة الحجم، وعليك أن تقضها. ولا تتناول الحبوب أكثر من مرّتين في اليوم».

شكرت الطبيب ووقفت للذهاب.

قال «ثقة شيء آخر. حتى إذا خفّ الانتفاخ، أريدك ألاّ تحضر حصّة الرياضة. لا تبذل جهداً جسديًا. ينبغي أن ينال جسدك عافيته. أنا على يقينٍ من أنّ معلّمك سيتفهّم ما إن يرى وجهك». تبسّم لكنّه لم يضحك هذه المرّة. كدت أرى أسنانه كلّها. كانت مستقيمةً وكبيرة، تكاد تضاهي حجم ظفر إبهامه.

«أتعرف ماذا؟ خيرٌ لك أن تعود بعد أسبوع. فقط لأرى كيف تسير الأمور».

ضرب الطبيب ركبتَيه، وقال لي أن أستريح. كأنّ ذلك كان إشارة، إذ سحبت الممرّضة الستارة مبتسمةً وأرشدتني إلى الردهة حيث نادت المريض التالي. كان صوتها أخنّ على نحوٍ غريب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل السادس

أقبل الخريف مسرعاً، وكانت سرعة قدومه تزداد كلّ يوم. ذات صباحٍ، بعد سيري المعتاد في الشارع المحفوف بالأشجار، دخلتُ ساحة المدرسة ووجدت جنساً من الأزهار، لا أعرف اسمه، متفتّحاً في حوضٍ وراء البوّابة. أزهارٌ ورديّةٌ وبيضاء مستديرةٌ ذات بتائل كبيرة، بزغت من سطح طحالب جافّةٍ مثلما تخطر بالبال أفكارٌ خِلْوٌ من الهمّ.

يُحتَمَل أن تكون من جنس الأزهار التي لا تنمو إلاّ في الخريف. ومع افتتاني ذاك، أدركت أنّ هذه الأزهار أعجوبةٌ أخرى من أعاجيب دنيا تأبى أن تقبل بي. أمّا الشعور الوحيد الذي خصّني وحدي فقد كان ذلك الألم اللاّبِدُ في أنفي. كان الألم آخذاً في الاضمحلال، ويسهل تدبّره شيئاً فشيئاً، لكنّني شعرت بأنّ نفسي لن تطيب ولن تقوى أبداً، مهما طال انتظاري لأيّ تغيير.

ربّما كان الوقت في منتصف تشرين الأوّل لمّا كتبتْ كوجيما إليّ مكتوباً تقول فيه إنّها ترغب في لقائي. كان مكتوباً قصيراً. ذكرت فيه فقط أن ألاقيها في اليوم التالي، بعد المدرسة، في مكاننا المعتاد.

وجدت الورقة ملصقةً داخل طاولتي كالورقات الأخرى. ذهبتُ إلى الحمّام لقراءتها. شيءٌ ما تغيّر في خطّ يدها مذ رأيته أوّل مرّة. كان هو خطّ يدها نفسه، إلاّ أنّ الحروف الهشّة الرقيقة المكتوبة بقلمِ كبّاسٍ صارت أكبر حجماً وأكثف. كأنّها حُفِرت في الورقة حفراً. لكنّه كان هو خطّ يدها. وقد اضطرب عقلي لرؤيته.

لم يُرِحني ذلك، لكنّني كتبت «إنّني مشغولٌ في الغد»

في اليوم التالي، كتبت تقول إنّها تستطيع لقائي في أيّ يومٍ وفي أيّ وقت. وفي اليوم الذي تلاه، وجدتُ ورقةً أخرى داخل طاولتي تقول إنّ لديها ما تودّ قوله لي. لم أردّ على رسائلها.

لم أستطع حمل نفسي على لقائها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يطب لي النوم.

كلّ صباحٍ عندما أستيقظ، كانت تؤلمني المواضع نفسها من حلقي وصدري وكانت الآلام على الشاكلة نفسها، وكلّما شربت ماءً اشتدّ الألم. بعقلٍ فارغٍ وجسدٍ منهك، تدبّرت أمري بجرّ نفسي إلى المدرسة جرًّا، وكثيراً ما نعست وغفوت في الصفّ، وزعق بيَ المعلّمون. وقد انتشى نينوميا ورفاقه بذلك. سخن جسدي طوال اليوم لقلّة النوم، وطالما عَرَقْتُ بلا سبب، وترطّب جلدي.

حتى في البيت ألفيت مشقّةً في إلقاء السلام إلى ماما ووداعها. وفي غرفتي لم أمسّ كتاباً، دع عنك قراءته. مكثتُ أيّاماً بطولها على السرير والستائر مسدلة، مستلقياً فحسب. شهوتي للطعام قلّت، كأنّما فسدت، وشعرت بأنّ نصف رأسي مملوءٌ بقمامة. وكلّما هممتُ بالاستحمام لم أكن أرى من داعٍ لفرك جسدي أوّلاً فكنتُ أجلس بأوساخي في الحوض.

ذات صباح قبل ذهابي إلى المدرسة، سألتني ماما «متى ستعود إلى استشارة الطبيب؟ إنّه مختصّ. إذا لم تعمل بنصيحته سيتعفّن أنفك».

قلت إنّني بخير واتّجهت إلى الباب. أدركت أنّه مضى وقتٌ طويلٌ منذ زيارتي الوحيدة للمستشفى.

سألتني ماما عند الباب «أتعلم ما الذي يحلّ بأنفٍ متعفّن»؟

قلت «يسقط».

قالت محذّرة «أوه، لو أنّ الأمر لا يعدو ذلك! لا لن يسقط. سيتمزّق. أتعرف الفرق؟ عندما يتمزّق . ».

أخذتها الحماسة لمتابعة كلامها، لكنّني قلت لها إنّني أعرف ما الذي يحدث وخرجت.

في نهاية كانون الأوّل، أصبح عدم النوم عادةً لي. كنتُ لا أكاد أنام ساعةً حتى أستيقظ ثم أعجز عن العودة إلى النوم. وأجلس باقي الليل شاخصاً ببصري من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النافذة، حيث الظلام دامس في الخارج والرؤية متعذّرة، وفي آخر الأمر أستلقي وأغمض عينيّ مدّةً ثم أعود إلى الجلوس.

تشير الرزنامة على طاولتي إلى كانون الأوّل 1991. لم يمضِ إلاّ شهر. في الضوء الواهن قبل الفجر استلقيت على ظهري وحاولت مراجعة وقائع الشهر الفائت في ذهني، لكنّني لم أقبض على شيءٍ ذي بال.

وجدتُني أفكّر في الانتحار.

في أوّل الأمر، كان الانتحار كلمةً لا غير، فكرةً غامضةً مُنبَثّةً عن الواقع، تُشير إلى سبيلٍ يختاره أُناس آخرون للموت، أُناس لا أعرفهم. لكن ما إن أصبحت الكلمة تخصّني حتى اتُّخذت أغرب شكل، وشعرت بها تنمو بداخلي. لم يكن الانتحار شيئاً يحدث للغرباء فحسب. بل يمكنني تحقيقه إن شئت.

تحوّلت أفكاري إلى تدبير.

مرّرت أصابعي على معصمي حيث سأجرحه بسكّين، غير أنّ الإحساس —باليد اليمنى تَجرَح، وباليسرى تُجرَح— بدا بعيداً ولا يخصّني. إذا جرحتُ جلدي فسأنزف أكثر ممّا نزفتُ في القاعة الرياضيّة. لم أمُتْ في ذلك اليوم، لكنّني إذا جرحتُ معصمي فإنّني لا أفعل ذلك إلاّ لأموت.

فكّرت في الدواء لقتل نفسي. سأملأ حلقي بحبوبٍ بيضاء. ستتكوّم أسفل معدتي. تخيّلت اختلاط الحبوب بالأحماض في معدتي، وكيف سيؤثّر الدواء في جسدي، كيف سيقتلني. قد يرُقدني الدواء فلا ألاحظ أبداً ما يحدث. بدا ذلك الوسيلة المثلى لإنهاء حياتي، لكنّها ما زالت بعيدة المرام، إذ لستُ أعرف أيّ دواءٍ ينبغي أن أتناول وأين أجده وكم حبّةٍ أتناول. وكلّ ما استطعت التفكير فيه هو الكيفيّة التي بها تغادر الحرارة جسدي بعد أن تقتلني الحبوب. سأصبح جسداً بارداً.

ما الموت على أيّة حال؟ تركتْ هذا السؤال المستحيل ليملأ غرفتي المظلمة. فكّرت بأنّ هنالك دائماً، في كلّ مكان، وفي كلّ لحظة، شخصاً ما يموت. هذه ليست خرافةً أو مزحةً أو رأياً محضاً. الناس يموتون باستمرار. إنّها حقيقةٌ مطلقة. كيفما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عشنا حياتنا فنحن ميّتون عاجلاً أو آجلاً. وفي كلتا الحالَين، ليس العيش إلاّ انتظار الموت. وإذا كان ذلك صحيحاً فما جدوى العيش؟ لِمَ أنا حيّ؟ صرتُ كالمجنون، وطال أرقي ولم يغمض لي جفن، وتصعّدت أنفاسي. ثم باغتتني الفكرة إنّما الموتُ نوم، فأنت لا تعلم أنّك نائمٌ إلاّ إذا استيقظت في اليوم التالي، وإذا لم يأت الصباح فستنام إلى الأبد. لا بدّ أنّ الموت شيءٌ كهذا. عندما يموت الإنسان لا يعلم أنّه ميّت، لأنّه لا يرى ذلك يحدث أبداً، لا أحد يشهد موته بنفسه. باغتني هذا كلّه كأنّ أحدهم لكمني لكماً.

في بادئ الأمر، كانت رغبتي في الموت هي رغبةً في الاختفاء. أردت أن أمحوني وأن أهنأ بسلامٍ تامّ. لكن، إذا كان الموت لا ينطوي في الحقيقة على لحظةِ أموت فيها موتاً نهائيًا، فهل يمكنني الاختفاء فحسب؟ ألا يعني الموت أن يهيم المرء إلى الأبد في شيءٍ كالحلم؟ وإنّني لأعجب وأسأل مَن له أن يميّز العيش في هذا العالم من العيش في حلم؟

رأيتُني بثوبي المدرسيّ في تابوت، منخراي محشوّان بقطن. الناس متزاحمون حولي في المكان نفسه الذي أُقيمت فيه الجنازة التي حضرتها. على وجهي ابتسامٌ طفيف. أعلم أنّني إذا متّ فلن تكون هناك لديّ وسيلةٌ لأعرف كيف سيبدو العالم بعد رحيلي، لكنّني لم أقدر على مقاومة الرغبة في تخيُّل ذلك. في ماذا سيفكّر التلاميذ في صفّي؟ أحسب أنّ الأمر سيعتمد على ما سأكتبه في رسالة انتحاري، لكنّ نينوميا والآخرين قد يقعون في مشاكل. أو ربّما يتستّر عليهم باقي التلاميذ. أجزم أنّ بعض الناس سيلقون باللائمة عليّ لقتلي نفسي بسبب تنمُّر تَفِهٍ غير مؤذٍ. بل إنّني موقنٌ بذلك كلّ اليقين. وقد يقولون إنّني قصدت التوجُّه باتّجاه الانتحار منذ البداية، وإنّ الموت كان هو ما أردته. أو إنّني لم أستطع تدبُّر الأمر. لكنّ قتل نفسي وترك العالم ورائي لن يصلحا شيئاً. هل ذلك سينقذ كوجيما من التنمُّر أم أنّه سيزيد الوضع سوءاً؟ ولمّا أغمضتُ عينيّ ارتفعت هذه الأفكار إلى السطح، وطفت أمامي ثم انفجرت واختفت. مهما حصل فالناس دائماً ينسون. وإذا سمحتُ لنفسي بإزهاق روحي فلن يغيّر ذلك شيئاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدأت أبكي طوال الليل. لم يكن بكاءً بمعنى البكاء، بل كان شعوراً بانهمار الدمع من عينيّ، مثلما يدرك المرء أنّه يتعرّق. ولم أستطع إيقاف دموعي. سألت نفسي عمّا إذا كنت حزيناً، لكنّني لم أعرف ما الحزن. إذا عنى البكاءُ الحزنَ فقد كنت حزيناً حقًّا، لكن ألا يمكن أن يعنيَ ذلك العكس أيضاً؟ استمرّت دموعي في الانهمار على وجهي. وخفق صدري. مرّاتٍ لا حصر لها جلست مشلولاً على السرير وراقبت انجلاء الليل.

استمرّت كوجيما تكتب إليّ رسائل قصيرة، وطويلةً في بعض الأحيان.

كانت رسائل لطيفة. شوّقتني إلى لقاء كوجيما والحديث إليها في أمورٍ شتّى. لكنّني لسببٍ ما لم أستطع لقاءها. ولم أستطع حتى الردّ على رسائلها. رحلتنا الصيف الفائت، والأوقات التي أمضيناها على درج النجاة من الحريق، وكلّ الأشياء الأخرى التي حمتني تداعت الآن واندثرت، وما عادت هنا لتدفّئني.

الكلمات التي ملأت الصفّ كانت تتكسّر قبل بلوغها سمعي. أمضيتُ الأيّام كلّها جالساً. ولم أعد أتذكّر كيف أكون قويًّا. كغريبٍ أخذتْ أراقب جسدي وهو ينحلّ شيئاً فشيئاً. وعلى ضعف جسدي ووهنه، منحتني رسائل كوجيما سحراً غريباً، قوّةً منعشةً ساعدتني على التنفُّس. وفي تلك اللحظات، لم يكن ثمّة شيءٌ آخر سواها.

طرأ تغيُّرٌ واضحٌ على كوجيما وهي تسمح للآخرين بالتنمُّر عليها، فبدت هامدةً كفِراشٍ بالٍ، وأصبحت كأنّها مُحاطةٌ بدرعٍ قويٍّ كقوّة رسائلها. والحقّ أنّها هي من كوّن هذا الدرع بنفسها. لم يتغيّر شيءٌ في التلاميذ، لكنّني عرفت أنّها هي مَن تغيّر تغيُّراً لم يفهمه أحد، ولا حتى أنا. صحيحٌ أنّ الفتيات ما فتئن يركلنها ويأمرنها بقضاء حاجاتٍ لهنّ، لكنّني كلّما رأيت مزيداً من هذا قلّ فهمي لما أرى.

في الأحوال التي التقت فيها عيوننا كانت كوجيما تلتفت وتبتسم لي من زاوية فمها. شعرت بالغباء لعجزي عن الردّ على رسائلها، لكنّ تبسُّمها أنبأني بألاّ أقلق. كان ذلك أمراً حسناً. وكانت تطيل النظر إليّ حتى أشيح بوجهي.

في يوم الخميس التالي، ذهبت إلى المستشفى.

وصلت بعد الخامسة بقليل، وكالمرّة الماضية، وجدت الاستقبال والردهة مكتظّين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الناس، والألوان، وبرامج التلفاز، والأصوات التي سمعتها، والروائح التي شممتها بوجهٍ خاص، كان المكان هو نفسه على نحوٍ لم تشبْهُ شائبة. ولِمَ لا؟ فقد كان المستشفى هو نفسه بعد كلّ شيء، لكنّ هذا التشابه لم يفاجئني بإيلام، كما يفعل الحنين، ولم أستغرب أنّني قد فعلت هذا كلّه من قبل، أو خبرتُه من قبل. عرفت أين كنت، لكنّني لم أعرف متى كان ذلك. شيءٌ غريبٌ كان يحدث.

لمّا تقدّمت لاستلام ورقة التسجيل رأيت موموز بين وجوه الجالسين في الردهة.

جلس بثوبه المدرسيّ بين المرضى والمنتظرين لأخذ الدواء، جلس وحيداً على المقعد في الخلف.

ضاق صدري. وفجأة اندفعتُ وراء كشك هاتفٍ عموميّ. امرأةٌ في منتصف العمر كانت تمسك بالسمّاعة بين ذقنها وكتفها تحيّرتْ لمّا رأتني، وسرعان ما أشاحت بوجهها عندما نظرت إلى وجهي. أيقنتُ أنّ موموز لم يكن ليراني هنا، لكنّني أيقنتُ أنّه كان هو. موموز. وكان التفكير فيه فحسب يُسرّع نبضي.

خطر ببالي أنّني لم أصادف من قبل نينوميا ولا موموز ولا الصبية الآخرين خارج المدرسة.

ما كان يحدث في المدرسة كان يبقى فيها. وأينما ذهبتُ حملت معي عبء ما يفعله بي نينوميا وموموز وزملاء الصفّ، لكنّهم، في حقيقة الأمر، لم يشغلوا إلاّ نصف حياتي. لكن حين رأيت موموز خارج أسوار المدرسة شعرت بأنّني ضللت طريقي خارج الخارطة. فكّرت أن أنسى أمر الطبيب وأخرج من الباب الدوّار، لكنّني لم أقدر على الخروج حتى من المساحة التي كانت بين كشك الهاتف الأخضر وأصص النباتات.

غير أنّني بعد حينٍ توجّهتُ إلى موموز. وفي كلّ خطوةٍ خطوتها، كان حذائي الرياضيّ المطّاط، المصنوع من مادّةٍ غامضةٍ لا صلبةٍ ولا ليّنة، يحتكّ بأرضيّة الردهة. وبحذرٍ قطعت أرض الردهة. ثَقُل رأسي بالفراغ، فلم يكن عندي شيءٌ أقوله لموموز ولا رغبةٌ لرؤية وجهه. لم أعرف ما الذي كنت أفعله.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان مومو جالساً بتثاقلٍ في الطرف البعيد من المقعد، وذراعاه معقودتان، وهو يحدّق إلى حذائه. وقفت قريباً جدًا منه حتى كاد حذاءانا يتماشان.

وقفتُ في مدى بصره وشعرت بنظره يصعد من قدميّ إلى ركبتيّ، ثم من ركبتيّ إلى فخذيّ، ثم إلى تَزقُوَتي، وزفر حتى وصل نظره أخيراً إلى وجهي. تحوّلت عيناه عنّي مثلما تعبر ظلالُ السحب الشمسَ في يومٍ بلا ريح. لم يتحرّك، وفي آخر الأمر مال بذقنه.

وقفت هناك دون قول شيءٍ ونظرت إليه من علٍ.

نظر إليّ مومو لحظةً أو لحظتَين قبل أن يعاود النظر إلى قدمَيه. بدت عيناه خاويتَين، كأنّما تنظران إلى ملصق إعلان التحصين الذي كان مثبّتاً على الحائط. ذكّرني وجهه بقفّازين بيضاوَين جديدَين.

لكي لا أركل قدمَيه قفزت فوق ركبتيه وجلست على المقعد الفارغ إلى جانبه. كان مسند الظهر البلاستيكيّ بلا لون. وعلى المقعد تُرِكت صحيفة، من يدري كم مرّةٍ قُرِئت لتنتفخ وتتغضّن على هذه الشاكلة.

لم يتحرّك مومو ولم ينظر إليّ لمّا قفزت فوق ركبتَيه. ولم يخطر ببالي أنّه كان يدّعي، بل أظهر لامبالاةً خالصة. جلست قربه وعقدتُ ذراعيّ أيضاً، ونظرتُ إلى حذائي. كأنّ مومو كان يفكّر في شيءٍ لا علاقة له بي.

بقيتُ جالساً هناك حيناً، ولم ينادِ موظّف الاستقبال مومو، ولم يكن عنده سببٌ لمناداتي.

لم أعرف إذا كان مومو قد انتهى وينتظر أوراقه أو دواءه، أو إذا كان ما يزال ينتظر الطبيب. ولم تكن تبدو عليه إصابةٌ ولا مرض.

لبثنا مدّةً جالسَين هناك فحسب.

تململ الناس من حولنا كأنّما يعوّضون عن سكوننا. جلست هادئاً قرب مومو وكان الباب الدوّار يفتح ويغلق. مشت الممرّضات على الأرضيّة بأحذيتهنّ الناعمة وألقَينَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التحيّة إلى المرضى بتكلّف شديد.

لم أعرف هل جلسنا هناك دقائق أم أكثر من ذلك، لكن بمرور الوقت، غشيني النعاس، فاسترخت أعصابي، وكلّما صددته اعتراني الصداع. لم أنم الليلة الفائتة وكان أشدّ ما يقهرني هو النعاس في أثناء الحصص، ثم مرّةً أخرى في مثل هذا الوقت مساءً. غام لون المِظاط الأبيض المحيط بحذائي واستحال رماديًا، وكان عليّ رفع حاجبيّ لأبقي عينيّ مفتوحتَين.

فجأة قام موموز ومشى. وقفتُ وتبعته. سارع الخطى في الغرفة المكتظّة دون أن يلتفت لينظر إليّ. تبعته إلى خارج الباب الدوّار وقد جَنّ الليل فجأة.

لم يكد النهار ينجلي قبل دقائق حتى أقبل الليل بظلامه. سَرَت في الهواء برودةٌ شديدة، وهبّت ريحٌ أرجفت أغصان الأشجار. رأيت موموز بثوبه المدرسيّ من الخلف وهو يدخل بين أفواج الناس المتّجهة إلى الباب، مختفياً بسرعةٍ ضاهت، في الأقلّ، ضعف سرعة مشيه، كأنّ الليل ابتلعه.

تبعتُه وأنا أكاد أركض. أرض المستشفى شاسعة، موقف الدرّاجات واسع، وبدت الدرّاجات الكثيرة الواقفة هناك كصفائح معدنيّة متتابعة. وفي المشهد الممتدّ، أُقيمت أعمدة إنارةٍ صغيرةٌ زرقاء بينها مسافاتٌ متساويةٌ وُضِعَت بها مقاعد. ولمّا أوشك موموز على بلوغ البوّابة لحقتُ به وألفيتُني أمسك بياقته وأشدّها.

تأرجحت ذراعا موموز في ضوء الإنارة داكن الزرقة، ووقع على الأسفلت متّكئاً على يده. نظر إليّ لحظة، ثم أعرض عنّي، وبصمتٍ وقف ونفض الغبار عن ثيابه. نظر إليّ دون أن يواجهني. لم أشح بوجهي هذه المرّة وبادلته النظر.

«ما الخطب»؟ قال موموز واضعاً يدَيه في جيبَي قميصه. مال عنقه قليلاً. في ظنّي أنّي لم أسمع صوته بهذا القرب من قبل، فقد كان مختلفاً كلّ الاختلاف عن الصوت الذي أتذكّر. ولمّا لم أجب، كرّر سؤاله «ما الخطب»؟

لم يكن عندي شيءٌ بعينه أقوله، لكنّني قلت «ينبغي أن نتكلّم».

لم تتبدّل تعبيرات وجهه، وقال «نتكلّم؟ أتعني أنت وأنا»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت «أجل».

«لا لن نتكلّم».

قلت «بل سنتكلّم».

«لن نتكلّم».

ثم نظر إلى وجهي. بادلته النظر وقد شعرت بغباء ما قلت. وارتعشت ركبتاي وأطراف أصابعي.

سألني «وما الذي يجعلك تعتقد أنّني سأصغي إليك»؟

قلت «لا شيء».

تكلّف الابتسام، وقال «يمكن تأجيل ما تودُّ قوله مهما كان، فليس بيننا ميعاد».

قلت «كنت أعلم أنّك ستكون هنا. رأيتك تدخل». كان ذلك كذباً. «أنا بحاجةٍ إلى الحديث إليك».

توقّف موموز وعاين وجهي. سمعته يتنفّس تنفُّساً سريعاً.

ضحك، وقال «عجيبٌ أمرك. كم سيطول كلامك؟ والأهمّ هل له علاقةٌ بي»؟

«إنّنا بحاجةٍ إلى الحديث فحسب».

«حسناً فليكن». مشى موموز إلى المقعد تحت عمود الإنارة الأقرب وجلس. لم أجلس أنا هذه المرّة[2]

في آخر الأمر، قلت له «لا أستطيع النوم». لم يكن عندي ما أقوله، دع عنك الحديث في أمورٍ بعينها، لكنّ لساني لفظ بهذه الكلمات كأنّ موموز لم يكن هناك. وكرّرت الكلمات في عقلي؛ لا أستطيع النوم. ما قلته كان صحيحاً، لم أكن أنام. «لم أنم منذ نحو شهر».

نظر موموز إلى يدَيه على حجره وإلى أطراف أصابعه «عجباً! وإذاً فأنت تعاني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انعدام القدرة على النوم»؟

قلت «نعم».

«مهلاً، ما شأني أنا بذلك»؟ وقد بان على وجهه أنّه لا شأن له بذلك حقًّا.

«بسببكم أنتم».

بدا مرتبكاً بحقّ، وقال «من تعني بأنتم»؟

قلت «إنّك تعلم، أنتم».

أومأ موموز برأسه وحكّ زاوية عينه.

«حسناً، سأدّعي أنّني أعرف عمّن تتكلّم. ما الذي فعلناه»؟

كدتُ أقول تتنمّرون عليّ. لكنّني لم أقدر على التلفُّظ بذلك. بدا من الخطأ قولها على هذا النحو. ابتلعت ريقي واصطكّت أسناني وتنفّست بعمق. أردت أن أقول اسمع، أنتم تفسدون حياتي، لكنّني شعرت بأنّ هذا القول لن يعبّر عمّا أنا فيه حقّ تعبير، وعمّا كان موموز والآخرون يفعلونه بي. ولمّا عجزت عن الإتيان بقولٍ مفيدٍ لم أقل شيئاً.

قال موموز بصوتٍ بَرِم «هيّا، قل ما عندك».

أخفيتُ أصابعي المرتعشة في جيب قميصي، وقلت «أنتم تؤذونني. طوال الوقت».

«نؤذيك»؟

«عندما تأمرونني بفعل أشياء وتركلونني وتلكمونني. إنّكم تؤذونني بسبب حَوَل عينِي».

«وتريد أن توقف ذلك؟ أهذا ما تقوله لي»؟

«ربّما».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضحك موموز، وقال «ربّما؟ بربّك ماذا تعني بربّما»؟

«لماذا . . » قلت لكنّني عجزت عن إكمال قولي. وأنا جالس هناك بصمت، زفر موموز وسألني ما الخطب، وقد نفد صبره.

«لماذا فعلتم ما فعلتم؟ لا يحقّ لأحدٍ أن يؤذي أحداً آخر. لا يحقّ له». زِنتُ شكل كلّ كلمةٍ وثقلها. «لم أفعل شيئاً لأستحقّ هذا»

عقد موموز ذراعيه ونظر إلى ركبتيّ.

قلتُ «لا يهمّني أن أبدو غريباً في عيونكم، فهذا هو أنا. ولا أسألكم أن تعدّوني إنساناً سويًّا».

وأنا أركّب الكلمات تجمّع اللعاب على لثّتي، لكنّني شعرت بجفاف فمي، فلعقتُ شفتيّ. كان موموز جالساً على المقعد ينظر إلى أظافر يده.

ابتلعت ريقي وتابعت الكلام.

«لا يحقّ لأحد. وأنتم تنظرون إليّ كأنّني مسخٌ وتعرضون عنّي. اعتدت ذلك. ولكم أن تظنّوا بي ما شاءت لكم الظنون، لكن ليتكم تتركوني وشأني فحسب . . ما اخترتُ أن أولد هكذا، ولا اخترتم أنتم أن تولدوا بعيونٍ سليمة. وبذلك نحن سواء، أنتم وأنا. ليست مشكلتي ظنّكم بي أنّي مقزّز. ولا بأس بذلك. ولكن ذلك لا يعني أنّه يحقّ لكم إيذائي ولا إيذاء أيّ شخصٍ آخر»

ارتعدت يداي داخل جيبيّ على نحوٍ ظاهر. ولكي أهدّئهما ضممتُ أصابعي وأحكمتُ قبضتيّ. كانت وراءنا فتيات يقدن درّاجاتهنّ، سمعتهنّ يتحادثن مبتعدات.

رفع موموز حاجبه، وقال «لا أعرف، لا أفهمك».

سألته «أيّ جزءٍ لم تفهم»؟

قال «أوّلاً؛ لمّا قلتَ إنّنا سواءٌ فقد جانبت الصواب. وكما ترى، لستُ أحول العينَين، وأنا لستُ أنت. أنت الأحول، وأنت لستَ أنا».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضحك.

«محالٌ أن نتشابه. ثانياً؛ قلتَ توًّا إنّه لا يحقّ لأحدٍ أن يؤذي أحداً آخر، وتريدنا أن نتركك وشأنك لأنّك لم تفعل شيئاً. لا أفهم ذلك».

سألته «وما العسير في فهم ذلك»؟

«لا أحد يفعل أيّ شيءٍ لأنّه يحقّ له ذلك. الناس يفعلون ما يفعلون لأنّهم يريدون ذلك».

تنحنح موموز وفرقع مفاصل سبّابته وهو يتكلّم.

«ماذا كان ذلك الشيء الآخر الذي قلتَه؟ قلتَ إنّنا نفعل ذلك بلا سبب، أليس كذلك؟ أوافقك الرأي، لكن ما الضير؟ ما الخطأ في ذلك؟ أعني أنّك إذا أردتنا أن نتركك فأنت حُرٌّ في إرادة ذلك، وأنا حُرٌّ في تجاهل ما تريد أنت. هنا لا معنى لما تقول. يُغضبك أنّ الناس لا يحسنون معاملتك كما ينبغي، أليس كذلك؟ ما يحصل الآن خير مثال. يمكنك أن تأتي إليّ وتقول إنّك تودّ الحديث، لكن ذلك لا يعني أنّه عليّ الإصغاء إليك. أتعرف ما أقصد»؟

استعدت في ذهني ما قاله موموز توًّا ونظرتُ إلى يدَيه.

قال «وفوق ذلك، تلك القصّة التي رويتَها عن شكلك وعن أنّه سبب تصرُّفنا معك على ذلك النحو، أقول لك إنّ شكلك لا علاقة له بتصرُّفاتنا».

كأنّ كلماته حقنت دمي بالرصاص.

لا علاقة له بتصرُّفاتهم؟ سمعت قلبي يخفق خفقاناً سريعاً، وشعرت بضغطٍ شديدٍ داخل أذنيّ. ولشدّة توتُّري لعقت شفتيّ، وشهقت وزفرت. ولمّا تكلّمتُ خرج صوتي مُجهَداً.

قلتُ «ما معنى ذلك»؟

نظر موموز إليّ وضحك كأنّ الأمر مُسَلٍّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«معناه أنك أسأت الفهم. أعلم أنك غرضةٌ للتنمُّر في المدرسة، وهو ليس بالشيء الذي أتشوَّق إليه أو أستطيبه. ما هَفْني؟ وأعلم أنَّ الجميع يسخر منك، ويركلك، ويلكمك، وأعلم أنَّ ذلك يحدث كلّ يوم، لستَ مخطئاً في هذا الشأن. وعيناك مضطربتان والجميع يناديك بالأحول. ذلك صحيح، لكنَّ هذا ليس إلاَّ مصادفة. لا علاقة لعينَيك بما يحدث في المدرسة. لستَ لهذا السبب عرضةً للتنمُّر».

قلت «لا أعلم ما تعني. أنتم تسخرون من عينيّ دائماً وتنعتونها بنعوتٍ غبيَّة. تنادونني بالأحول وتضربونني. والآن تقول إنَّ هذا ليس هو السبب»؟

ضحك موموز، وقال «اسمع، اسمع. لا سبب لكونك أنت من يتعرَّض لذلك، فأيّ شخصٍ آخر كان يمكن أن يكون هو المقصود. لكن اتَّفقَ أنَّ كنت أنت هناك واتَّفق أنَّ كنَّا نحن في مزاجٍ ما، فسارت الأمور على ذلك النحو».

بذلت مجهوداً كبيراً لأكرِّر قولي «لا أعرف ما تقصد»

سأل موموز «أيّ جزءٍ لم تفهم؟ لا أحد يتعمَّد إزعاجك، دون غيرك، بسبب عينَيك. ذلك كلّ ما أقوله». وزفر بغضب.

«وإذاً فلماذا أنا من بين الجميع في الصفّ»؟

لم أكن على يقينٍ من كلامي الآتي لكنَّني قلته.

«إنَّكم كثيراً ما تضايقون كوجيما أيضاً. تنعتونها بالقذرة وتضربونها بسبب مظهرها. إذا كان ذلك يحدث مصادفة، فلماذا يحدث لنا نحن الاثنَين دائماً؟ ولماذا نُعاقَب»؟ ارتعش صوتي أكثر من ارتعاش يديّ.

نظر موموز إليّ باستياء، وقال «كوجيما؟ أوه، تلك البنت»

عصفة ريحٍ هزَّت الأشجار.

قال موموز «فكِّر في الأمر. ليس هناك إلاَّ المصادفة. هكذا هي الحياة. كلامي هذا لا يقتصر على تعرُّضك للتنمُّر. هل من أسبابٍ لكلّ ما يحدث في هذه الدنيا؟ إنَّني موقنٌ بأنَّ الجواب هو لا. وحقًّا، ما إنْ يقع حدثٌ ما حتى يفسِّره المرء تفاسير شتَّى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تبدو له مقنعة. غير أنّ كلّ شيء يبدأ من لا شيء. دائماً. وُلِدتَ أنت بلا سبب، وكذلك أنا. لا عِلّة لوجودنا هنا في هذه الدنيا، لكن، لنا أهواء وأغراض، لستُ أدري، ففي بعض الأحيان ترغب في أن تفعل شيئاً فحسب، وتنازعك نفسك إليه، كأنْ ترغب في لَكْم أحدهم، أو ركله، أيّ أحدٍ يتّفق وجوده هناك. السبب الوحيد لحدوث ذلك لك هو مصادفة وجودك في مكانٍ بحثَ فيه أحدهم عن امرئٍ ليلكمه. ذلك كلّ شيء».

«ذلك كلّ شيء»؟ كرّرت الكلمات دون أن أظفر بمغزاها .

«أجل. ذلك كلّ شيء. لا يهمّني أمرك. ولا أكترث لما يفعله بك نينوميا والآخرون. قد أكون هناك، لكنّني لا أفكّر في الأمر. لا رأي لي في الموضوع، ولا يُفيدني في شيء. لذا، أجل، ذلك كلّ شيء».

قلت بهدوء «وإذاً فأنت تعتقد أنّه ليس من السوء معاملة الناس هذه المعاملة»؟

زفر موموز مرّةً أخرى، وقال «رُوَيدَك. أتحسب أنّ لهذا علاقة بالحَسَن والسيّء؟ ليس هذا ما أعنيه. إنّما حاولت توضيح الأمر فحسب».

لم أقدر على الكلام ولا على الحركة، ولم أعرف بِمَ أجيب، فوقفت هناك أنظر إلى ركبتَي موموز. فرقع أصابعه.

«لا معنى لهذا كلّه. يفعل الجميع ما يحلو لهم فحسب. تسيطر عليهم نوازع النفس تلك، فيسعون إلى إرضائها. ما من شيءٍ حَسَنٍ أو سيّء، وإنّما هناك شيءٌ يريدون فعله، وتهيّأت لهم الفرصة لفعله. وهذا ينطبق عليك أنت بالمثل. أنا على يقينٍ من أنّك إذا أردت فعل شيء، وكان بوسعك فعله، فستفعله، أليس كذلك؟ إنّه المبدأ نفسه».

صحت قائلاً «أنت مخطئ». خمشت باطن جيبَيّ بأظافري. «إنّك لا ترى الأشياء إلاّ كما ترغب. ليس المبدأ نفسه أبداً. ثمّة فرقٌ كبيرٌ بين أن تقصد مكاناً تودّ الذهاب إليه وبين أن تلكم أحداً بلا سبب».

«لا أقول إنّهما سيّان، بل المبدأ نفسه. أتعرف ما أقصد»؟

قلت «إنّك أعْرَفُ من ذلك. تعرف أنّ ما تفعله خطأ»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هزّ موموز كتفيه، وقال «لستُ أدري. لكنّني، حقًّا، لا أكترث».

سألته «ولماذا، إذاً، تفعلون فعلتكم دائماً بحيث لا يكشفكم أحد؟ لأنّكم تشعرون بأنّكم مذنبون. لذلك تأمرونني دائماً بألاّ أنبس بكلمةٍ وبأن أخفي كلّ شيءٍ عن المعلّمين .. لذلك لا تتركون أيّ علاماتٍ عليّ. إذا كانت تلك نوازع فطريّةً فَلِم لا تفعلون ما تفعلون أمام الجميع؟ لأنّكم تعلمون أنّه خطأ. لذلك لا تفعلونه بمرأى ومسمعٍ من الجميع».

عبس موموز وبدا كأنّه نسي شيئاً، وقال «ولِمَ نفعل ذلك؟ وما أثر ذلك»؟

قلت «لأنّكم إذا كنتم تعتقدون بصحّة ما تصنعون فأليَق بكم أن تفعلوه على الملأ».

قال موموز «أحسب أنّي قلت لك إنّ الأمر لا يتعلّق بالصواب والخطأ. ألا تسمعني؟ لا أحد يفعل شيئاً لأنّه صواب. لا يفعل الناس الأشياء لهذا السبب».

«ذلك ليس .. ذلك ليس صحيحاً».

«بل صحيح».

زفرتُ زفيراً طويلاً. رفعتُ نظري وهززتُ رأسي. بَرَدَ الهواء وأظلمت السماء. إذا خزّرتُ عينيّ فسأرى حشراتٍ بيضاء تتطاير على حافّات الضوء. خلعت نظّارتي وعركت عينيّ محاولاً تذكّر كلّ ما قاله موموز، ولم أُفلِح. كلّ ما استطعت فعله هو الوقوف هناك. قلت «لو كنتَ مكاني وقال لك أحدهم هذه الأمور كلّها، فهل ستصدّقه»؟

«ما الذي يجعلك تعتقد أنّني أريدك أن تصدّقني؟ لستَ بحاجةٍ إلىّ موافقتي. أنت حُرٌّ في اعتقاد ما يحلو لك».

«لذلك ..».

«اسمعني. لا وجود لِدُنيا جميلةٍ حيث الجميع يفكّر على النحو نفسه ويفهم بعضهم بعضاً فهماً حسناً. لا وجود لها. قد تظنّن أنّها موجودة، لكنّها ليست حقيقيّة. إذا أمعنت النظر في ما يحدث فستجد أنّ كلّ امرئٍ يعيش في عالمٍ يخصّه. وعندما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتلاقى . ».

«ذلك هو اعتقادك . ».

تابع موموز حديثه.

«عندما يتلاقى الناس يبدون كأنّهم مترابطون وهم ليسوا كذلك. مثلما قلتَ أنت قبلاً؛ إنّك تعتقد أنّ الآخرين يتنمّرون عليك بسبب عينيك، وهذا هو ما لا أرى له معنًى، وليس يهمّني أن تسوء أحوالك وأنّك لا تستطيع النوم. لا شأن لي بذلك، ولا أشعر بشيءٍ نحوه. لا شيء. لم تخطر مشاكلك ببالي البتّة، حتى إنّي لا أراها تنمّراً. ولستُ أعني بكلامي هذا نحن الاثنَين فقط، فهو يشمل الجميع. لا تجري الأمور مثلما نرغب ونشتهي، فلا تأثير لرغباتنا في ما يحدث في الحياة. جميعنا عالقٌ في أخلاقه الخاصّة سعياً إلى الحصول على ما يريد».

تنحنح واستأنف كلامه.

«ما عنيته هو أنّك إذا أردت أن تمنع ما يحدث لك فخيارك الوحيد هو أن تفعل شيئاً بنا. بنينوميا. ومثلما قلت لك، لا يهمّني ذلك. ولا أرجو منه نفعاً. إنّه شيءٌ خطر ببالي في هذه اللحظة. فكرة. فرصةٌ حانت. لذلك نقف هنا نتحدّث، أليس كذلك»؟

قلتُ مهمهماً لنفسي أكثر من قولي له «وماذا عن عواطف الناس»؟

قال موموز «ماذا عنها؟ أليس جليًّا أن لا أحد سيحفل بعواطفك؟ لا تقل لي شيئاً غبيًّا مثل أنّ ثمّة ما يوجب عليّ التفكير في عواطفك. مَن ذا الذي يفعل ذلك»؟

ضحك موموز بصوتٍ عالٍ. انعقد لساني وأنا أراه مستغرقاً في الضحك. لم يستطع التوقُّف.

«كلُّه سيّان. الفنّ، الحرب، كلّ شيء. هذا طيّب المذاق، وذاك جميل. هذا صدق، وذاك كذب. ذلك هو كلّ حديث الناس. ولا نهاية له. إنّه يستمرّ فحسب. الناس لا يخرسون، فهذه هي الحياة. لا يهمّ إن غضبوا أو فرحوا، فهم يستطيبون هذا الهراء».

هزّ موموز كتفَيه وحرّك رقبته ففرقعت مفاصلها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال «لكن هذه النوازع تخيفني أحياناً ولا أجد من يحميني من نفسي».

قهقه موموز. اعتقد أنّ ذاك كان مُضحكاً، واستغرق في الضحك حتى تدلّت خُصَل شعره على عينَيه. ثم أبعدها واشتدّ ضحكه. تلألأت أسنانه البيضاء بين شفتَيه.

«يا هذا، إلى متى سنتكلّم»؟

لم أعرف بم أجيب.

قال مبتسماً «أحسب أنّني وضّحت لك الأمر توضيحاً حسناً».

نظرت إلى عينَيه.

«ما أنت بفاعلٍ إذا أنا قتلتُ نفسي»؟

قهقه موموز مرّةً أخرى.

ولم يمنعني ضحكه من الكلام.

«ماذا لو تركتُ رسالةً أكتب فيها كلّ ما فعلتَه؟ كلّ شيء بحذافيره».

قال موموز وقد كفّ عن الضحك «حسناً. أحسب أنّ ذلك سيكون مزعجاً، لكن لِمَ سيهمُّني الأمر على أيّة حال؟ ما نحن إلاّ صبيّان. لا نقترف جرائم في هذه السنّ. وهذا التنمُّر سيمضي في طرفة عين، فهو ليس شيئاً حاسماً. أمورٌ كهذه تخضع للتفسير والتأويل».

سألته «ألا تشعر بالذنب»؟

«ذنب»؟

«لا أقصد عندما تكون مع نينوميا والآخرين. بل عندما تكون بمفردك، ألا تشعر بالذنب ممّا اقترفت يداك»؟

قال «أبداً».

«لكن، إذا عانى فردٌ من أهلك هذه المعاناة، أفلن يؤلمك ذلك»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«اللعنة! بلى سيؤلمني». فاجأني وجه موموز. «أتظنّني وحشاً من الوحوش؟ لي أختٌ صغيرة، لا أعلم إن كنت تعرف هذا، وأحبّها كثيراً، ولن أسمح بحدوث شيءٍ كهذا لها».

«أترى؟ كيف تؤذيني أذًى لا تتمنّاه لامرئٍ من لحمك ودمك»؟

«هذان شيئان يختلف أحدهما عن الآخر. لِمَ لا أفعل بالآخرين أفعالاً لا أريدهم أن يفعلوها لأختي»؟

شَخَصَ موموز ببصره نحوي. وقال «إذا كان الأمر لا يروقك فمنعه يتوقّف عليك لا على أيّ أحدٍ آخر. إنّه بهذه السهولة. أحرى بك أن تعرف أنّ تلك القاعدة القائلة بأن تعامل الآخرين مثلما تريد أن يعاملوك ما هي إلاّ هراء. هراءٌ محض. ولا يقول هذا لنفسه إلاّ مَن لا حول له ولا قوّة ولا موهبة. أفِق يا هذا».

ضحك.

قال «هيّا، فكّر في الأمر. مثلاً، انظر إلى هذا الرجل». أشار موموز ورائي محرّكاً فكّه. التفتُّ ورأيت عائلةً من ثلاثة أفرادٍ تسير نحو البوّابة. ربّما كان الأبوان في منتصف الأربعينيّات من العمر وابنتهما أكبر منّا بقليل. كانت ترتدي زيّ المدرسة الثانويّة.

«لستُ أعرفهم كما ترى. هَبْ أنّ ابنته ظهرت عاريةً في ڤيديو أو جامعها رجالٌ من هنا وهناك، نعلم أنا وأنت ماذا سيكون ردّه. قد نَكْبِتُ عواطفنا معظم الوقت، لكن ثمّة ما يُثيرها ويخرجها أحياناً. كلانا يعلم أنّ هذا الرجل يشاهد أفلاماً إباحيّةً يجامع فيها شبابٌ فتيات، وفي حياته الحقيقيّة يزور أماكن تمكّنه من مجامعة فتيات. يفعل ذلك كأنّه شيءٌ طبيعيّ. لكن أتعرف؟ لكلّ هذه الفتيات آباء. عندما يباعد ما بين ساقَي فتاة، أتحسب أنّه يخطر بباله أنّها ابنة أحدهم الصغيرة؟ كلاّ قطعاً. لكنّ ذلك هو معنى أن تضع نفسك موضع شخصٍ آخر، أليس كذلك؟ أعرف، أعرف أنّ الأمر ليس سيّان ويختلف بينك وبين أحدٍ آخر، أليس كذلك؟ حتى إنّه لا يمتُّ إليه بصلة . لكن ثِق بأنّ ما من رجلٍ يفكّر في ما يشعر به والدُ فتاةٍ حينما تنزع هي عنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثيابها وتباعد ما بين ساقَيها. لا تُسء فهمي. ذلك ليس أمراً سيّئاً. لا شأن له بالحَسَنِ والسيّء. الجميع يفعلون ما يوذون فعله، وما يصلح لهم».

عرك عينَيه وهو يسترسل في حديثه.

«كان الناس سيعيشون في دنيا بلا تناقض لو أنّهم كانوا يحيون وفق قواعد ذهبيّة. لكنّنا لا نعيش في دنيا كهذه. لا أحد يعيش فيها. الناس يفعلون ما يصلح لهم، وما يسعدهم. وإذ إنّ لا أحد يرضى بالأذى لنفسه، يَتَفيقَه الناس ويكثرون الكلام فيحسن معاملة الآخرين، ومراعاتهم، وسوى ذلك من هُراء. لا تقل إنّي مخطئ، فالجميع يفعلون أشياء لا يوذون أن يفعلها بهم الآخرون. الحيوانات المفترسة تأكل فرائسها، ولا نفع يُرجى من المدارس سوى فصل التلاميذ الذين يتّصفون بصفاتٍ تؤهّلهم للنجاح عن الآخرين الذين لا يتّصفون بها. هذا هو المغزى بإيجاز. أينما وجّهت وجهك، فثمّة قويٌّ يسيطر على ضعيف. لا مهرب حتى للحمقى الذين يظنّون أنّهم ظفروا بالإجابة من ترديد أقوالٍ مأثورةٍ جميلةٍ تصف كيف ينبغي أن يكون حال الدنيا. لأنّ الدنيا الحقيقيّة تتربّص بهم في كلّ مكان».

أحسستُ بثقل وجهي، وقلت «لا جدوى إذاً. هل نواصل العيش فاعلين ما يحلو لنا»؟ هدأ صوتي هدوءاً شديداً حتى تعذّرت معرفة مَن كنت أكلّم، موموز أم نفسي.

قال لي «عندما كنتَ صغيراً، ربّما قيل لك إنّ مصيرك جهنّم إن فعلت شرًّا. أليس كذلك»؟

لم أجبه.

ضحك، وقال «إليك هذا؛ لا وجود لجهنّم والجحيم. كلُّ ذلك زغمٌ وتلفيق. لا معنًى لأيّ شيء، فكان لزاماً على الناس ابتداع معنى. الضعيف عاجزٌ عن مجاراة الواقع. لا يقدر على تحمُّل الألم والحزن، دع عنك تحمُّل حقيقة أنّ الحياة بلا معنى، وهي حقيقةٌ ظاهرة».

«لا أحد يفكّر هكذا»، بمشقّةٍ خرجت منّي الكلمات .

قال موموز هازئاً «إلاّ من كان بذي عقلٍ سليم. اسمع، إذا كانت هناك نارٌ فنحن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نعيش فيها الآن، وإذا كانت هناك جنّةٌ فنحن أيضاً نعيش فيها الآن. هذا هو كلّ شيء. وهو ليس بذي شأن. أتعلم؟ أحسب أنّ ذلك عظيم»

بادلته النظر.

قال «كُفّ عن تلقين نفسك هذه الترّهات الحمقاء. ليس لك إلاّ أن تحمي نفسك».

«ماذا لو . ». قلتُ وزفرت قليلاً محاولاً تنقية رأسي من الفوضى. «ماذا لو قلتُ إنّني سأقتلك».

قال بلا تردّد «سأقول لك اقتلني إذا كنت تعتقد أنّك تستطيع ذلك. افعل ما تستطيع. افعل ما تشاء. لا أحد سيمنعك. وهنا مكمن المسألة، فعلى كثرة ما سنح لك من فرصٍ لم تقتل أحداً منّا. حسناً، القتل شيءٌ متطرّف. ولكن، فكّر في ما حدث في ذلك اليوم عندما أدخلنا رأسك في كُرة الطائرة وركلناك في الأنحاء. فعلنا ذلك، لكنّك لم ترُدّ بالمثل قطّ. لِمَ لا؟ تلك هي المشكلة. ربّما قلت لنفسك إنّهم كُثُر، لكن لم تكن تلك هي المشكلة. ماذا لو قلت لك أدخِل رأسي في كرةٍ واركلني بكلّ ما أوتيت من قوّة؟ وإنّني لن أغضب، ولن أردّ الركل. أتعتقد أنّك ستفعل ذلك»؟

«لا . . » بدأت أتكلّم لكن كثرة اللُّعاب منعتني. بلعت ريقي وقلت «لا أريد فعل ذلك».

قال موموز متبسّماً «أترى؟ تلك مشكلتك. هل لأنّك لا تريد أم لأنّك لا تستطيع؟ ما الذي يمنعك من مواجهتنا بسِكّين؟ إذا حاولتَ فستتغيّر الأمور، لكنّك ما زلت غير قادرٍ على ذلك. لماذا؟ هل أنت خائفٌ من أن يُلقى القبض عليك؟ لك فعل ذلك ولن يكون جُزماً».

«لا ضير إذا كان جُرماً»، لمّا خرج صوتي انتفض جسدي كلّه. «إنّما لستُ أريد فعل ذلك».

ضحك موموز، وقال «ألأنّك ستشعر بالذنب؟ حسناً، ولكن إذا كنّا نحن لا نشعر بالذنب فلماذا تشعر أنت بالذنب؟ أيُنا على صواب؟ أتعرف؟ كلا الأمرين سيّان».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت صامتاً.

«المهمّ هو أنّك لا تستطيع فعل ذلك. لا تستطيع. لذلك لم تقل قطّ إنّك ستقتلنا حتى عندما جعلنا منك كرة قدم. لم تفعل أيّ شيءٍ لأنّك لا تستطيع. في هذه الدنيا بعضهم يستطيع ارتكاب أفعالٍ لا يستطيع بعضهم الآخر فعلها. في المدرسة التحضيريّة طفلٌ ثريٌ يأمره الأطفال الآخرون بجلب مالٍ من البيت كلّ يوم. وبعض الناس يطيب لهم مشاهدة آخرين يستمنون أمامهم. ونحن لسنا كذلك. لا أقول إنّ بعضنا أفضل من بعضنا الآخر. عنيتُ أنّ هناك من يستطيع فعل أمورٍ لا يستطيع آخرون فعلها ثمّة أشياء يوذون فعلها وأشياء لا يوذون فعلها. لكلّ امرئٍ ما يحبّ وما يكره. ما أسهل الأمر وأيسره! لا يرتكب بعض الناس إلاّ أفعالاً يأمنون عقوبتها».

غالب موموز تثاؤبه.

«لكن لا شيء من ذلك يستلزم سبباً لحدوثه. نأتي هذه الأفعال بلا سبب. نستطيع فعلها. نستطيعها نحن. ولا تستطيعها أنت. ولا سبب لذلك أيضاً. هكذا هو الأمر فحسب، في الأقلّ الآن. أو بعد ستّة أشهر، أو سنة؟ من يعلم؟ من يهتمّ»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل السابع

عادت إليّ حواسي وتنبّهت لمّا نادتني الممرّضة .

قادتني مرّةً أخرى إلى غرفة الفحص. دخل الطبيب وعاين أنفي وسألني عمّا إذا كنت أشعر بتحسّن.

ضحك، وقال «اسمع، إنّنا لا نرغمك على المجيء إلاّ إذا عرض عارضٌ ما، لكنّك ينبغي أن تتابع حالتك بنفسك وتكون محيطاً بها». اعتذرت له عن تأخّري.

أدنى وجهه من وجهي وفحص ملامحه وكان كأنّه يرسم دائرةً حول أنفي بأنفه، وقال «أنت محظوظ، أنفك يبرأ، وفي سبيله إلى التعافي التامّ. هل يؤلمك»؟

«لا، ما عاد يؤلمني».

«لحسن الحظّ أنّه لم يُكسَر».

قلت «أدرك ذلك».

«هل تناولت مُسَكّن الألم»؟

«مرّةً واحدةً فقط، في الليل».

أومأ الطبيب برأسه إيماء الرضا، ثم أدار كرسيّه نحو مكتبه.

«لو كان قد كُسِر لساء الأمر». استدار ليكتب شيئاً في سجلّ بياناتي، وقال «لمّا كنتُ فتًى، ربّما أكبر منك بقليل، كُسِر أنفي».

دار بكرسيّه وأمسك بأنفه بإبهامه وسبّابته.

«وقع بيني وبين أحدهم عراك. انحرف أنفي عن موضعه انحرافاً كبيراً. كنّا نتلاكَم ولم أتنبّه للأمر. بعد ذلك، عندما نظرتُ إلى وجهي في المرآة لم أصدّق ما رأيت. لم يكن شيئاً يراه المرء كلّ يوم، أن يتّجه أنفه إلى اتّجاهٍ خطأٍ على ذلك النحو. كِدتُ أجَنّ. في أكثر الأوقات ينظر المرء إلى المرآة ويرى أنفه في موضعه الصحيح، لكنّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما رأيته كان كشيءٍ خرج من لوحات بيكاسو. أتعرف ما أقصد؟ أخذتني ماما إلى الطبيب لكنّه كان دجّالاً. وفي الحقيقة، كان أكثر الأطبّاء في ذلك العهد يجهلون ما يفعلون. كان أنفي ينزف، فأدخل هذا الطبيب فيه عصا شبيهةً بعود طعام، لإرجاعه إلى وضعه المستقيم. دفعه هناك دفعاً دون تخدير. حتى الآن، يقف شعر بدني كلّما فكّرت في ما حدث. أترى؟ قُشعريرة».

رفع ردنَ معطفه وأشار عليّ بالنظر. نظرت ورأيت شُعَيرات ذراعه واقفة.

«بعد ذلك، لم يختلف حالي كثيراً عن حالك. نصحني الطبيب بالانتظار، لكنّ الألم استمرّ سنةً كاملة. وفي الليل على السرير، إذا مسّ اللّحاف أنفي كنت أتألّم ألماً شديداً. في ذلك الحين، كان الأطبّاء يعالجون الأمراض على نحوٍ مختلف. وما دام العظم قد برئ فقد كان ذلك يُعَدُّ نجاحاً. ذاك سبب اعوجاج أنفي حتى اليوم».

لمّا ذكر الأمر، استطعت أن أرى انحراف أنفه قليلاً عن موضعه. لكنّني فكّرتُ في أنّه مقارنةً بأنوف آخرين، أيّما عنى ذلك، كان أنفاً حسن الهيئة، فقد شمخ بكبرياءٍ بين عينَيه ودون اعتذار.

ضحك، وقال «هذا هو حال الحياة. اعتنِ بأنفك».

قلت «أعرف، فليس عندي إلاّ أنفٌ واحد».

ضحك، وقال «هذا صحيح! أنفٌ واحدٌ هو كلّ ما عندك».

قال لي الطبيب إنّ الألم سيذهب بعد مدّةٍ يسيرة، لكنّني أستطيع المجيء في أيّ وقتٍ إذا عرض عارض.

لمّا شكرتُه وهممتُ بالخروج، سألني سؤالاً آخر.

«منذ متى وعينك على هذه الحال»؟

نظرت خلفي مدهوشاً.

«أما من تدبيرٍ للعناية بها»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يزعجه عدم ردّي. كانت الممرّضة واقفةً عند الباب وقد رفعت الستارة لي لأخرج، وكانت تنظر إلى الطبيب أيضاً. ولمّا عجزتُ عن الرّدّ وقفتُ إلى جانبها أبادله النظر.

«ألا تلقى مشقّةً وعناء من ذلك؟ بعضهم تعتريه الشقيقة»

برفقٍ أومأت برأسي وأغمضت عينيّ. اخترق أذنيّ رنينٌ خافتٌ ثم خلّف صمتاً مطبقاً. لاحظت ثقل لساني وجفافه وتمنّيت لو أنّي كنت قد شربت شيئاً بعد حديثي إلى موموز.

قلت «ذات مرّة، عندما كنت طفلاً، أُجرِيت لي جراحة . لكن عيني عادت إلى ما كانت عليه».

سأل الطبيب «كم كان عمرك»؟

قلت «خمس سنوات».

«لعلّك تجرّب مرّةً أخرى»، قال الطبيب، كأنّ الأمر هيّن، «يبدو أنّك قصدت طبيباً هاوياً، وإن كنتُ لستُ على يقينٍ من ذلك».

كاد يضحك لكنّه كبح نفسه.

«أمزح، أمزح. ما عليك إلاّ أن تجد الطبيب المناسب لهذا العمل. إنّها جراحةٌ سهلة، على أنها تقتضي الدقّة. إنّها من العمليّات التي يُكلّف بها الأطبّاء الشباب حال تخرُّجهم في كلّيّة الطب».

قلت كأنّ الصوت لم يكن بصوتي «لكنّهم خدّروا جسدي تخديراً كاملاً».

ضحك، وقال «ليس إلاّ لأنّك كنت طفلاً».

بحذرٍ سألته مبتلعاً ريقي «أهي جراحةٌ يمكن إعادة إجرائها»؟

شرح قائلاً «ذلك يعتمد على الحالة. إلاّ أنّها ليست بمشكلةٍ في حالتك. يحتاج بعض الناس إلى أكثر من عمليّةٍ حتى ينجح الأمر. وإذا عزمت على الجراحة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا الوقت فإنّ التخدير الموضعيّ سيفي بالغرض. إنّها ليست جراحةً كبيرة. فقط يشدّ الطبيب عضلة عينك قليلاً لتعود إلى موضعها الصحيح. ولا يطول الأمر. لكنّ بعض الأطبّاء الشباب لا يشدّون العضلة شدًّا كافياً وبعضهم يبالغ في الشدّ. ذلك هو ما أقصد. عليك أن تجد الطبيب الصحيح لإجراء الجراحة. أنت محظوظ، عندنا اختصاصيّ في طبّ العيون. ناقش أمرك في الأمر، وللتأكيد فقط»، أضاف قائلاً «كنت ترى بعينَيك كلتَيهما في ما مضى. أليس كذلك»؟

قلت بتردُّد «عينِي حولاء منذ كنت في الثالثة من عمري، ولا أذكر كيف كانت قبل ذلك».

حكّ رأسه حكًّا سمعتُ له صوتاً، وقال «في هذه الحال، ستكون بخير. منذ مدّةٍ ليست ببعيدة، كان عندنا صبيٌّ أصغر منك بقليل. قال إنّه يريد لعب البيسبول للمحترفين، لكن عندما يكون المرء أحول العينَين، فلن يتمكّن من قذف الكرة عالياً والإمساك بها».

قلت «كلاّ».

«قد لا تطمح إلى اللعب في بطولاتٍ كبرى، لكنّك إذا تعرّضت لحادثٍ آخر وكُسِر أنفك فلن تطيق الألم. أمّا والحال هذه، فبين الجراحة وإعادة التأهيل، سيكون عليك قضاء وقتٍ هنا، لكنّني أعتقد أنّ الأمر يستحقّ ذلك»

نقر طاولته بأصابعه كأنّما بإيقاع فرقة مُشَاة، وقال «الخيار خيارك».

«حسناً»، قلت ولم أكن على يقينٍ ممّا سأقول بعد ذلك. وقفت الممرِّضة إلى جانبي ممسكةً بطرف الستارة تنظر إليّ ثم إلى الطبيب.

بعد حين، أضاف قائلاً «الجراحة لا تكلّف مالاً كثيراً».

«حقًّا»؟ قلت بصوتٍ أعلى ممّا قصدت. لم أسأل قطّ كم دفعنا من المال للعمليّة التي أُجريت لي عندما كنت في الخامسة، ولم أعرف شيئاً عمّا جرى آنذاك، لكنّني الآن شعرت بتغيُّرٍ ما. اعتراني توتُّرٌ غريبٌ لمّا عرفت أنّه يمكنني أن أغدو سليماً معافى. بعمليّة يسيرةٍ يستطيعون علاج عينِي. لم أتخيّل قطّ أنّ هذا ممكن. ظننتُ أنّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إخفاق العمليّة في الماضي إنّما عنى أنّ عيني ستظلّ على هذه الحال طوال حياتي. أيمكن أن تكون عيني . . سليمة؟ لم أقدر على تصديق ذلك. كان شيئاً لا يُصدّق. وقفت هناك عاجزاً عن كظم تصعّد أنفاسي. وضعت يدي على فمي ووجدتني أعطّ أظافري. لم أستطع التفكير فيما ينبغي فعله بعد ذلك. لاح وجه موموز أمامي. ظلّه في ضوء مصباح الشارع. تذكّرت ضوء غرفتي المعتم، وانعكاس صورتي. في المرآة، فقط عيني اليسرى المتعبة تستطيع إيجاد نظيرتها. أمّا عيني اليمنى، فكانت كعادتها، تتحرّك نحو الزاوية، وإذا وضعت إصبعي أمامها، فإنّني لا أرى أكثر من شكلٍ غائمٍ لجلدي.

ضحك الطبيب، وقال «إذا كنت مهتمًّا بالأمر فحدّد وقتاً. إنّها عمليّةٌ قليلة التكاليف».

قلت مجاهداً للتلفُّظ بكلّ كلمة «كم ستكلّف»؟

عقد ذراعيه وأغمض عينيه وغضّن جبهته كأنّه يلملم أفكاره فيها. همهم قبل أن يتكلّم.

ثم قال «فكّر في ١٥٠٠٠ ين».

قلت «١٥٠٠٠ ين».

قالت كوجيما «لا أصدّق أنّه منتصف الخريف». نظرت إليّ وضحكت.

لم يكد تشرين الثاني يبدأ حتى برد الهواء. فاحت سترة كوجيما برائحةٍ كيماويّةٍ ذكّرتني بالشتاء. الروائح تذكّر المرء بأمورٍ شتّى. وأكثر من ذلك، تتجاوز الروائحُ العقلَ لتَخِزَ الكفّين والأنف مثيرةً العواطف حتى قبل أن تصبح عواطف.

منذ مدّةٍ طويلةٍ لم ألتقِ كوجيما، فاعتراني التوتُّر في الليلة التي سبقت اللقاء، ولم أستطع تهدئة نفسي وأنا أنتظرها عند درج النجاة من الحريق. تذكّرت أوّل مرّةٍ التقينا فيها في متنزّه الحوت، حيث شهدتُ المساء يقترب، والسماء تظلم مؤذنةً بحلول الليل أمام عينيّ. كأنّ ذلك حدث في حياةٍ أخرى، لكنّه حدث في تلك السنة نفسها، إنّما في موسمٍ مختلفٍ فحسب .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت «أعلم أنّنا لم نتكلّم كثيراً لكنّني كنت في الحقيقة على ما يرام».

مالت كوجيما على الدرابزين مولّيةً ظهرها للشمس الجانحة للغروب حيث البلدة تحتنا تلاقي السماء. وهي تتحدّث، ظلّت تعقد ذراعَيها وتفردهما.

كنتُ كلّما رأيت كوجيما في المدرسة عنّ بفكري ما ظهر فيها من هُزال، لكنّني لمّا رأيتها من كثبٍ بعد مدّةٍ طويلةٍ بدت أشدّ هُزالاً. ولم تكن في الأصل فتاةً سمينة، لكنّ بدانة الطفولة اختفت من وجنتَيها ومن ذراعَيها وساقَيها، فأصبحت كأنّها شخص آخر. وكان ثوبها المدرسيّ فضفاضاً أكثر من المعتاد. ومن ملامحها وبشرتها بدت متعبة. جسديًا في الأقلّ. تحت حاجبَيها كانت عيناها ناريّتَين وباردتَين في وقتٍ واحد، وأحدّ ممّا كنت أتذكّرهما. أحياناً كانت تعقص شعرها. كان قد طال كثيراً، كأنّها تعمّدت إطالته. تمدّدت أطرافه المتكسّرة مثل مكنسة قشّ، وانتشر الوَبَر عليه. من قرب، بدت التفاصيل مختلفةً جدًّا.

قالت «قرأت رسائلك مراراً. إنّها دائماً تشعرني بتحسّن. ماذا عنكَ؟ هل قرأت رسائلي»؟

قلت إنّي قرأتها. أومأت كوجيما برأسها مبتسمةً برضا. لم أستطع إخبارها بأنّي لم يكن بمستطاعي الردّ على رسائلها، وهي لم تسألني.

«أتعلم؟ إنّني أُدرك ما تشعر به وإن لم نلتقِ ولم نتحدّث». وقد أضحكها كلامها هذا. ولم أعرف بِمَ أُجيب فانتظرتْ قليلاً ثم سألتها عمّا إذا كان وزنها قد خفّ ونقص.

قالت إنّها منذ عهدٍ قريبٍ لم تعد تُقبل على الطعام كثيراً.

سألتها «ألا تستطيعين الأكل»؟

قالت «ليس كذلك. إنّها علامة، علامةٌ جديدة».

«علامةٌ جديدة»؟

قالت مبتسمةً قليلاً «أجل».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت «لكنك يجب أن تأكلي».

قالت «آكل، إنما آكل بلا إكثار». نظرت كوجيما إليّ وقالت «عدم الأكل له مغزى عندي».

سألتها مرّةً أخرى «كعلامة»؟

«صحيح، كعلامة».

«علامةً تخصّ أباك»؟

«تماماً، عدا أنّ مغزى العلامات تغيّر».

سألتها «كيف تغيّر»؟

«حسناً، في أوّل الأمر، ظننتُ أنّ العلامات كانت وسيلةً لئلاّ أنسى أبي. مثلاً، كان حذائي الرياضيّ المتّسخ مثل حذاء أبي. الأمر نفسه مع بشرتي، فما دمت لا أستحمّ سيبقى جلدي كجلده، وأستطيع الاحتفاظ برائحته. لكنّ الأمر ليس كذلك، لم يعد كذلك. أعني أنّني تعلّمت أن ما يربطني بأبي ليس ذكرياتٍ فحسب. لا شأن له بالتذكّر فحسب. ما قصدته هو . . أن ضعفنا هو ضعفٌ جميل، وهو ما نحميه دائماً، كلٌّ بمذهبه. إنّه الشيء الذي نكافح لأجله».

تكلّمت كأنّها كانت تضغط كلّ كلمةٍ على كفّي. بدت كوجيما مثل صورةٍ خلفها ظلمةٌ ممتدّة.

«وليس بيدنا فعل شيءٍ إلاّ ذلك. ليس لأجلنا فحسب، بل لأجل الصبية الآخرين أيضاً، حتى إذا هم لم يدركوا ذلك. لكنّ عدم إدراكهم هذا ليس مهمًّا. كلُّ ما يهمّ هو أنّنا نحن، أنا وأنت، نفهم ضعفنا، ونُدركه. وبذا نعيش مع هذا الضعف ونقبله قبولاً تامًّا، وتلك هي أعظم قوّةٍ في الدنيا كلّها. لا نقبل ضعفنا فقط لأجل أبي أو لأجلهم هم أو لأجلنا نحن. إنّنا نقبله لأجل جميع الضعفاء في كلّ مكان، باسم القوّة الحقّة. إنّ كلّ ما نلقاه من أذًى إنّما نلقاه لكي نسمو ونعلو. نلقاه لأجل الناس الذين يدركون أهمّيّة قبولنا لضعفنا. لذلك أنا لا آكل. ذلك هو ما يعنيه عدم الأكل».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقفت كوجيما أمامي ترمقني وهي تتحدّث.

«وأعتقد أنّك توافقني الرأي، تفهم الأمر أكثر من أيّ شخص آخر. أنت أيضاً، كأنّ وزنك خفّ. أظنّ أنّك أيضاً لم تكن تأكل كثيراً. إنّك تفهم حقًّا. تفهم ما أعتقده».

«أمّا أنا»، بدأت أتكلّم لكنّني توقّفت. لاحظت كوجيما ذلك وتبسّمت، كأنّها تقول إنّ لا شيء يقتضي الحزن. هبّت الريح في السلالم، وبعد قليل، استطعت شمّ رائحة كوجيما. لم تكن رائحتها قويّةً هكذا من قبل، ليس حتى عندما كنّا نجلس جنباً إلى جنب. كانت رائحة شخصٍ لم يستحمّ أيّاماً متوالية. نكّست رأسي ناظراً إلى طرفَي حذائي.

قالت «للجميع شأنٌ وأهمّيّةٌ عندي. أبي وكلّ من لهم قوّة الضعف في معاناتهم. لكنّ شأنك أكبر. أكبر من شأن أيّ أحد». تبسّمت وقالت «مهلاً، يبدو أنفك سليماً».

قلت «نعم».

قالت «يبدو مثلما كان. كان مُشَوَّهاً . . في ذلك اليوم».

«أعرف».

«ماذا لو كان قد كُسِر؟ هل كان العظم سيبرز»؟

«كان سيميل وينحرف».

«مُحَال».

«الأمر جِدّ».

ضحكت، وقالت «لستُ أدري. أنفٌ قويٌّ كأنفك قد يميل وينحرف فحسب. لكنّ أنفاً صغيراً كأنفي كان سيتهشّم».

قلت «ومع ذلك أعتقد أنّ أنفي كان يمكن أن يُكسَر».

لم أعرف من أين أبدأ لأروي لها عمّا حدث في المستشفى، لكنّ كوجيما كانت تصغي، فأثرث الموضوع قائلاً إنّني لم أقصد المستشفى منذ سنوات، وإنّ الطبيب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي عايننني كان لطيفاً جدًا، وقد كُسِر أنفه عندما كان في مثل عمرنا، إلاّ أنّ طبيبه المجنون أدخل عود طعامٍ في أنفه ليُعيد العظم إلى موضعه. لم أذكر لها أنّني صادفت موموز وقلنا ما قلناه. أردت إخبارها بلقائه، لكنّني لم أجرؤ، ولم أكن على يقينٍ ممّا إذا كان من الحكمة إخبارها.

في البيت وفي المدرسة عانيت طويلاً ممّا قاله موموز. أقنعت نفسي في بعض الأحيان بأنّ ما قاله هراء، ولكنّني في أحايين أخرى رأيت أنّه كان مُصيباً. ولم أزل أراوح بين هذه الخلاصة وتلك غير قادرٍ على تحديد أيٍّ منهما هو الصحيح. وقد لازمني يقينٌ بأنّ تفكيري مشوبٌ بعيبٍ جوهريٍّ جسيمٍ يقضي بحتميّة خطأ كلّ رأي، بسبب ما يضعه عقلي من افتراضٍ مُسبَق.

لكن كان لجدال موموز وطأةٌ عليّ أكثر ممّا أفصحت، ولم يُعِنّي ويؤازرني ما كنت أحمل من مبادئ استقامةٍ وصلاح. ولقد راقبني موموز من مكانٍ مظلمٍ وراسخٍ وهادئ، مبتسماً فحسب، وهو ينظر إليّ مثلما كان قد فعل في تلك الليلة على المقعد.

فكّرت في كوجيما.

مراراً قالت لي كوجيما إنّ كلّ ما يحدث إنّما يحدث لسبب. وكلّما التقينا طمأنني وجودها إلى أنّنا، معاً، قويّان لتجاوز هذا. كتبت إليّ رسائل. لم يمدّ أحدٌ يده إليّ على هذا النحو من قبل. وسواء أالتقينا أم لم نلتق، فقد أعانتني على احتمال هذه الحياة. حتى عندما عجزتُ عن الردّ على رسائلها التمست ليَ العُذر وأرسلت إليّ الرسائل واحدةً تلو الأخرى. وقالت لي إنّها تحبّ عينيّ. في حياتي كلّها لم يقل لي أحدٌ ذلك. لا أحد إلاّ كوجيما.

لكن، بعد أن حدث ما حدث في ذلك اليوم في القاعة الرياضيّة لم أستطع النظر إلى عينَيها. كلّما أبهجتني كوجيما ونَمَتْ قوّتها الغريبة المستعصية على التفسير تلك، رغم أنف تنمُّرهم عليها، شقّ عليّ النظر إلى عينَيها. لم أكن على يقينٍ من سبب ذلك. عدت بذاكرتي إلى الوراء وفكّرت في الراحة التي غمرتني بفضل كلامها وتبسّمها في تلك الأيّام الصيفيّة. والآن شعرت برئتيّ تلتهبان. كانت كوجيما تتغيّر، وقد أفزعتني رؤية ذلك من بُعد. أتى تغيُّرها بلا استئذان، وأحاط بالفسحة الصغيرة المشرقة جدًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي أوجدتُها لي، ليدفعني خارجها.

رغبتُ في مراسلتها لأوّل مرّةٍ منذ مدّة، فكتبتُ إليها.

قالت باحثةً في وجهي عن علامةٍ على حياة «هل أنت هنا»؟

«أنا هنا».

أخذت كوجيما تخبرني برأيها في زيارتي إلى المستشفى. لم يكن هناك أحدٌ حوالينا لكنّها تكلّمت بصوتٍ خفيض، ولمّا هبّت الريح لم أتمكّن من سماعها. دنت كوجيما منّي وواجهتني. فاحت منها روائح شتّى. شممتُ رائحة لعابها وعرقها وشيئاً حرّيفاً. سألتني عمّا إذا كنت أعرف سبب عدم وجود جناح ولادةٍ في مستشفًى كبيرٍ كذاك المستشفى. قلت لا أعرف فقالت قطعاً لا تعرف، فأنت لا تجرّب أن تسأل، وضحكت، لكنّها تظاهرت بالغضب. روت لي عن حادثةٍ وقعت في المستشفى منذ عشر سنواتٍ خلت. أومأتُ برأسي وهي تتحدّث، وكنت أنظر إليها فحسب.

أحالها الهزال شخصاً مختلفاً، وقد تبدّى، مع ذلك، أنّها كانت تمضي أوقاتاً طيّبة. ما زالت على قيد الحياة، ورؤيتها على هذه الحال أشعرتني بالوحدة وبحنينٍ استعصى على الوصف.

قلتُ عندما فرغت من سرد قصّتها «كوجيما، كتبتُ إليك لأنّي أردت أن أتكلّم».

قالت «أجل، أعرف. لكن، لستُ أدري، فرؤيتك فقط أشعرتني بسَعَادَتَين».

كدت أبكي لمّا سمعت تلك الكلمة. نظرت إليّ كوجيما، مرتبكةً قليلاً، لكنّها ضحكت بعد ذلك. كانت خطوط وجهها جديدةً عليّ. اصطكّت أسناني وحاولتُ أن أهدأ.

«ثمّة ما أريد قوله لك».

قالت «لك أن تقول لي أيّ شيء».

«إنّه عن عينِي».

كأنّ الضحك الذي أحيا عينيها وشفتيها قد تبخّر في الحال. نظرت إليّ كأنّها تشهد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدثاً نادراً. أومأت برأسها، لكنّ إيماءها ذاك خرج عفواً دون تكلّف.

أخبرتها بما عرفت. بأنّه إذا أجريت لي جراحةٌ فستكون هناك فرصةٌ لعلاج عيني.

أصغت كوجيما بهدوء، لكنّها لم تتكلّم حتى بعد فراغي من الحديث. أخذ الهواء يبرد على نحوٍ ظاهر، وبدأت السماء تمطر الرّذاذ لم يكن ممكناً رؤية المطر لكنّ النسيم حمله إلينا وبلّل وجناتنا. هززتُ كتفيّ، ثم وضعت يديّ في جيبيّ. فعلت كوجيما الشيء نفسه وهي واقفة، ووضعت يدَيها في جيبَي قميصها.

قلت «ستبتلّين. تعالي هنا».

لم تكترث كوجيما لهذا.

وقبل أن تلوذ بالصمت، قالت «إذاً . ».

صمتُّ أنا أيضاً منتظراً كلامها.

بعد صمتٍ طويل، سألتني وهي تكاد تكلّم نفسها «إذاً ستُجرى لك العمليّة»؟

«لست على يقينٍ بعد».

سألت «لماذا تُخبرني إذاً؟ هل تلتمس تُضحي»؟

قلت «كلاّ، ليس الأمر كذلك. فقط أردت إخبارك بما عرفت»

سألت «لماذا؟ أيّ فرقٍ بين إخباري وعدم إخباري»؟

«حسناً»، قلت ولم أجد الكلمات. لعقت شفتيّ مراراً باذلاً جهدي لتهدئة نفسي، وفي آخر الأمر تابعتُ قائلا «قلتِ لي إنّك تحبّين عينيّ»

لم تتكلّم هي ولم أتكلّم أنا.

كرّرت كوجيما قولها وهي تنظر إلى الأرض «إذاً ستُجرَى لك العمليّة. أنت . . أنت لا تفقه شيئاً حقًّا».

«ربّما. وربّما لن أمضي فيها . ».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«ليس ربّما. بل إنّك لن تمضي فيها».

نظرت إليّ.

«عيناك هما أهمّ أعضائك. إنّهما أنت. لا أحد آخر له عيناك. لم أولد بعلامةٍ فكان عليّ ابتكار علامتي. أمّا عيناك فهما هبة، وها أنت ذا تريد أن تتخلّص من ذلك، من الشيء الذي جمعنا»؟

قلت «وما زال يجمعنا. لا أعلم إن كنت سأمضي في العمليّة. فقط أردت أن أقول لك إنّي عرفت أنّ عيني يمكن أن تُعالَج».

قالت «كاذب! أجزم أنّك فرحت لمّا عرفت ذلك. ستمضي فيها وتهرب».

سألت «أهرب؟ ممّ»؟

قالت «من كلّ شيء. من المدرسة، من نفسك. من هذا»

عركت كوجيما عينيها براحتيها.

«لا تبكي يا كوجيما».

قالت «أنت تهرب منّي».

هززت رأسي.

قلت «كلاّ، ليس هذا هو ما أقوله. ليس هذا. أشعر بأنّني أكرّر قولي، لكن . ».

«لا بأس» ، قالت وهي تنظر إليّ. تلألأت عيناها بالدموع، وكانت ترتعش وأنفاسها تتصعّد. «لكنّني لن أتوقّف. لن أتوقّف».

«كوجيما . ».

«لا أستطيع». ترقرقت دموعها. «إذا كان ذلك هو ما تودّ فعله فاذهب وعالج عينَيك واتبع الصبية الآخرين الذين سيتركونك عندئذٍ وشأنك. وإذا كان ذلك هو ما تريد فلا شيء يمكنني قوله، لا شيء يمكنني فعله».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألتها «أتظنين أنّني إذا عالجت عيني فذلك يعني أنّني أتبع نينوميا والآخرين»؟

قالت «تماماً. فهذا لا يتعلّق بنا نحن الاثنين وحدنا»

بادلتها النظر بصمت.

«حتى إذا حدث شيءٌ لنا، حتى لو متنا وما عدنا نواجههم، فإنّ الشيء نفسه سيحدث لشخص آخر، في مكانٍ ما. الشيء نفسه. الضعفاء دائماً ما يَخبُرون هذا، ولا يمكننا فعل شيءٍ حياله. لأنّ الأقوياء لا يندثرون أبداً. لذلك تريد أن تتظاهر بأنّك مثلهم، أليس كذلك؟ تودّ أن تلحق بهم. إنّك لا تفهم الأمر حقًّا. إنّ ما يحدث لك إنّما هو اختبار. المهمّ هو أن تتجاوز هذا. وهو شأنٌ طالما تكلّمنا فيه. وإنّه هو الشأن نفسه الذي نتكلّم فيه».

«كوجيما، أرجوك . ».

أطبقت شفتَيها. صوت شهيقها ملأ المكان. أزعجني انهمار دموعها وقد بدا أنّه بلا نهاية. بقينا لا نتكلّم مدّةً طويلة. من بُعدٍ سمعتُ صفّارة إنذار سيّارة إسعاف. وعلى مقربةٍ كان طفلٌ يبكي. وقفت كوجيما في مكانها لا تقول شيئاً، دقيقةً تلو أخرى.

أخيراً قالت «ظننتُ، ظننتُ أنّنا صديقان».

قلت «إنّنا صديقان. صديقان».

«كلاّ، لسنا كذلك. ولا يمكننا أن نكون».

«مؤكّدٌ أنّه يمكننا».

هزّت رأسها بحزم.

«كوجيما».

كانت تبكي وتغيّر صوتها من أثر الدموع وهي تقول «واضحٌ أنّك ستمضي في العمليّة».

قلت «كوجيما».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«حسبك. لا تتلفّظ باسمي هكذا».

أخذ كلامها يتقطّع. أغمضت عينَيها وبكت بصمتٍ لكي لا أسمعها. اهتزّ كتفاها من مجاهدة البكاء. لم أشهد بكاءً مريراً كهذا البكاء من قبل. اصطك فكّاها وأطبقت فخذَيها. تشنّج جسدها من البكاء. ومن حينٍ لآخر كانت تنشج نشيجاً حادًا. سال المخاط والدموع من وجهها إلى الأرض. ولم أقدر على الكلام ولا على الحركة. ولم أستطع فعل شيءٍ سوى النظر إليها وهي تبكي .

لم يكن هنالك ما يمكنني فعله.

عندما استرخت كتفاها في النهاية ظننتُ أنّها اكتفت من البكاء، لكنّ نشيجها أخذ يشتدّ حينذاك. بدأتُ أقنط. أردت أن أقفز وأجلس قربها لكنّني منعت نفسي، فهيئة الحماية التي كانت هي عليها أبانت أنّها لا تريد ذلك. أخذت أنظر إليها ببلاهة. في آخر الأمر، تكلّمتْ بصوتٍ خفيضٍ جدًا حتى ظننتُ أنّه سيتلاشى.

«في الصيف . ».

كرّرتُ قولها لكأنّني أحمي الكلمات من الاختفاء «في الصيف . ».

«في الصيف أخبرتك عن ماما. أتذكر»؟

قلت «أذكر».

«وعن أنّني سألتها لماذا . . تزوّجت أبي»؟

«أجل».

«وقالت لأنّها رثت لحاله».

«أجل».

«لأنّها أشفقت على كلّ شيءٍ يخصُّه».

«أجل». أومأت برأسي مرّات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«لكن، أتعرف ماذا . .».

رفعت كوجيما رأسها لتنظر إليّ.

«أتعلم إذاً لماذا لن أسامح ماما أبداً»؟

جفّت الدموع على وجنتيها المتّسختيْن، واحمرّت عيناها. ارتعش جفناها السّفليّان، العضوان الشاحبان الوحيدان في وجهها. نظرت إليّ. التصقت خُصَل شعرها بوجنتيها، لكنّها لم تبالِ بإبعادها.

«لا لأنّها تركت أبي وحيداً، ولا حتى لأنّها عرفت رجلاً آخر كأنّ ذلك كان أمراً طبيعيًا . .».

أومأت برأسي.

«بل لأنّها لم تستمرّ».

أومأت برأسي مرّةً أخرى.

«لأنّها لم تستمرّ في الرثاء لحاله. لأنّها كفّت عن ذلك فحسب».

تركتني كوجيما وهبطت السلالم.

اختفت بلا تردّد. عجزتُ عن الكلام، دع عنك منعها من الذهاب. سمعتُ صدى خطواتها يتردّد في درج النجاة من الحريق، لكنّه لم يلبث وقتاً طويلاً حتى اختفى. ثم سمعتُ وقْع المطر الذي أحاط بي كأنّه يملأ الصمت الذي خلّفته وراءها. لم أكن متنبّهاً لمّا استحالت قطرات المطر وابلاً. كان ذلك صوت مطرٍ لا يكلّ ولا يلين، صوتٌ مرتعشٌ كصرخة مخلوقٍ مجهول، صوتٌ بدا كأنّه هوى من السماء المدلهمّة ثم ارتفع من موضعٍ عميقٍ في البلدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثامن

في عطلة نهاية الأسبوع تلك جُرِحت ذراع ماما.

قالت إنّ يدها زلّت وهي تغسل الصحون فسقطت سكّينٌ على ذراعها. كنت أقرأ في حجرتي وعدوت نازلاً إلى المطبخ لمّا سمعت جلبة. وقفت ممسكةً مرفقها الأيسر بيُمناها، وذراعها اليسرى ممدودةً نحو السقف. لمّا رأتني ضحكت.

قالت «الدم لا يتوقّف. سأهاتف سيّارة إسعاف».

رفعت ذراعها أكثر، فسال الدم على إبطها. تلطّخ مُقدّم قميصها بالدم المتقطّر من رُدِنها المرفوع. عدوتُ إلى الهاتف.

«انظر إلى هذا الدم كلّه!» قالت ماما كأنّها كانت تظنّ أنّ الجرح مزحة. غضبتُ قليلاً وسألتها عمّا ينبغي أن أفعل، فطلبت منّي مساعدتها على ربط ذراعها بمِنشَفة. وإذ كنتُ أُسرِع في ربط ذراعها قالت لي؛ اقطع ذراعي، ثم ضحكت ساخرة. وبينما وقفنا هناك بانتظار الإسعاف فطنتُ إلى أنّ ركبتيّ كانتا ترجفان.

قالت ماما «ستصل سيّارة الإسعاف في دقائق. يا إلٰهي! لستُ أعرف كيف حدث هذا. لكنّه جرحٌ عميق. هذه هي فائدة الإسعاف عندما لا تستطيع الذهاب إلى المستشفى».

سألتها «لماذا تضحكين»؟

«أضحك دائماً عندما أخاف».

«هل أنت خائفة»؟

«انظر إليّ. إنّ هذا دمٌ كثير. مؤكّدٌ أنّني خائفة. أعني أنّني لا أتألّم، لكن ماذا سيحدث باعتقادك إذا لم يتوقّف الدم»؟

فكّرتُ قليلاً ثم قلت «ستموتين»؟

قالت وأومأت برأسها «مؤكّد».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سمعتُ صوت سيّارة الإسعاف. قُرِع جرس الباب، ثم دخل مسعفان وضمّدا الجرح قبل أن يأخذا ماما. أردت الذهاب معها، لكنّها قالت لي أن أنتظر هنا، فلن يستدعي الأمر سوى بضع غُرَز. أغلقوا الباب الأمامي وهم خارجون، لكنّني بعد ثوانٍ فتحت الباب مرّةً أخرى وصحتُ بها.

«ألَا يحسُن بي أن أُهاتف أبي»؟

التفتت وقالت «لا تهتمّ»، ولوّحت مودّعة.

اضطجعتُ على الأريكة قليلاً، ثم نهضت، وجلبتُ خرقةً ودلواً من الحمّام، ومسحت الدم على أرض المطبخ. لم يطُل الأمر. كان هناك دمٌ أكثر ممّا توقّعت، لكنّني مسحته مثلما أمسح أيّ وسخ. بدا أنّ ثيابها قد امتصّت معظم الدم. كنت ما أزال منفعلاً ولم تَمِل نفسي إلى القراءة، فلم يكن عندي خيارٌ أفضل من الاستلقاء على الأريكة مرّةً أخرى.

عادت ماما إلى البيت بعد الرابعة بقليل.

قالت وهي تُرِيني الضمادة البيضاء حول ذراعها «لقد كان جرحي بليغاً».

سألتها «هل خاطوا موضع الجرح»؟

«أجل، خمس غُرَز»، نقرت الضمادة بأصبعها لتريني موضع الغُرَز.

كان عليّ إعداد العشاء. طهوتُ لنفسي من قبل ولكن ليس لأحدٍ آخر. قالت ماما لا بأس بطلب وجبةٍ سريعة، لكنّني أعددت طعاماً ممّا كان في المِتناول، ولم يكن شيئاً فخماً. طهوتُ أرزًّا أبيضِ وحساء ميزو وقَلَوتُ ممّا كان في الثلاّجة. كانت ماما جالسةً طوال الوقت تقول لي ما أفعل. ولمّا سخّنتُ ما فضل من طعامٍ بائتٍ وجلبته إلى المائدة بدا وجبةً حقيقيّة.

«ما زال الوقت باكراً، لكن لنأكل». فتحت ماما التلفاز وأخذت تأكل، كالمعتاد، مواجهةً الشاشة. ورحتُ أشاهد أنا أيضاً دون قول شيء.

«إنّني مسرورةٌ لأنّ اليد التي جُرِحَت لم تكن اليمنى»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«نعم».

زفرتْ زفيراً طويلاً، وقالت «كلّ ذلك التوتُّر أنهكني. أكره هذا. لا أطيق الوضع حينما تقع أحداثٌ مفاجئة».

قلت «نعم».

«أحاول تهدئة نفسي، لكنّني لا أستطيع. جسدي هو من يتحكّم بي، وهذا ما لا أحتمله».

سألتها «أترغبين في أن تتحكّمي بجسدك تحكُّماً تامًّا»؟

قالت «أظنّ ذلك. لستُ أدري كيف أشرح الأمر، لكنّ نفسي تعيش صراعاً عنيفاً عندما تتدافع عواطفي وتضطرب. ولا شعور يزعجني كهذا الشعور»

جلستُ صامتاً، آكل الأرزّ والملفوف. صعُب عليّ تحديد ما إذا كنتُ جائعاً، لكن كان هناك متّسعٌ في معدتي لمزيدٍ من الطعام. ثم عند حدّ ما أصبح واضحاً أنّنا شبعنا. جرت العادة على أن يأخذ كلٌّ منّا طبقه إلى المغسلة، إلاّ أنّني في تلك الليلة كوّمتُ كلّ الأطباق على المائدة وحملتها بنفسي. كثيراً ما كانت ماما تشرب الشاي بعد العشاء. لم أكن أرغب في شرب الشاي، لكنّني غَلَيتُ الماء وأعددت لها إبريقاً صغيراً من الشاي الذي كانت تحبّ.

برد الشاي بما يكفي فارتشفته، ثم قالت «هَبْ أنّي ووالدك تطلّقنا، فماذا سيكون شعورك»؟

«ستتطلّقان»؟

«لم يتقرّر شيءٌ بعد . . ».

لم يكن عندي ما أقول. لم يعد أبي يأتي إلى البيت، ولم أعد أكترث. أتذكّر أنه، في الماضي، لمّا بدأ يقلّل مجيئه إلى البيت ويتّفق أن أراه، كان يقول إنّه مشغولٌ جدًّا، إلاّ أنّ ذلك كان منذ عهدٍ بعيد. وهذا يذكّرني باليوم الذي قلتُ فيه أمامه «منذ عهدٍ بعيدٍ»، فحدجني بنظرةٍ مخيفة، وقال إنّني ما زلت أصغر سنًّا من أن أتكلّم عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الماضي هكذا.

كفّت ماما عن الحديث قليلاً ثم قالت «لست على يقين من شيء، أعلم أنه أمرٌ غريبٌ أن تسأل أمٌ ابنها عن شعوره نحو طلاق والديه . . لكنّ قلبي يحدّثني بأنّ الحال سينحو هذا المنحى».

قلت «نعم».

جلسنا بصمت، وعيوننا على التلفاز. حدّقتُ إلى الشاشة المجنونة دون أن أفقه ما كان يدور فيها. سألت نفسي عمّا إذا كنت سأنتقل للعيش مع أبي إذا افترقا. لم أحتمل تخيّل العيش معه، بيد أنّ الحال قد ينتهي بي إلى العيش معه. بدا لي أنّ حقيقة كونه هو والدي لها أهمّيّةٌ تفوق جودة علاقتنا، وإن لم أره إلاّ لماماً وأكاد أقول إنّي لا أعرفه. وضعت ماما ذقنها على يدها وهي تشاهد التلفاز دون قول شيء. شخصٌ ما كان يتأرجح، من رافعة، رأساً على عقب، ومن شعره كان يقطر حبرٌ أسود، فبدا شعره مثل فرشاة كتابة.

ضحكت ماما وقالت «ما كان يليق بي أن أثير الموضوع. معذرة، فلست على حالٍ طيّبة. ربّاه! ما الذي أفعله؟ يا لي من حمقاء».

قلت «لا بأس».

لم أكن أنوي إثارة موضوع عينِي، إلاّ أنّني وجدتني أروي لها ما قاله الطبيب عن عينِي وعن إمكانيّة علاجها بجراحة.

بعدما فرغتُ من كلامي صمتت ماما وقتاً قبل أن تسألني عمّا إذا كان هذا هو ما أريد. وقلت لها إنّي لم أكن على يقين.

حرّكت ماما كوب الشاي بين يدَيها وأخذت تديره ببطء. اتّجهتُ إلى المغسلة وصببتُ لنفسي شاياً وجلبته إلى المائدة.

«ليس عليك أن تقرّر الآن. حسبك أن تعرف أنّه يمكن إجراء العمليّة. إنّها عمليّةٌ دقيقة. خيرٌ لك أن تمعن التفكير في أمرها»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أومأتُ برأسي ونظرت إلى البخار المتصاعد من كوبي منتظراً الشاي ليبرد قليلاً.

لم يَرِدني شيءٌ من كوجيما.

لم تكن هناك رسائل، ولا أحاديث، ولم تعد عيوننا تلتقي مهما نظرت إليها فلم تكن لتبادلني النظر. طوال الوقت كنت أفكّر فيها. أخذت أبكّر في المجيء قبل وصول الآخرين، وأنتظر امتلاء الصفّ، ويداي داخل درج طاولتي الفارغ. وكم آلمني تذكّر أنّها كانت تترك لي الرسائل في هذا الموضع داخل الطاولة. فكّرت في المرّة الوحيدة عندما هاتفتني في البيت. كان ذلك خلال الصيف، قلت لنفسي. ونحن الآن في الخريف.

في المدرسة كنّا نعدُّ العُدّة للمهرجان الثقافيّ، وكان هناك أيضاً يوم الرياضة. وقد اكتظّت الأيّام بأنشطةٍ حرصتُ على اجتنابها، إلاّ أنّ الصبية وجدوا متّسعاً من الوقت لضربي أو للهزء بي عندما لم أكن أقضي لهم حاجاتهم. ولم يسأموا هذه العادة. ولم يتغيّر الحال من أسبوعٍ إلى آخر.

ولم يتغيّر موموز أيضاً. ظننتُ أنّه سيثأر منّي بسبب ما فعلتُ في المستشفى، لكنّني لم ألحظ أيّ تغييرٍ بأيّ حال. لم يبدُ أنّ أحداً قد عرف بحديثي وإيّاه. سيظنّ المرء من مسلكه أنّه نسي ما حدث، فقد كان لامبالياً إلى هذا الحدّ.

مراراً كبحتُ نفسي عن كتابة رسالةٍ إلى كوجيما، لكنّني في آخر الأمر كتبتها.

قلت إنّي أودّ أن نلتقي ونتكلّم، وإنّ إخفاقي في تفسير موضوع عيني سبّب سوء فهمٍ كبير. وإنّي كنت أدرك أهمّيّة عيني لها، ولذلك أردت إخبارها هي بالأمر قبل أيّ شخص آخر. وإنّي أعتذر عن سوء تصرّفي في شرح الموضوع، فأنا لم أشأ إيذاءها قطّ.

كوجيما لم ترُدّ.

جرّبتُ أن أكتب إليها رسالةً أخرى. كان مخيفاً لي أن أبدأ من حيث انتهيت في الرسالة الأولى، لأنّها لم تَرُدّ قطّ، وكان الأكثر إخافةً هو ترك الرسالة لها فيعثر عليها الآخرون. قلت لها إنّني سأنتظرها عند درج النجاة من الحريق اليوم التالي في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخامسة. سألتها أن تأتي إن استطاعت. سأكون هناك. ألصقتُ الرسالة داخل درج طاولتها في الصباح. طوال اليوم ركّزتُ على لفة جسدها. وفي اليوم التالي، قصدتُ موضع درج النجاة من الحريق في الخامسة وانتظرت ساعتين، لكنّها لم تأتِ.

كان جسد كوجيما يزداد نحولاً وأنا أراها في الصفّ. ولم يكن مظهرها هذا بخافٍ على أحد. كأنّها كفّت عن الأكل تماماً. وكان الزملاء في الصفّ يغيظونها. لم يكونوا صريحين عادةً، لكنّ رأيهم فيها كان واضحاً. وكانوا يضحكون بخفّة.

كتبت رسالةً أخرى أقول فيها إنّنا لن نتكلّم عن عينيّ، ويمكننا الحديث في أيّ شيءٍ آخر، على جاري العادة. وإنّني أردت الحديث فحسب. وإنّها لم تُرِني بعد لوحة «الجنّة». وإنّني كثيراً ما أفكّر في ذلك اليوم.

ومثلما كنتُ أكتب إليها في الربيع الماضي، كتبتُ في هذه الرسالة أيضاً عمّا خطر ببالي، عن أيّ شيء، ذاكراً أحياناً الكتب التي كنت أقرأها. انتقيتُ كلماتي بحذرٍ محاولاً إبهاجها. ولم أتلقَّ ردًّا.

ذات يومٍ بين الحصص، دُفِعَت كوجيما بقوّةٍ وسقطتْ قرب طاولتي. وتصادم المعدن والخشب، فوقعتْ، مع كوجيما، كراسٍ وطاولةٌ على الأرض .

ضحكت الفتيات وقهقهن لمّا جثت كوجيما في مكانها بلا حراك. تحجّرتُ مكاني. لم يكن بوسعي فعل شيء.

قالت فتاةٌ من الفتيات «انهضي».

دفعت هذه الفتاة عوداً من أعواد مكنسة في ياقة قميص كوجيما وأخذت تنهز إبطَيها لحثّها على الوقوف. فاحت رائحةٌ عفنةٌ من كوجيما. برأسٍ مثقلٍ بدأت تنهض، وشعرها المجعّد يغطّي وجهها. جلستُ أنا هناك أنظر إليها. ولمّا وقفت استطعت رؤية وجهها بين خُصَل شعرها. مضى وقتٌ طويلٌ لم أرَ فيه وجهها. حبست أنفاسي كأنّما كنت أصلّي ونظرت إليها. كانت وجنتاها مجوّفتين، وقد اسودّت بشرتها حول فمها، وابيضّت شفتاها من التّقشّر. وفي الثواني القليلة التي كانت واقفةً خلالها، قبل أن تبعدها الفتيات، نظرتْ إليّ كوجيما بعينين لم أرهما من قبل. كوجيما. سمعتُني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أناديها، لكنّها لم تُجب. كانت عيناها فارغتين. وكانت تبتسم لشيءٍ ورائي.

بعد أيّام، تلقّيتُ رسالةً من كوجيما.

كنتُ قد كففتُ عن الكتابة إليها منذ أن رأيت تبسّمها ذلك اليوم في الصفّ. وقد أبهجتني رسالتها. قرأت العبارة مرّاتٍ كثيرة.

قالت إنّها ستنتظرني يوم السبت ذاك، الساعة الثالثة، في متنزّه الحوت، حيث التقينا أوّل مرّة.

ما زلت أتذكّر رائحة الهواء في ذلك المساء الربيعيّ، وصلابة الإطارات التي جلسنا عليها، والشقوق في مجسّم الحوت الإسمنتيّ، ورائحة الرطوبة، والتربة السوداء . وأنا أرى نسخة خطّ يدها الأجرأ هذه، لم يسعني إلاّ أن أتذكّر وَهَن أوّل إشعارٍ كتبته إليّ. وكم هو مؤلمٌ تذكُّره! شعرت بوحشة. وكنت كلّما دهمني هذا الشعور فعلت ما اعتدت فعله وهو قراءة رسائلها كلّها، ناشراً إيّاها على الطاولة. تلك الرسائل كانت تقول الكثير. قرأتها مراراً قبل أن أعيد الرزمة إلى حافظة القاموس.

في صباح السبت ذاك جاء أبي إلى البيت مرّةً أخيرة. كان في عُطلةٍ مدّةَ يومٍ واحد. عندما نزلت إلى المطبخ رأيته جالساً على الأريكة يشاهد التلفاز. ولمّا فطن إلى وجودي، قال أهلاً، ثم عاد إلى مشاهدة الشاشة. أخذ يتنقّل بين القنوات. كان لكلّ قناةٍ نبرةٌ مختلفة، ودرجة ارتفاع صوتٍ مختلفة.

تناول ثلاثتنا الإفطار. أكلنا ما أعدّته ماما دون التفوّه بكلمة. كانت ضمادتها ناصعة البياض، وبدت ذراعها المضمّدة تمثيلاً ليس إلاّ، لكنّي شهدت إصابتها وهي في أوّلها، ورأيت الدم. كان التلفاز يؤدّي عنّا مهمّة الكلام، آلةً تغنينا عن العمل مثل غسّالة الأطباق، وتحرّرنا من الاضطرار إلى الكلام. ذلك ما كنتُ أفكّر فيه دائماً كلّما اجتمعنا.

كان أبي يقرأ الصحيفة. طواها نصفَين ليسهل التحكّم فيها، ورَفَعَها أمام وجهه. وقد غثيث نفسي من صوت طيّه الصحيفة ونشرها، وخِلتُ أنّني سأتقيّأ. حدّثتني نفسي بنزع الصحيفة من يده وتمزيقها. كظمت غثياني وأنا أمضغ الطعام، وركّزتُ نظري على الصحيفة متوهّماً تمزيقها صفحةً صفحة. ماذا سيفعل يا تُرى؟ أجزم بأنّه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيلكم وجهي دون تفكير. وما الضير؟ فلأسترسل في وهمي. تخيّلت تمزيقها إلى مزقٍ صغيرة فلا يبقى منها شيء. لمّا فرغت من أوهامي ابتلعت ما بقي في صحني ووقفت. نظر أبي من وراء الصحيفة إلى مكاني. شكرتُ ماما على الإفطار وصعدت إلى حجرتي.

بدأت بواجب الرياضيّات، لكنّني لمّا نالني التعب منه فتحت الكتاب الذي كنت أقرأه، وعندما سئمت من الكتاب عدت إلى واجب الرياضيّات. شقَّ عليّ التوفيق بين وجود أبي في البيت وتدبيري للقاء كوجيما أخيراً في اليوم نفسه، فلم يهدأ لي بال.

أمضيتُ الصباح أتنقّل من أمرٍ إلى آخر. بعد الغداء، سمعت أبي وهو يخرج من البيت. وبعد دقائق، نزلت إلى الطابق السفليّ قاصداً الحمّام ورأيت ماما تتّجه إلى الباب وهي تستعدّ للخروج. قالت إنّها ستعود في نحو السابعة لإعداد العشاء، ثم سألتني عمّا إذا كان لا يزعجني أن نأكل في وقتٍ متأخّر. كانت معدتي ممتلئةً بطعام الغداء فقلت، لا مشكلة، ثم صعدت عائداً إلى حجرتي. ما إن سمعت الباب الأمامي يُغلَق حتى أخرجتُ عضوي وطفقتُ أهزّه. لم أفعل ذلك وأنا على الفراش، بل وأنا واقفٌ عند الباب. وكان هذا أمراً جديداً عليّ. شددتُ الإمساك بعضوي أكثر من المعتاد. ابتلعتني صورٌ غامضةٌ ومريحة، وتعابير دافئة. ثم لمّا شارفتُ على بلوغ غايتي لم تكن علبة المناديل بالقرب منّي، فتلقّيتُ مائي بيدي الأخرى. ولمّا امتلأ كفّي حتى تقطّر المنيّ من بين أصابعي شعرت بالراحة أخيراً. ذهبت لغسل يديّ ثم عدت إلى غرفتي واستلقيت على فراشي وأكملت قراءة الكتاب، إلاّ أنّ عضوي بدأ يقوم مرّةً أخرى. حاولت تناسيه لكنّ الحال كان فوق الاحتمال. لم يُفِدني جلوسي ساكناً. كأنّ دمي كلّه كان يُضَخّ في عضوي، وكان ذلك مؤلماً. كلُّ ما بي من طاقةٍ ومخاوف ورغباتٍ وحاجاتٍ احتشد في عضوي. ورحتُ أدلّكه إلى أن انتفخ وتصلّب، ثم فكّرت في كوجيما لأوّلِ مرّة.

كنت أفعل المُحَال.

لم أفكّر في كوجيما من قبل قطّ وأنا أستمني . لا لأنّني أردت ذلك، بل لأنّني لم أكن أستطيعه. لم أُرِدهُ وكفى، فهي لا تنتمي إلى ذلك العالم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيد أنني ألفيتني غارقاً في فيضٍ من رغباتٍ جامحةٍ عجزتُ عن فهم طبيعتها . وعلى جهلي بسبب حدوث هذا الآن، لم أستطع إبعاد صورة كوجيما. كموجٍ يعلو، ارتفعت صورتها أمامي، وهي تبتسم. رأيتني أجلس قربها على المقعد خارج متحف الفنون، فمِلْت نحوها، ومصصتُ شفتَيها. لحستُ العرق من وجنتيها. كان طعمه لا يشبه أيَّ طعمٍ ذقته من قبل. خلعتُ عنها ثوبها المدرسي. ولمَّا أصبحت عاريةً وضعتها في المغطس. غسلتُ شعرها وفركتُ جسدها بالصابون مزيلاً الأوساخ. ولمَّا نَظُفَتْ بشرتُها ولَمَعَتْ ضغطتُ نهدَيها بكفَّيّ، باعدتُ ما بين ساقَيها وولجتُها. استحوذت عليّ نزواتي وأخذ المشهد يتكشَّف في رأسي. لعقتُ كلَّ ما استطعت لعقه من أعضائها. ثم مصصتُ شفتَيها مرَّةً أخرى. إلاَّ أنَّ وجهها تحوَّل إلى وجه الفتاة التي رأيتها ذلك اليوم في الصفّ. لم تكن تنظر هي إليّ. كانت عيناها المحاطتان بخُصَل شعرها الناعمة تنظران إلى مكانٍ آخر. كنتُ أدفع عضوي بقوَّةٍ متوهِّماً توغُّلي عميقاً. ومع سرعة القذف، عاد الوجهُ ليصبح وجهَ كوجيما. كان الوجه الذي رأيته، لمَّا زالت النشوة، ممتلئاً ودافئاً، مرتبكاً قليلاً لكنَّه لطيفٌ وينظر إليّ. تلك هي كوجيما التي أريد. ولمَّا انتهيتُ تلاشى اللطف والرِّفق. برد وجهها، وخمدت عيناها، وغارت وجنتاها. نظرت إليّ وتبسَّمت. قالت «نحن صديقان، أليس كذلك»؟ قالت لي إنَّها تحبّ عينيّ، وظلَّت تبتسم. كان ذلك هو تبسُّمها نفسه منذ آخر مرَّةٍ رأيتها فيها.

استوَيتُ جالساً واتَّكأتُ على الجدار في حالٍ من الذهول. كان يومَ سبتٍ هادئاً وخالياً من الأحداث حتى ذلك الحين. زفرت وشهقت لتتنفَّس رئتيّ من الهواء الثقيل ثم استلقيتُ في مكاني. قرَّرتُ أنَّني أسوأ المخلوقات على وجه الكوكب، بل أقبحها. ماذا جنيت؟ ما الذي فعلته؟ هاج صدري واضطرب، وكان خلفي ثقبٌ أسود ينفتح. أغمضت عينيّ وانتظرت حتى يتلاشى هذا الشعور. سمعت رنين الهاتف، لكنَّني عجزت عن الحركة. لم أحاول حتى مسح المنيّ. وما لبثتُ حتى استسلمتُ للنوم.

كنت أعدو إلى المتنزَّه. في الشارع، أضاءت الإشارة الحمراء بلا نهاية، وأنا أندفع قاطعاً الطريق كادت تصدمني سيَّارةٌ لولا أنَّ الحظّ حالفني. ضغط السائق المكابح بقوَّة. أخرج رأسه من النافذة ونعتني بالمغفَّل. وبسبب ما كان عليه حالي، لم أدرك إلاَّ آنذاك أنَّني كنت أعدو. لكنَّني لم أكن أصغي، ولم تكن حواسّي حاضرة. كنت على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كوكبٍ مختلف، بعيداً عن صوت السائق الذي سمعته. كأنّه لم يكن يخاطبني.

كانت السماء صافية ولا أثر فيها للسحُب، لكنّني سمعت هزيم الرعد الذي حملته الريح. عندما وصلت إلى متنزّه الحوت، كانت كوجيما هناك. توقّفتُ وانحنيتُ لأهدئ من تصعّد أنفاسي. مع أنّني كنت أعرق وقلبي يخفق، لم أشعر بأنّني عدوت الطريق كلّه إلى هنا. بل كان يمكن إقناعي بأنّني لم أخرج من غرفتي. غير أنّني كنت أقف قرب سور متنزّه الحوت ورأيت كوجيما جالسةً على الإطارات بثوبها المدرسيّ. شهقتُ شهيقاً طويلاً لم يهدئ من روعي كثيراً، ثم مشيتُ نحوها متمهّلاً وكنت أسأل نفسي عن سبب ارتدائها ثوبها المدرسيّ اليوم. كانت الأرض بيننا مسطّحةً تماماً، ولم أصدّق أنّني مشيتُ تلك الخطوات كلّها حتى أصل إليها. شعرت كأنّني أمشي في مكاني ولا أتقدّم، لكنّني وجدتني واقفاً أمام كوجيما. كوجيما. تلفّظتُ باسمها. بعد صمت، نظرت إليّ كأنّ شيئاً قد خطر ببالها. بشفتَين مُطبِقتَين طرفت لي بعينها عامدةً. كدت أسمع صوت تلاقي رموشها. نكّست رأسها. كنت متنبّهاً لأنفاسي الثقيلة، وجلستُ إلى جانبها.

قلتُ «قرأتِ رسالتي».

لم تتكلّم كوجيما.

قلتُ «في ذلك اليوم . . . وقع سوء فهم».

تصعّدت أنفاسي وأنا أحاول الكلام. نظرت كوجيما إلى الأرض، غير راغبةٍ في النظر إليّ مرّةً أخرى. شعرتُ كأنّي نائمٌ في غرفتي مع أنّي كنت بقربها. استطعتُ تحريك أصابعي، لكنّ عضواً حيويًّا فيّ كان قد اختلّ توازنه. أغمضتُ عينيّ بقوّة، وطرفتُهما بقوّة، محاولاً تنقية ما وراء عينيّ، لكنّني لم ألقَ إلاّ بلادةً عنيدة، كأنّ كلّ شقٍّ في رأسي قد حُشِيَ بقطنٍ مبلّل، لم يكن خفيفاً ولا ثقيلاً. كأن الضباب أخذ يغشى الفراغ الذي كان بيني وبين ما حولي. ولم أكن على يقينٍ ممّا إذا كان هناك فراغٌ في الأصل. كأنّني كنت أحلم. أو كأنّني تحوّلتُ أنا كلّي إلى عينَين حولاوَين.

جلستُ قرب كوجيما دون أن أقول شيئاً، وحدّقتُ إلى ركبتيها فحسب. مددتُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يدي لأمسَّ الثلجَ في تضاعيف تنّورتها فوق ركبتيها. أردت أن أعرف إذا كانت يداي قادرتَين على الإحساس بما أرى. امتدّت أصابعي إلى حاشية تنّورتها. ثم لمست يدها التي كانت فوق حجرها. رأيتُ أصابعي تمسّ بشرة يدها. لم تكن يدها دافئةً ولا باردةً لكنّها كانت هي يدها، يد كوجيما الحقيقيّة. ولم تستجب لِلَمسِي. جلستُ هناك وقد ارتاحت كفّي على يدها وأخذتُ أنظر إلى حذائها المتّسخ.

لاحظتُ شيئاً فرفعت ناظري. موموز كان يقف أمامنا.

لم يكن وحده. كان نينوميا إلى جواره وحولهما جمعٌ من وجوهٍ أخرى عرفتها، وكانوا يبتسمون بخبث. في لحظة، عادت إليّ رائحة القاعة الرياضيّة. كانت معهم أيضاً فتياتٌ من الصفّ أعرفهنّ. لم أعرف ماذا أفعل، فأخذت أحصي الوجوه. سبعة وجوه. ملامحهم لم تخبرني بشيء. ما الذي كانوا يفعلونه هنا؟

قال أحدهم «لا يمنعنّك وجودنا عن فعل ما تريد فعله». ركل ركبتِي ملوّثاً بنطالي الجينز بالطين. ضحكت فتاةٌ ضَحِكاً عالياً.

حدّقت عيني اليسرى إلى ركبتي التي رُكِلت ولمستُ أصابعي بقعةَ الطين. كان طيناً حقيقيّاً. أتى مِنْ رَكْل. لقد رَكَلَ الصبيُّ ركبتي. حاولتُ استيعاب ذلك. لم أشعر بألم. سمعتُ جلبة ضحك. قال نَفَرٌ منهم «عجِّلا وافعلاها!» طأطأت كوجيما برأسها.

قال نينوميا «يا للقباحة! هنا إذاً تفعلان، أنتما الاثنَين، فَعْلَتَكُما البذيئة».

هتفت الفتيات. ركل الصبية ركبتيّ مرّةً أخرى. هذه المرّة شعرت بالألم حقًّا.

«هنا في هذا المكان»؟

قالت فتاة «فَعْلَةٌ مُستنكَرَة». وضحكت بعض الفتيات. وقف موموز بعيداً عن الجماعة عاقداً ذراعَيه مثل نينوميا.

قال أحدهم «نعرف عنكما أنتما الاثنَين. وتحسبان أنّكما تكتمان سِرًّا!»

لم أفهم ما الذي كانوا يقولونه.

«اسمع»، قال نينوميا وقرفص ليواجهني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قريباً من موازاة البصر، بدا وجهه وجهاً آخر، على أنّه كان وجهاً عرفته حقّ المعرفة. لمّا كنّا صغيرَين، اعتاد نطق اسمي بهائَين الشفتَين نفسيهما، لكنّه كان ينطقه بلطف.

«لم أشهد أحداً يفعل ذلك في الحقيقة. أريدكما أن تُريانى».

سألته «تُريك ماذا»؟ كان صوتي شديد الوهن حتى إنّني سألتُ نفسي عمّا إذا كنت قد تكلّمت. لكنّ نينوميا كان قد سمعني.

«الجِمَاع».

ضحكوا جميعاً، وقد أبهجهم الأمر وشغلهم.

شعرت بشيءٍ يكظم أنفاسي، وأعدتُ في عقلي ما قاله نينوميا. الجِمَاع. الكلمة زادت خفق قلبي وأثقلت كاهلي. وَثَبَ فكري إلى الشعور الذي خَبَزتُه آنفاً، إلى ما فعلته قبل خروجي من البيت. سمعتُ صوت لعابي وهو يتردّد في حلقي. جفّ لساني، وشعرت بحرارة أنفاسي. لماذا كانوا يقولون لي هذا الكلام؟ كيف عرفوا بوجودنا هنا؟ ماذا كانوا يريدون؟ ما علاقة مجيئي إلى هذا المكان بهم؟ لم أعرف أين أنظر ولا فيما أفكّر. كان موموز واقفاً في الخلف، وينظر إليّ.

وقف نينوميا وضحك، وقال «عجباً لأمركما أنتما الاثنَين. أتيتما هذه الفَعلَة في المدرسة أيضاً، أليس كذلك؟ عملٌ حسن».

هزّ رأسه كأنّ ذلك أعجبه حقًّا.

«حسناً. أرِني».

قلتُ بصوتٍ منخفض «لم نفعل هذه الفَعلَة . . قطعاً لم نفعلها».

لمّا قلت ذلك قهقه الجميع إلاّ موموز. ما الذي أضحكهم؟ كان كلّ ما فعلته هو أنّني أجبتهم. وقد قلت الحقيقة. شعرت بالعرق يسيل على ظهري وخاصرتي. تردّد صوت خفقان قلبي في طبلة أذني تردُّداً اختلج له ما حولي واضطرب. كانت يدي على يد كوجيما. تنبّهتُ إلى أنّني كنت أضغط يدها، لكنّ كوجيما لم تكن تستجيب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألت «لماذا أنتم هنا»؟ وخرج صوتي خشناً.

«للسبب الذي أتى بك إلى هنا».

«هل أجبرتموها على كتابة الرسالة»؟

ضحك نينوميا، وقال «يمكنك قول ذلك. اسمع يا رجل. عندنا أشغالٌ كثيرة، فلننهِ هذه الفرجة في الشارع».

رفس أحدهم فخذي رفساً قويًا حتى إنّ الرّفس الآنف لم يبدُ إلاّ تربيتً مُحِبّ.

دَلَكتُ ساقي، وقلت «لكنّنا لم نفعل هذه الفَعْلَة .. لم نفعلها البتّة».

قال نينوميا بتهكُّم «الكلاب تفعلها هنا. أتحسب أنّها تبالي؟ والأمر سيّان. أجزم أنّك إذا أقنعت نفسك فستتمكّن من فعلها. لن تعرف ما لم تجرِّب. أليس كذلك»؟

وضَحك.

«الوقت ينقضي. عندنا أشغال. أريدكما أن تتعجّلا. افعلا ما كنتما تفعلان فحسب. لا تخجلا».

ابتسم نينوميا تبسُّماً ملأ وجهه كلّه، وتلألأت بشرته وامتلأت حيويّةً وإثارة. كيف يمكن أن يكون هذا وجه إنسان؟ كانت شفتاه المبتهجتان مشدودتَي الطرفين، وعيناه كأنّهما عجلتان تدوران وتشعّان بالضوء.

«أنتم .. أنتم مجانين»!

لمّا سمع نينوميا ما قلتُ نظر إلى الآخرين وقهقه.

«افعلاها فحسب».

انتمر صبيٌّ بأمره ودفعني من كتفي دفعاً. أفلتُّ يد كوجيما، لكنّني سرعان ما مددتُ يدي لأمسك بها مرّةً أخرى. أضحكهم هذا.

«هيّا يا رجل، أنا لا أعبث».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هززتُ رأسي وظللتُ جالساً على الإطارات. أمسكتُ بيد كوجيما بقوةٍ شديدة. ثم بقوةٍ أشد. اندفعتُ عبر فراغٍ أمامي بين الصبية محاولاً الهرب، لكنهم أمسكوا بقميصي من الخلف وطرحوني على الأرض. وكنتُ ما أزال ممسكاً بيد كوجيما فوقعنا معاً. سألتها إن كانت بخير. شخَصَتْ ببصرها. استوت جالسةً وأومأت برأسها دون أن تنظر إليّ. جثونا على الأرض وقد أحاطوا بنا وسوَّرونا بنظراتهم.

«اللعنة، فتاتك قذرة. تُشمُّ رائحتها من الشارع. لستُ وحدي من يشمُّها، أليس كذلك»؟

قالت فتاة «طالما فاحت منها تلك الرائحة». ثم وَطِئَت ظهرَ كوجيما بحذائها، وقالت «سُحقاً، يبدو أنَّني أدوس براز كلب. يا لغلطتي»!

«لا تبتئسي، فهي تفوح منها رائحة براز الكلب على أيَّة حال».

«نُفاية. ينبغي وضعها في كيسَين اثنَين».

أخذت الفتاة تدوس كوجيما، دافعةً إيَّاها إلى الأمام. تمالكت كوجيما نفسها من السقوط متَّكئةً بيدَيها. نظرتُ أنا إلى وجه الفتاة.

«الأحول والنفاية، يتناكحان عند شجرة».

ضحك الجميع.

لم تتحرَّك كوجيما ولم أتحرَّك أنا. وعلى وفرة الضوء في السماء وخلوِّها من الغيوم، اشتدَّ دويُّ الرعد وقصرت المدَّة بين دويٍّ وآخر.

سألت نفسي عمَّا إذا كان ما يحدث الآن يحدث حقًّا.

هل هذا يحدث حقًّا؟ ما كنت أعرفه هو أنَّني أفقتُ من نومي في غرفتي، وخرجت من البيت على جناح السرعة، وعدوتُ طوال الطريق إلى هنا للقاء كوجيما. أتيت راكضاً، مثلما أفعل دوماً، كلَّما أرادت لقائي. لماذا تطفَّلوا علينا؟ ونحن لم نؤذِ أحداً، وكوجيما وأنا لم نقترف خطأً بتاتاً، طوال هذه المدَّة. ثم يحدث لنا هذا. لم أبتغِ إلاَّ لقاءها. وكلّ ما فعلته هو المجيء ومقابلتها. لماذا نُزفَس ونُداس؟ لماذا نحن في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هوان؟

ثم بدأتُ أفكّر.

لم يكن هذا بالصلح الذي اعتقدتُ بأنّه يحدث بيني وبين كوجيما، وهي لم تُرِدْ لقائي. تمكّن نينوميا ورفاقه من اكتشاف رسائلنا فأكرهوا كوجيما على الكتابة إليّ. كنتُ أنا المتسبّب في ما يحدث لها. وقد أخطأتُ عندما كتبتُ إليها تلك الرسائل كلّها.

مهما أطلتُ التفكير في ما كان يحدث لم تكن للكلمات في رأسي قوّة. لم تتحرّك كوجيما. ظننتُ أنّ قطرة مطرٍ سقطت على أنفي. رفعت بصري. لم يكن هنالك أثر لسُحُبٍ ممطرة، على أنّ السماء كانت متجهّمة. وقد منح الضوءُ الواهنُ الهواءَ لوناً مختلفاً. كان لوناً سرّيًا، لوناً رأيته في مكانٍ ما وكدتُ أنساه كلّيًا، إلى أن أتت هذه اللحظة. تخلّى الهواء عن تخومه الباردة، وتحوّل إلى تيّاراتٍ دافئةٍ سميكةٍ لفّت أجسامنا مثل الشاش. سمعنا هزيم الرعد من بعيد، لكنّه كان يدنو.

قلتُ لنينوميا «سأفعل أيّ شيء، ودعها تذهب. أتوسّل إليك. كوجيما لم تُرِد مقابلتي. أنا مَن كتب إليها. أبعدها عن هذا. حتى إنّها لم تكلّمني. أردت فقط أن . . ».

شيءٌ ما سَدَّ حلقي.

ابتلعت ريقي وكظمتُ أنفاسي، وانتظرتُ حتى هدأت أعصابي قبل أن أتكلّم.

ثم قلتها.

«كلُّه بسببي».

ضحك صبيٌّ، وقال «هراء. كلامك لا يطابق ما نعرفه»

«لكنّني أقول الحقّ».

قال نينوميا عاقداً ذراعَيه «اسمع، لا تهتمّ بهذا الكلام. عجّل واخلع سروالك. قلتُ قولاً جِدًّا عندما قلتُ إنّنا في عجلةٍ من أمرنا».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت «اتركوها تذهب فحسب».

ضحك، وقال «ومع من ستفعل فعلتك»؟

«فقط دعها تذهب. أرجوك». ودون وعي منّي، وضعتُ جبهتي على الأرض أمام نينوميا.

«هيّا». كان صوته مُشوَّشاً. برفقٍ ركل رأسي بطرف حذائه. «لا أفقه هذه العواطف السخيفة. هل ستخلع بنطالك أم يساعدك أحدهم»؟

رفعتُ رأسي ونظرت إلى موموز عبر عدستَي نظّارتي المتّسختَين بالتراب. كنت جاثياً على ركبتيّ. تلفّظت باسمه.

«موموز، أنت تعلم أنّ لا معنًى لهذا كلّه. أعلم أنّك تعرف. ولا يهمّ إذا حدث أو لم يحدث، أليس كذلك؟ أعلم أنّك تفهم. أرجوك يا موموز»

صفع نينوميا رأسي. تدلّت نظّارتي من أذني، التهبت وجنتي، وبعد لحظة، أحسستُ بمذاق الدم.

«اخرس. ما طلب أحدٌ منك الكلام. اخلعوا بنطاله»

أخذتُ أركل وأرفس محاولاً منعهم، لكنهم قيّدوني وفكّوا حزامي. سمعتُ ضَحِكَ الفتيات. قلت لكوجيما اركضي. صحتُ بها مديراً رأسي لأنظر إليها «اذهبي إلى البيت». كانت جالسةً هناك فحسب. صحتُ بها «اركضي! اركضي!» صحتُ بأعلى صوتي، لكنّها بقيت جالسةً هناك.

أسقطوا بنطالي وسحبوه، مقلوباً، من حذائي. ثم مزّقوا قميصي وتركوني بثوبي التحتيّ. نهاه نينوميا عن خلع حذائي لأنّ الفرجة ستكون أكثر مدعاةً للتسلية وأنا لابس حذائي. جُنّ جنون أوّل فتاةٍ رأتني، وقالت «يا للبذاءة!» ولمّا رأتني الفتيات الأخريات قهقهنَ مبتهجات. حاولت لبس ثيابي، لكنّ صبيًّا لملمها ووضعها على الحوت الإسمنتيّ. كان من المحال أن أصل إليها.

وقفتُ هناك فقط بلباسي التحتيّ وحذائي، محاطاً بأصواتهم التي أخذت تعلو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتنخفض وهم يتحدّثون عنّي كأنّني لست موجوداً. لم أحسّ بالبرودة ولا بالدفء، وألهاني لون السماء المتدرّج.

قال نينوميا «حسناً يا أحول. والآن ساعد كوجيما».

لم أصدّق ما كنت أسمع.

ارتعش صوتي وأنا أقول «ما الذي تقوله؟ ماذا قلت»؟

«قلت اخلع ثياب كوجيما»، أجاب نينوميا بهدوء، ثم فتح فمه ورفع صوته، وقالها مرّةً أخرى، في أذني، ليتيقّن من فهمي. «اخلع ثيابها»

شعرت بحرارةٍ تضجّ في أعضائي، وتصعد من صدري إلى حلقي .

دوّى الرعد شاقًّا الضوء، ورشّ المطر وطشّ. شَكّت فتاةٌ ابتلالها بالماء. وعلى غزارة المطر، سطعت الشمس أكثر من ذي قبل. لم تكن هناك سُحُب، فمن أين جاء المطر؟ كانت قطراته ذهبيّة، قد أضاءتها الشمس، وهطلت في هيئة خطوطٍ أخذت تضرب ظهر الحوت والإطارات وجِلْدِي.

قال نينوميا «إن لم تستطع إنجاز عملك فسننجزه لك. هيّا، إنّها تمطر. أسرع».

لم أقل شيئاً.

سألني «أتظنّ أنّك إذا تلكّأت سننسى الأمر برمّته؟ ثق بي، فأنا امرؤٌ ينشد الكمال. عليك أن تُنهي ما بدأت. أريد نتائج. أريدها الآن. أتسمعني؟ لا خيار لك. افعل ما أقول. الآن».

قلت «لن أفعلها».

ضحك وقال «إذا لم تفعلها فغيرك سيفعلها. ولأنّك عارٍ في الأساس، يصعب تصديق أنّك لن تفعلها».

لزمتْ الصمت.

لم تكفّ الفتيات عن إبداء استيائهنّ من المطر ولا عن إزعاج الفتية. قالت فتاةٌ إنّها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضاقت ذرعاً بما يحدث. وقفتُ صامتاً وأصوات الفتيات تعلو. التفتَ نينوميا إليهنّ، وقال لهنّ إنّ باستطاعتهنّ الذهاب إن شئن. تذمّرت الفتيات قليلاً ثم غيّرن الموضوع. بدا أنّهنّ كنّ باقيات.

قال نينوميا «افعلن ما يحلو لكنّ». أمر صبيًا أن يُنهِض كوجيما. بلا تفكير، مددتُ يدي وتناولت حجراً من التربة قرب الإطارات. كان كبير الحجم، يحتاج إلى أن تحمله يدان. رفعتُه. كان أثقل من المتوقّع. نظرتُ إلى الحجر بين يديّ.

سألني نينوميا «ماذا تظنّ أنّك فاعل»؟

لم أُجِب. حدّقتُ إلى الحجر بين يديّ حتى تضاعف حجمه.

كان نصف الحجر أسود بفعل الرطوبة، وذكّرني ذلك بالدم . وكان لقاعدته السوداء حافّةٌ حادّة. أمسكت بالنصف الجافّ ونظرتُ إلى الحافّة الحادّة.

فكّرتُ في ما قاله لي موموز لمّا كان جالساً على المقعد خارج المستشفى والليل يهبط لم لا تفعل شيئاً إذاً؟ لم لا أفعل شيئاً؟ إذا فعلتَ شيئاً فقد تتبدّل الأحوال. ربّما. سألتُ موموز لكن ألا تشعر بالذنب؟ كلاّ. ولا حتى قليلاً. كان ردّه جاهزاً. قال جميعنا يفعل ما يستطيع فعله. هذا هو كلّ شيء. لا أكثر ولا أقلّ. ولا معنى لأفعالنا. قلتُ لكن كيف لا يكون لأفعالنا معنًى؟ ابتسم موموز بطرفَي عينَيه، وقال لا علاقة لما نفعل بالصواب والخطأ. فهكذا تجري الأمور. في نهاية المطاف لا يهمّ إلاّ ما تفعله، وإذا كنت قادراً على إخافة الآخرين فاسحقهم واجبرهم على فعل ما يحلو لك. لا أريد إخافتك، ولا أريدك أن تخيفني. صحتُ به ليست الأمور بتلك السهولة! فضحك موموز وقالأفعالنا هي ما يجعل الأرض تدور. وهذا ليس وهماً. إنّه الواقع، وما الواقع إلاّ نظامٌ يسيرّ وثابتٌ يؤدّي وظيفته على أكمل وجه. إذا أردت أن تحمل هذا الحجر وتضرب به رأس نينوميا فلتفعل. اسمع. إنّه مُشَوَّش الفِكْر. إذا فعلتها الآن فستصرعه وينتهي أمره. حينها ستنجز المهمّة. ستشعر بالرضا. ستنقذ كوجيما. وعندما يرى الآخرون ما فعلته سيولّون مدبرين. وكذلك سأفعل أنا. لكأنّ تفعل ما تشاء. من سيلومك؟ سيتعاطف الجميع معك، وسيدعونك بطلاً. أقول لك افعلها. لِمَ لا تستطيع فعلها؟ ما الذي يمنعك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اشتدّت غزارة المطر. ولم يتوقّف دويّ الرعد. ومن حينٍ لآخر، انشقّ برقٌ ساطعٌ استطار في السماء المصطبغة بحمرة الذهب، ليُضيء خيوط المطر المنسابة. تكوّنت بِرَكٌ في أنحاء الأرض. توهّمتُ أنّني أندفع نحو نينوميا وقد رفعتُ الحجر عالياً، لكنّ جسدي لم يتزحزح. ولم يكفِني ذلك، فتوهّمتُ، مرّةً أخيرة، أنّني أرميه بالحجر. لكنّني لم أتحرّك. شهقتُ وزفرتُ. على قول موموز؛ إن كنتُ أستطيع فعل ما أريد فسأفعله، ولا علاقة لفعلي هذا بالصواب والخطأ، بل فقط بما إذا كنت أستطيع فعله أو لا أستطيع. ولِمَ لا أستطيع؟ ألا يحسُن بي أن أناضل وأكافح؟ ألا يحسُن بي أن أركض نحو نينوميا بهذا الحجر؟ ما الذي يمنعني؟ عندي سلاح. لكنّ حيازتي سلاحاً لم تكن كافية. إذ كان عليّ استعماله. يا لك من أحمق! ما الذي يصعب عليك فهمه؟ سوّيتُ إمساكي بالحجر واستجمعتُ قواي. وعندئذٍ نهضت كوجيما وأمسكت بذراعي.

نظرتُ إليها.

ونظرت هي إليّ ولم تقل شيئاً. سالت قطرات المطر على وجهها فالتمع حاجباها في الضوء. أفلتت ذراعي. ولم أستطع الكلام. رمقتها ووجدتُني أسأل نفسي عن هيئات النظر التي نظر بها الناس إليّ. نظراتٌ عابرة، نظراتُ اتّهام، نظراتٌ مهينة. غرباء أطالوا النظر إليّ، ولم يكن أمامي خيارٌ إلاّ الاستسلام لنظراتهم. بيد أنّ ثمّة أحوالاً أخرى عندما نظر إليّ أناسٌ بعينٍ مُحِبّةٍ كمثل كوجيما لمّا قالت إنّها تحبّ عينيّ، ونظرت إلى عينِي وتشابكت أيدينا. كنت أُدرك هذا. غير أنّ كوجيما التي كانت أمامي الآن لم تحمل عيناها أيّ عاطفة، وكانتا تنظران إلى العدم. ولمّا نظرتُ إليهما، أدركتُ ذلك.

تقدّمت كوجيما إلى الأمام ووقفت أمام نينوميا. تراجع هو إلى الخلف ولم يقل شيئاً. صوّت الصبية وصاحوا ثم توقّفوا. كان موموز متّكئاً على الحوت وينظر نحونا، عقد ذراعيه مرّةً أخرى ورفع ذقنه.

خلعت كوجيما حذاءها وجوربيها ووقفت على الأرض الموحلة حافية. ثم أدخلت أصابعها تحت ياقة قميصها وخلعت ربطة عنقها ولفّتها ووضعتها في جيب سترتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت حركاتها بطيئةً إلى حدٍّ مؤلم. ثم خلعت سترتها ورمتها على الأرض قبل أن تفكّ أزرار قميصها بادئةً من الأعلى. حلّت تنّورتها. سقطت التنّورة على الأرض مشكّلةً دائرةً داكنةَ الزرقة حول قدميها. غاصت حاشية تنّورتها في البركة عند قدميها، فأصبح لون التنّورة الداكن الزرقة أدكن. همّت بخلع قميصها الداخليّ الأبيض وسروالها اللّدن النسيج الذي كان داكن الزرقة كتنّورتها، فخلعت السروال وألقته جانباً تاركةً على جسدها قميصها الداخليّ ولباسها التحتانيّ الأبيض فقط. وقد التصق النسيج بجلدها بسبب المطر. سالت قطرات المطر على جسدها في أشكالٍ متعرّجة. لم يتكلّم أحد. رفعت كوجيما قميصها الداخليّ، وحرّرت ذراعَيها منه، ثم حرّرت رأسها، وألقت بالقميص على الأرض أيضاً. كانت ضلوعها بارزةً على جسدها الصغير. خلعت لباسها التحتانيّ. والآن أصبحت عاريةً تماماً. لم ينبس أحدٌ بكلمة. لم أكن أسمع شيئاً سوى المطر وهو يهطل على كوجيما. انهمر الماء الذهبيّ على جسدها وعلى ثوبها المدرسيّ المُلقَى على الأرض. أضاء الضوءُ البِرَك، فظهرت على مائها صورة الشمس حتى مع اشتداد المطر.

وقفت كوجيما أمام نينوميا.

تبسّمت.

لم يتكلّم أحد.

لم يفارقها التّبسّم، ودارت بجسدها العاري، ببطءٍ،ووقفت لمّا عادت إلى نينوميا. ثم مدّت يدَيها، وشخصت ببصرها، وقهقهت. كانت قهقهةً عنيفة، تتابعت كأمواجٍ تعلو وتهبط. تصاعد الضحك من جسدها وهي تمشي نحو زملائها الآخرين، مستمتعةً بكلّ خطوة. اتّجهت كوجيما إلى الفتاة التي كانت تقف في أقصى اليسار، ثم وضعت كفّها على وجنة الفتاة، وأنشأت تدلِكها حتى صرخت الفتاة وولّت هاربة. وركضت الفتيات الأخريات وراءها. كانت كوجيما ما تزال تبتسم لمّا بسطت يدها لتلمس الصبية. في أوّل الأمر، حسبوا ذلك مُسَلّياً، لكنّهم سرعان ما أخذوا يبعدون يدها عنهم ثم ولّوا هاربين هم أيضاً، مثل الفتيات، وزعقوا وانتشروا في الأنحاء متسابقين للخروج من المتنزّه بأسرع ما يمكن. ولم يبق إلاّ نينوميا وموموز. ووقفتُ أنا هناك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بثوبي التحتاني وحذائي حاملاً الحجر بيديّ، تحت وابل المطر الذهبي الذي كان لا يني يشتدّ وقعه. كنت أفعل كلّ ما كان بوسعي فعله.

تلك كانت كوجيما التي لم أرها من قبل.

كان لتبسّمها قوّةٌ تَدِقُّ عن الوصف، يبعد سنواتٍ ضوئيّةً عن تبسّمِها لمّا وقعت قرب طاولتي في المدرسة.

لم أستطع تصديق ما كان يحدث. استمرّ المطر يضرب جسد كوجيما العاري وكانت هي تضحك فحسب. كأنّ عقلها اختلط واضطرب، فتحت يديها ومدّتهما لتمسّ نينوميا. ظننتُ أنّني سمعتها تقول هذا يهمّ حقًّا. كوجيما. الصوت الذي أحببت. تذكّرتُ لمّا قلتُ لها، في رسالة، إنّ لها صوتاً حسناً كصوت قلم ب، فالتفتت إليّ وضحكت. قلتُ لها كوجيما، لماذا تقولين إنّ هذا يهمّ؟ قالت مؤكّدةً أنّه يهمّ. نحن لا نستسلم. ونحن من يسمح بحدوث ما يحدث لنا. ونعرف ما الصواب. إرادتنا سليمة. أمام هؤلاء الصبية الكثير ليتعلّموه. تكلّمنا في هذا من قبل. سيتعلّمون يوماً ما. رنّ ضَحِك كوجيما في أذنيّ. وقد أنساني ضحكها ما كانت تجري عليه الأمور. قالت الضعف يهمّ. له مغزًى حقيقيّ. صَمَتُّ وركّزتُ على صوتها. ثم قالت ولكن أتعرف ماذا؟ إذا كان الضعف يهمّ فكذلك القوّة. ولستُ أعني بذلك أن يستغلّ الضعفاء القوّة لتبرير ضعفهم. نظرتُ إلى كوجيما، لكنّني رأيتُ موموز يبتسم مخاطباً إيّاي إذا كان لأيّ شيءٍ معنًى فإنّ لكلّ شيءٍ معنًى، وإذا لم يكن لأيّ شيءٍ معنًى فلا معنًى لكلّ شيء. ذلك ما قلته. الأمر سيّان. أنت، أنا، كلّنا أحرارٌ في تفسير العالم كيفما شئنا، وكلٌّ منّا يراه رؤيةً تختلف عن رؤية الآخر. إنّ المسألة لَهِي بهذا اليُسر. ولذلك ينبغي أن تكون قويًّا. عليك أن تتغلّب على الناس كي لا ينالوا منك بآرائهم وقواعدهم وأخلاقهم. صحتُ قائلاً لا. لا أقبل هذه القوّة. لا أريد أن أنحطّ إلى الدَّرَك الأسفل ولا أريد أن أدفع الآخرين إليه. لا تقل ذلك. قالت كوجيما بصوتٍ هادئ نعرف الصواب والخطأ. لكنّنا نريد أن نرى، نريد برهاناً على أنّنا سنُثابُ ونُجازَى على آلامنا ومعاناتنا. وقد قلتُ لك إنّ هذا كلّه ما عاد يخصُّنا وحدنا. ولذلك عينك هي ما هي عليه من حال، ولذلك عندي علاماتي. لذلك التقينا. وللوقائع معنًى دائماً. ولتجاوز الألم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمعاناة معنى. قال موموز بصوتٍ أجشّ ذلك صحيح، وعليك أن تدفع الآخرين إليه. نظرتُ إلى كوجيما نظرةً خاطفة. كان الوجهُ وجهَها، لكنّ الصوت كان صوت موموز. ثم عندما ظننت أنّني سمعت صوت كوجيما مرّةً أخرى صار الوجهُ وجهَ موموز. قالت نحن لا نتكلّم عن أوهام، بل عن واقع. لستَ بحاجةٍ إلى الوهم، لستَ بحاجةٍ إلى أيّ شيء. تحتاج إلى الحقيقة الساطعة فحسب. ضَحِكَ شقُّ الهواء. لم أستطع تمييز الصوت. أكان صوت موموز؟ اختلط صوتاهما ووجهاهما حتى إنّي ما استطعتُ تمييز أحدهما من الآخر. أغمضتُ عينيّ وهززتُ رأسي.

ولمّا فتحتُ عينيّ كانت كوجيما ما زالت مستمرّةً في الضحك.

أخذ نينوميا يرمق كوجيما. لم يقل شيئاً. داعبت كوجيما خدّه بيدها اليمنى. من مكاني، تبيّنتُ كم كان متوتّراً. ابتسمت كوجيما ورفعت يدها لتربت رأسه. عبس وجهه عبوساً لم أره من قبل. وتورّد خدّاه وتضرّجا. شدّ قبضتَيه غير قادرٍ على الحركة. عندما فرغت كوجيما من نينوميا مشت إلى موموز. مشت كأنّها تسير وهي نائمة، على أنّها خطت كلّ خطوةٍ بثبات.

Telegram:@mbooks90

عندما مدّت يدها لتمسّ موموز تنبّه نينوميا وعادت إليه حواسّه وركض ليمنعها. جذب شعرها من الخلف وألقى بها في بركةٍ من البِرَك. استطعت سماع قطرات المطر تسوط ظهرها كأنّها أحجار رُخام. أوقعتُ الحجر من يديّ وعدوتُ إليها. نظر نينوميا إلينا وقد احمرّ وجهه. أطلق موموز ذراعَيه ومسّ شفتَيه. أطالت حدقتاه النظر إلى كوجيما. بدا راضياً.

«أنتم! ماذا تفعلون»؟

شخصٌ ما صاح بنا من خارج المتنزّه. التفتُّ. كانت امرأةٌ في منتصف العمر تحمل بيدها مظلّةً وبالأخرى أكياس تسوُّقٍ بلاستيكيّة، أخذت تراقبنا وترمقنا. ضرب نينوميا ذراع موموز ضرباً سريعاً قبل أن يولّي هارباً. وركض موموز في الاتّجاه الآخر.

أقبلت المرأة نحونا.

«ما الذي يحدث هنا»؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت كوجيما منكبّةً على وجهها وظهرها عارٍ، وما زالت تضحك، لكنّها بدت بلا حراك. أنهضتُها لتستوي جالسةً ثم حملتُ كلّ قطعةٍ خلعتها من ثيابها المبتلّة وغطّيتها بها. بدأ المطر يخفّ وسطعت الشمس. لمع بياض جلد كوجيما في أشعّة الشمس. اتّكأتْ عليّ وضحكتْ وعيناها تدمعان. انهمرت دموعها واختلطت بالطين والماء اللذين ملآ وجهها. قلت لها «أعلم كم تتألّمين يا كوجيما! أعلم كم تتألّمين!أعلم كم تتألّمين!» وكان ذلك هو كلّ ما استطعت قوله. وبكيتُ أنا كذلك بكاءً مريراً.

سألتنا المرأة «أين ثيابكما؟ أنتما الاثنَين، أين ثيابكما»؟ احتكّتْ أكياسها بعضها ببعض وصرّت صريراً.

«ابق هنا»، قالت المرأة وهزّت كتفِي.

بيد أنّني لم أحِر جواباً. مراراً ناديتُ باسم كوجيما وأنا أربّتُ ظهرها. لم تُجبني. وما فَتِئتْ تبكي وتضحك. مِلتُ نحوها وأحطتُ رأسها بذراعيّ. لم أستطع الكفّ عن البكاء. سالت دموعي على وجه كوجيما مختلطةً بدموعها وبالمطر. وما بكيتُ حزناً، بل أحسب أنّني بكيت لأنّه لم يكن هناك مكانٌ يؤوينا، ولأنّه لم يكن لنا بُدّ من الاستمرار في العيش في هذه الدنيا. بكيتُ لأنّه لم تكن هناك دنيا أخرى نختارها، وبكيتُ بسبب كلّ ما يحدث أمامنا وحولنا. ظللتُ أنادي باسم كوجيما. بعد حين، جاء كبارٌ آخرون. أخذت كوجيما تنظر إليّ إلى أن لفّوا جسدها بدثارٍ وحملوها بعيداً. كان ذلك آخر عهدي بها.

لم يكن لي صديقٌ مثلها قطّ. كانت صديقي الوحيد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل التاسع

جلستُ وماما إلى مائدة المطبخ متقابلَين، كعادتنا عندما نتناول العشاء. لم نتكلّم. أعدّت لي شاياً، ثم، كأنّها أعادت التفكير، قامت مرّةً أخرى لتصبّ لنفسها الشاي أيضاً. ولمّا لاحظت فراغ كوبي نهضت لتعدّ إبريق شاي آخر. وحدث هذا مراراً.

مرّ يومان على ما حدث في متنزّه الحوت. لم أعد إلى المدرسة. جاء المعلّمون والآباء إلى بيتنا أفواجاً، لكنّ ماما أبَت السماح لهم بالدخول، وصرفتهم قائلةً إنّها ستذهب إلى المدرسة بنفسها وتقول ما يجب أن يُقال. لزمتُ أنا حجرتي.

قالت ماما «إنّ هذا يُشبه ما نشاهده في التلفاز، حين يلزم الابن غرفته، وتترك له أمّه طعامه على صينيّةٍ خارج الغرفة. وإذا كان يدرس للامتحان فإنّها تُدخل الصينيّة إلى غرفته، وبخلاف ذلك فإنّها تتركها في الخارج، أليس كذلك؟ ثم تعود بعد حين، وتجد الصحن خالياً من الأكل، فتحمل كلّ شيءٍ إلى المطبخ. أتعرف ما أقصد؟ إنّ هذه هي أوّل مرّةٍ أقوم فيها بهذا العمل». وضحكتْ باضطراب. «لا أعرف ما أقول .
».

سألتُها «ماذا»؟

«حسناً، أنا مسرورةٌ لأنّني أستطيع فعل ذلك لك».

«أوه».

«ينبغي أن أزور المدرسة، لكنّني، قبل ذلك، أريد أن أكلّمك في شيء».

«حسناً».

«عندما تقع مثل هذه الأحداث يهوى الناس القيل والقال»

«أعرف».

«لكنّك أنت الوحيد الذي سأصغي إليه»

«أعرف».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«لك أن تقول ما شئت. أو لا تقول شيئاً، إذا كان ذلك ما تريد».

رويتُ لها عن تعرُّضي للتنمُّر.

عن السنة الماضية وعن كلّ ما حدث قبل ذلك. ظننتُ أنّ حديثي سيستمرّ اليوم بطوله، لكنّه لم يطل ما إن بدأت، ولم يدم سوى دقائق ما إن عبّرتُ عن أفكاري وعواطفي بالكلمات. أراحت ماما وجنتها على كفّها، وكانت تومئ برأسها من حينٍ لآخر، مصغيةً إلى كلّ ما أقول.

بعد صمتٍ طويل، قالت وهي تدير كوبها في يدها «أرى أنّك لست بحاجةٍ إلى الذهاب إلى المدرسة. لكنّ المدرسة الثانويّة لن تكون على هذه الشاكلة. إذا كنت تريد الاستمرار في الذهاب إلى المدرسة فإنّنا سنجد وسيلةً لتحقيق ذلك».

«حسناً».

قالت «لن يُجبرك أحدٌ على الذهاب إليها، ولستَ مضطرًّا إلى الذهاب».

«حسناً».

ابتسمتْ، وقالت «سننجز ذلك. أيًّا كان ما تودُّ فعله. فلنناقشه فحسب».

ثم أخبرتها عن عينيّ. وأنّني لا أعرف ما يجب أن أفعل. وأنّني لا أعرف إذا ما كانت الجراحة ستنجح، وإذا كان حتى التفكير فيها يعني الاستسلام، فقد رويت لها عن كوجيما وأنّها قالت لي إنّ عينيّ هما أنا، وإنّني من دونهما ما كنتُ لأكون أنا، وكم كان لذلك شأنٌ عظيمٌ عندي، وكم كان أثيراً عندي. تريّثتُ وأنا أتكلّم، وكانت ماما تصغي فحسب. حتى إنّني رويت لها عن أمّي التي ولدتني وإن لم أكن متيقّناً ممّا إذا كان يليق بي قول ذلك لها. قلت لها إنّ أمّي كانت ذات عينٍ حولاء أيضاً. وعندي صورةٌ لها حيث يمكنني تبيُّن عينها.

*

أصغت ماما وهي تحدّق إلى أصابع يدَيها المبسوطتَين على المائدة. أخذت كوبها ونهضت لتصبّ مزيداً من الشاي. سمعتُ صوت تدفُّق الماء في الإبريق، ثم صوت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طقطقة الموقد. بعد حين، بدأ الماء يغلي، وقد أطلنا الإنصات إلى صوته كأنه غنى لنا شيئاً.

قالت «لا أظنّ أنني أبلغتك بهذا من قبل، لكنني أعرفها، أعرف أمك».

سألتها «أكنتما صديقتين»؟

قالت وكانت في المطبخ «ليس تماماً، لكنني أعرفها. لم أكن على يقينٍ من أنك تتذكّر هيئتها، لكنني حزرتُ أنك تعرف، أنّ عينَيها كانتا كعينَيك، من صورةٍ أو ما شابه. لذلك عندما أثرتَ موضوع عينَيك لم أعرف ما أقول. أعرف أنك ربّما تكون قد ربطت الأمر بأمك، وأنّه ليس من شأني أن أقول شيئاً. وأكثر من ذلك، لطالما كان الوضع طبيعيًا لي، فلا ضير في أن تكون عينك حولاء».

صمتنا حيناً من الوقت.

قالت وهي تنظر إليّ «أتعرف ماذا؟ أظنّ أنّه يحسُن بك أن تمضي في إجراء العمليّة».

نظرتُ إليها.

«الأمر عائدٌ إليك. إلاّ أنّني ما زلت أعتقد أنّه يحسُن بك إجراؤها. العينان تبقى عينَين. لن تخسر شيئاً. ما ينبغي أن يبقى سيبقى وما لا ينبغي أن يبقى سيزول».

«أجل».

سألتني وهي تهمُّ بالجلوس «هل ستطول إقامتك في المستشفى»؟

«قالوا إنّني لصغر سنّي لن أبيت إلاّ ليلةً واحدةً في المستشفى».

ضحكتُ، وقالت «ماذا، أهذا هو كلّ شيء؟ ظننتُ أنّ الأمر أعقد من ذلك، وأكثر إثارة».

«أجل، ربّما». ضحكتُ وضحكت ماما.

قالت بحزم «حسناً، لا تقلق بشأن التكلفة. إذا كنت ستجري العمليّة فأحرى بك أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تجد أفضل طبيب في البلاد».

قلت «قال الطبيب إنّ الأطبّاء الشباب يجرون هذه الجراحة دائماً».

«أجدْ ما تقول»؟

«قال إنّ أيّ طبيب يمكنه إجراؤها».

عبست، وقالت «لكن ليس لذلك علاقةٌ بالتكلفة، أليس كذلك؟ إنّنا نتكلّم عن جراحةِ عين. ينبغي أن تكون مكلفة».

«قال إنّها تكلّف ١٥٠٠٠ ين».

سألت ماما «أهذا كلّ شيء؟ ١٥٠٠٠»؟

«ها هو ذا!»

لمّا رآني الطبيب رفع يده قرب وجهه مُسَلِّماً وتبسّم. انحنيتُ وماما ردًّا على سلامه. كان أصيل ذلك اليوم مشمساً. اكتظّت الردهة كالعادة، وقد علق ما علق بها من روائح لا يشمُّها المرء إلاّ في المستشفيات. انحنت ماما مرّةً أخرى شاكرةً للطبيب استقباله لنا على انشغاله وضيق وقته، وسألَته عن العمليّة. همستُ قائلاً لها إنّه ليس هو مَن سيُجريها.

قالت «أوه»، واستَخيَت وتحيَّرَت فانحنت مرّةً أخرى، معتذرة، هذه المرّة. ضحك الطبيب، وقال أنْ لا بأس ولا حرج عليها.

«هو صديقٌ لطيف، وطبيبٌ حاذقٌ أيضاً. صدّقي أو لا تصدّقي، إنّه مختصٌّ بالحَوَل. كثيرٌ من المرضى يتوافدون إليه هنا».

انحنت ماما مرّةً أخرى، وقالت «نشكر لك تعريفنا به»

ضحك الطبيب، وقال لا بأس ولا كُلْفَة.

«خيرٌ لك أن تجريها وأنت في مقتبل العمر. لا وقت أفضل من هذا الوقت».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تبسّم، وأومأنا برأسَينا موافقَين.

تحادثنا قليلاً. ممرّضةٌ كانت تنادي باسم مريضٍ في مكبّر الصوت مراراً وتكراراً. وجانباً وقف معاونو الممرّضات وهم يتبادلون أطراف الحديث. وكانت هناك ممرّضاتٌ يَقُدنَ كبار السنّ بالقرب منّا بخطواتٍ حذرة. كنّا نراقب المشهد، لكنّ عقلي كان في مكانٍ آخر. بعد حين، نادوا باسمي. ذهبت ماما إلى طاولة الاستقبال لتملأ أوراق بياناتٍ وسواها ممّا يحتاج إليه الطبيب للجراحة.

سألني الطبيب «هلاّ تمشّينا قليلاً»؟

قلت لماما إنّني سأخرج مع الطبيب.

سألتُ الطبيب ونحن نتمشّى «أليس عندك مرضًى تعاينهم»؟

قال وهو يصدُّ تثاؤبه «ليس في أصائل الأربعاء». تمطّى كأنّه استيقظ من نومه توًّا. «هل سيخضعونك لتخديرٍ موضعيّ»؟

«لا، سيكون تخديراً كلّيًّا».

ابتسم، وقال «هل أنت خائف»؟

ضحكت، وقلت «قليلاً».

قال ولم يردَّ تثاؤبه هذه المرّة «بلى، لا ألومك. الطقس دافئٌ اليوم، بالنظر إلى برودته طوال الأسبوع».

كان يوماً مشرقاً من أيّام كانون الأوّل، يوماً يسيراً سهلاً توافقت فيه دقائق الساعة وتسايرت. جلسنا على مقعدٍ ورحنا نراقب الناس. امتلأ المكان بأصواتٍ شتّى. أجراس درّاجات. أطفالٌ يبكون. صوتُ آلة حفرٍ من بعيد. وقريباً منّا شَدَت الطيور وزقزقت. لم تكن الريح شديدة، لكنّها لم تتوقّف. صوتها ملأ كلّ شيءٍ حولنا، واستكنّ بين الأشجار.

سمعتُني أقول كأنّ الكلمات قفزت من فمي قفزاً «إنّني أجهل حتى سبب وجودي هنا، ولا علم لي إن كان ما أفعله صائباً».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الطبيب «لا بأس». ثم جلسنا هناك فحسب.

قلت كأنني أحدّث نفسي «لماذا تُجرَى لي هذه العمليّة»؟

«لأنّ عينك حولاء. هل تحتاج إلى سببٍ آخر»؟

بقيت صامتاً.

«يتغيّر الناس دوماً. انظر إلى أنفك. أتذكر كيف انتفخ؟ وها هو الآن في حالٍ حسنة. وهذه العمليّة لا تختلف عن ذلك. أتعلم ما أعني»؟

أسند الطبيب ظهره إلى المقعد ووضع يدَيه على رأسه، وحرّك عنقه يمنةً ويسرة.

ضحك، وقال «ما زلتَ صغير السنّ. أمامك حياةٌ كاملة. إذا نجحت العمليّة فستألف عينَك الجديدة بسرعة. حتى إنّك لن تتذكّر ما كانت عليه من حال».

سألته «أتظنّ ذلك؟ أتظنّ أنّني سأنسى حقًّا»؟

قال «لا ريب عندي ذلك. حتى إنّك لن تتذكّر أنّك نسيت الأمر. بخلاف آخرين».

ثم نقر أنفه بسبّابته وضحك.

قال «عودُ طعام».

وضحكنا معاً.

شممتُ رائحة مُطَهِّرٍ وتنبّهتُ لأغطية سرير المستشفى البيضاء. عاد الإحساس إلى يديّ وقدميّ. انتهت العمليّة وكان التخدير يتلاشى. سألني صوتٌ عن حالي، فالتفتُّ ورأيت ماما. بدت قلقة. مسستُ وجهي ووجدت قطعة شاشٍ كبيرةٍ على عيني اليمنى، وشعرتُ بمقلتي تدور تحت طيّات الشاش. أحسستُ بلسعٍ طفيف، ولم يكن شيئاً يستحقّ وصفه بالمؤلم.

قالت ماما «ستبيت الليلة هنا. سآخذك إلى البيت في الصباح. اتّفقنا»؟ كان رأسي ما يزال مُشَوَّشاً. حاولت أن أومئ برأسي دون أن أستقيم جالساً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد وقتٍ قصير، جاء طبيب العيون ليسألني إن كنت أتألم. قلت له إنني بخير. ضغط الضمّادة على عيني بإبهامه، ثم أخبرني بما سيعقب العمليّة. قال إنّها كانت ناجحة، ودلّني على مرّاتٍ استعمال قطور العين وعلى ميعاد العلاج الطبيعي. وأوضح لي بأنّ الأمر قد يطول قبل أن تنمو عضلات عيني، وينبغي أن أخضع لفحصٍ منتظم. أومأت برأسي وأنا مشوّش الذهن، ثم سرعان ما غططتُ في النوم.

في اليوم التالي، جاءت ماما إلى المستشفى وقت الغداء لاصطحابي. انتظرتُها لتنهي أوراق خروجي من المستشفى، ثم انصرفنا. أشرقت الشمس في الخارج، وانتشرت زرقة السماء الصافية في كلّ الأنحاء. ظننتُ أنّني سأكون على ما يرام بعيني اليسرى وحدها، فلطالما كانت هي العينَ السليمة، بيد أنّني ألفيتُ مشقّةً في المشي. ربّما بسبب الضمادة. لم أتبادل وماما الكلام. وفي منتصف الطريق إلى البيت، أدركتُ هي أنّها نسيت بطاقة التأمين في المستشفى فأشارت عليّ بانتظارها ريثما تعود وتجلبها.

وقفتُ في منتصف الطريق المحفوف بالأشجار.

أغمضتُ عينيّ كلتَيهما وأبعدتُ الضمادة عن عيني اليمنى، لبستُ نظّارتي، وفتحت عينيّ ببطء.

ما رأيتُه أمامي كان شيئاً لم أحلم به من قبل قطّ.

في هواء كانون الأوّل البارد، كلُّ أوراقِ الأشجار تلألأت في السماء، آلافٌ تتبعها آلاف، وغمرتها خيوطُ الشمس الذهبيّة. كلّ ورقةٍ امتلأت بنورها الخاصّ، وانسكب النور كلُّه عليّ بلا نهاية. تنسّمتُ الهواء واستسلمت لفيض النور. كأنّ يدَيّ كائنٍ هائلٍ مطّتا المسافة بين ثانيةٍ وأخرى. نسيتُ أن أتنفّس، نسيتُ أن أطرف بعيني، وتركتُ نفسي تغوص في لحاء الأشجار العطريّ الأسود. شعرتُ بلحائها يَمَسُّ أرقَّ أعضائي. بأطراف أصابعي، أمسكتُ بقطرات الضوء المتساقطة من خلال الفجوات بين الأوراق التي ترنّمتْ فرحاً، بل إنّني دخلت بينها. كان الوقت نهاراً، لكنّ الشمس استترت عن العيون. وكلّ شيءٍ لمع عفواً من تلقاء نفسه. فغرتُ فمي مشدوهاً وهززتُ رأسي عاجزاً عن تصديق إن كان ما أرى حقيقة. انحنيتُ والتقطت ورقة شجرٍ وعاينتُها. لم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشعر، من قبل، بثقلها ذاك، ولم أخبر أيضاً برودتها تلك، وكان شكلها محدّداً واضحاً. ترقرقت عيناي وأنا أرى الدنيا أمامي وهي تتكشّف في غلالة الدموع، وتنفلق وتنشقّ بلا توقّف، وتنبعث كرّةً أخرى.

كلّ شيءٍ اكتسى حُسناً وجمالاً. عند طرف الشارع، الشارع الذي مشيت فيه مرّاتٍ أكثر من أن أحصيها، رأيت الطرف الآخر، أوّل مرّة، يلمعُ بياضاً. استوعبتُه. وبين دموعي، رأيت الدنيا واضحةً جليّة. وأصبح لها عمق. وجانبٌ آخر. شخَصتُ ببصري مجاهداً لأرى الدنيا كلّها. كلّ ما استطعت رؤيته كان جميلاً. بكيت وبكيت وأنا واقفٌ هناك مُحاطاً بذلك الجمال، لكنّني، أيضاً، لم أكن واقفاً في أيّ مكان. وقد سمعتُ صوت دموعي. كلّ شيءٍ اكتسى حُسناً وجمالاً. وما همّني أن يكون هناك مَن أشاطره الأمر وأخبره به. الجمال فحسب.

Telegram:@mbooks90

---

[1] كوجيما تُخطئ في تسمية المرض، وهو داء السّل، (المترجمة). .

[2] هنا يوجد تناقض في نصّ الترجمة الإنكليزيّة للرواية بين جلوس السارد ووقوفه.. وليس واضحاً إذا كان التناقض سهواً أو مقصوداً في النصّ الأصليّ.. نفهم أنّ السارد هنا واقف.. سيظهر في الصفحة التالية لهذه الصفحة أنّ السارد «جالس هناك بصمت»، ونحن نعرف أنّه كان واقفاً ولم يجلس.. وبعد بضع صفحاتٍ يعود السارد ويقول: «فوقفت هناك أنظر إلى ركبتي موموز»، (المترجمة). .

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner